لنخرج ونسرق الخيول

بير بيترسون

رواية

مكتبة ٧٠٩

دار المنى

مكتبة | 709
سُر مَن قرأ

اهداء لصاحب الرسالة

بير بيترسون

لنخرج ونسرق الخيول

مكتبة 709
سُر مَن قرأ

النص العربي: سكينة إبراهيم

دار المنى

التعريف بالكاتب:

ولد بير بيترسون في أوسلو سنة ١٩٥٢.

اشتغل عاملاً لعدّة سنوات. انتقل بعد ذلك إلى حقل المكتبات وعمل مكتبيًا متمرّسًا ثم بائع كتب. طرق باب الترجمة والنقد الأدبي قبل أن تنشر أول أعماله، ثم كرّس وقته للتأليف.

أراد الانصراف إلى الكتابة منذ أن كان في الثامنة عشرة من العمر، لكن خوفه من الفشل أعاقه عن تحقيق هذه الرغبة.

صدر أول عمل له سنة ١٩٨٧. وهو عبارة عن مجموعة من القصص القصيرة. نال هذا الكتاب استحسانا كبيرًا من القرّاء، وشجّعه على الاستمرار، فعكف على الكتابة وأسس لنفسه شهرة واسعة ومكانة بين الكتاب النرويجيين.

لم يعتقد بير بيترسون عندما قرر المجازفة ودخول معترك الكتابة أنه سيحظى في يوم بأيّ اهتمام خارج نطاق النرويج. فهو لم يكن معروفا على صعيد البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية. لكن رواية لنخرج ونسرق الخيول فتحت له الباب على مصراعيه.

فازت هذه الرواية بجائزة إمباك الأدبية الدولية لسنة ٢٠٠٧. وهي جائزة تمنح لأفضل عمل روائي فردي ينشر بالإنجليزية في أيّ مكان في العالم.

مكتبة
t.me/t_pdf
٢٠٢١٧٤

إلى تروند ت.

ISBN 978 91 85365 42 5
Arabic edition © Dar Al-Muna Stockholm 2008
Copyright © Per Petterson 2003
Original title in Norwegian :Ut og stjaele hester
Copyright © förlaget Oktober as, Oslo 2003
Arabic text: Sukainah Ibrahiem
Arabic text © Dar Al-Muna
Published with a translation grant from Norla

www.daralmuna.com

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف،
وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة
أن تعبر عن آراء المؤسسة.

I

مكتبة
t.me/t_pdf

١

مطلع تشرين الثاني. الساعة التاسعة. تصطدم طيور القُرْقُف بالنافذة. أحيانًا تنطلق مترنّحة بعد الاصطدام. وأحيانًا تهوي أرضًا، وتتخبّط فوق الثلج الطري إلى أن تنجح في التحليق من جديد. لا أدري ما تريده تلك الطيور مما أملكه. أرنو من النافذة إلى الغابة. ألمح ضوءًا مائلاً إلى الحمرة فوق الأشجار عند البحيرة. تبدأ الريح في الهبوب، أستطيع أن أرى تشكّلها فوق الماء.

هنا أقطن الآن. في بيت صغير في أقصى شرق النرويج، بالقرب من نهر يصبّ في البحيرة. إنه ليس بنهر ذي شأن؛ فعلى الرغم من أنه في كلّ خريف وربيع يجري بوتيرة عالية، غالبًا ما يغدو في الصيف ضحلاً. في هذا النهر يعيش سمك السلمون الذي سبق لي أن اصطدت بعضًا منه. ومصبّه لا يبعد عن هنا إلا بضع مئات من الأمتار. وما إن تسقط أوراق أشجار البتولا حتى يتسنّى لي أن أراه من نافذة مطبخي. مثلما هو الحال الآن في تشرين الثاني. ثمّة بيت ريفي عند ضفّة النهر

يُتاح لي أن أراه حينما تُضاء أنواره إذا خرجت ووقفت أمام عتبة بيتي. في ذلك البيت يعيش رجل أعتقد أنه يكبرني سنًا. أو هكذا يبدو لي. ولعلَّ هذا يعود إلى أنني أنا نفسي أجهل ما هو عليه مظهري. أو لعلَّ الحياة قست عليه أكثر مما قست عليّ. إنها احتمالات لا يمكنني استبعادها. ذاك الرجل يمتلك كلبًا من فصيلة بوردر كولي.

لديّ معلف طيور قائم على سارية في ناحية ما من فناء بيتي. وحينما يشعشع نور الصباح أجلس إلى طاولة المطبخ مع فنجان قهوة، وأراقب الطيور تُقبل مرفرفة. لقد رأيت إلى الآن ثمانية أنواع مختلفة منها. وهذا يفوق ما سبق لي أن رأيته في أي مكان آخر عشت فيه. ومن بينها جميعًا، طيور القرقف فقط هي التي تصطدم بالنافذة. عشت في ما مضى في أماكن شتّى، والآن استقرّ بي المقام هنا. حينما ينبثق نور الصباح أكون قد صحوت قبله بساعات، وأوقدت المدفأة، وتجوّلت في المنطقة، وطالعت صحيفة الأمس، وجليت الصحون القليلة المتخلّفة من الأمس. وأكون أيضًا قد استمعتُ إلى إذاعة البي بي سي. غالبًا ما أترك المذياع مفتوحًا معظم اليوم. ومع أنني أداوم على سماع الأخبار، بحكم عادة لم أستطع التخلّص منها، ما عدت أدري ما الفائدة التي أجنيها منها. يقولون إن بلوغ سبعة وستين سنة من العمر ما عاد شأنًا ذا بال. وهذا في الحقيقة ما أراه. فأنا أشعر بنشاط جيّد، إلا أنني كلّما سمعت الأخبار اكتشفت أنها ما عادت تشكّل الأهمية نفسها في حياتي؛ فقد كفّت عن التأثير في رؤيتي للعالم كما كانت تفعل في السابق. ولعل في هذه الأخبار شيئًا غير سليم، ربما في طريقة عرضها، أو ربما في كمّها الذي ازداد كثيرًا. ميزةُ البي بي سي في بثّها الصباحي الباكر أنّ كلّ شيء فيها صار مختلفاً، وأنها ما عادت

تتطرّق إلى الحديث عن النرويج، وأنني أتمكّن بوساطتها من الاطّلاع على مراكز رياضة مثل الكريكت في بلدان أخرى؛ مثل جامايكا والباكستان والهند وسيريلانكا. رياضة لم أشاهد طريقة لعبها قطّ، ولن أفعل أبدًا إذا كان لي رأي في هذه المسألة. ما لاحظته على كلّ حال هو أن إنجلترا، الوطن الأم، تخسر دائماً في هذه الرياضة. وهو أمر لافت للنظر.

أنا أيضاً أقتني كلبًا. بل كلبة. اسمها ليرا. مِن أية فصيلة هي؟ من الصعب التخمين. وهذا ليس مهمًا. لقد سبق لنا أن خرجنا اليوم باكرًا، وبيدي مصباح جيب، لنقوم بجولتنا المعتادة على طول درب البحيرة بضفّتها المحفوفة ببضع مليمترات من الجليد، حيث سيقان القصب الميتة ذات الصفرة الخريفية. والثلج الذي راح يتساقط علينا بسكون وغزارة من السماء الداكنة جعل ليرا تعطس بنشوة. أما الآن فهي مستغرقة في النوم بالقرب من الموقد، والثلج قد توقّف. وفيما يواصل النهار مسيرته سيذوب كلّه. أستطيع التكهّن بذلك من مقياس الحرارة، فمؤشّره الأحمر يرتفع مع تدرّج ارتفاع حرارة الشمس.

تقت طوال حياتي إلى أن أعيش وحدي في مكان كهذا. حتى عندما كان كلّ شيء على ما يرام، وهو في الواقع ما غلب على حياتي. أستطيع بالفعل قول هذا؛ بأن حياتي غالبًا ما اتسمت باليسر، وأنني كنت محظوظًا. لكن، حتى حينذاك، وبينما أنا مستغرق في عناق حميم على سبيل المثال، وشخص ما يهمس في أذني كلمات لطالما تشوّقت إلى سماعها، كنت أشعر فجأة برغبة طاغية في الابتعاد إلى مكان ليس فيه إلا الصمت. وقد تمرّ سنين من غير أن أفكّر في الأمر، وهذا لا يعني أبدًا أنني لم أَتُق إلى ذلك المكان. والآن، ها أنا هنا، وما

أنا فيه هو تقريبًا مماثل لما ما برحت أتخيّله.

بعد أقلّ من شهرين ستحلّ نهاية الألفية. وستُقام مهرجانات وألعاب نارية في الأبرشية التي أنتمي إليها. لن أقرب أيًّا من تلك الاحتفالات. سأمكث في البيت مع ليرا، وربما أتمشّى إلى البحيرة لأرى هل سيصمد الثلج تحت وطأة ثقلي. أتوقّعها ليلة مقمرة، بدرجة حرارة عشرة تحت الصفر. في تلك الحالة سأوقد المدفأة، وأضع على الحاكي القديم أسطوانة للمغنية بيلي هوليداي بصوتها شبه الهامس، على نحو ما سمعتها في مدرج أوسلو في وقت ما من الخمسينات، ذلك الصوت الذي بقي مفعمًا بالسحر على الرغم من خبوّ جذوته تقريبًا. وسأتمل بدون إفراط من شرب ما في القنينة التي وضعتها جانبًا في الخزانة. وعندما تنتهي الأسطوانة، سآوي إلى الفراش وأنام بعمق يدنيني من الموت ولا يميتني. وأصحو بعد ذلك على ألفية جديدة من غير أن أسمح لها بأن تعني لي شيئًا. إنني لأتطلّع بشوق إلى فعل ذلك.

في هذه الأثناء، سأمضي أيامي في ترميم البيت. هناك أعمال كثيرة تنتظرني. لقد حصلتُ على هذا البيت بسعر مناسب. في الحقيقة، كنت على استعداد لأن أدفع أكثر بكثير لأضع يدي على البيت والأرض. لكنني لم أواجَه بمنافسة تستحق الذكر. إنني أدرك السبب الآن، إنما هذا ليس مهمًا، فأنا مسرور في جميع الأحوال. أحاول أن أنجز أكبر قدر من التصليحات وحدي. أستطيع بالتأكيد أن أستعين بنجّار، لأنني بعيد كلّ البعد عن مرحلة الفاقة. إلا أن وجود النجّار سيسرّع في إنهاء العمل، وما أريده هو استغلال الوقت الذي يتطلّبه. الوقت مهمّ لي الآن، أقول لنفسي. ولا أعني أنه ينبغي له أن يمرّ بسرعة أو ببطء، بل أعني الوقت نفسه فقط، باعتباره بُعدًا أحيا فيه، وأشغله

بأنشطة وأمور مادية، أستطيع بوساطتها أن أقسمه، بحيث يغدو قابلاً للتمييز بالنسبة لي، ولا يتلاشى حينما أغفل عن مراقبته.

حدث شيءٌ ليلة أمس.

كنت قد أويت إلى الفراش في الغرفة الصغيرة المجاورة للمطبخ، حيث أعددت سريرًا مؤقتًا تحت النافذة. واستغرقت في النوم والليل تجاوز منتصفه والظلام في الخارج دامس. والجوّ بارد كما تبيّن لي عندما خرجت قبل النوم لأتبوّل للمرّة الأخيرة وراء البيت. أعطي نفسي الحقّ في فعل هذا. ففي الوقت الحالي ليس لدي هنا سوى مرحاض خارجي. ثم إنه من المتعذّر أن يراني أحد والغابة تحيط بي كثيفةً من ناحية الغرب.

كان ما أيقظني من النوم صوت قويّ وحادّ، راح يتردّد بوتيرة متقطعة، متبوعًا بفترة صمت قبل أن يعود ليبدأ ثانية. اعتدلت في سريري، فتحت النافذة، ونظرت خارجًا. لمحت في العتمة الشعاع الأصفر لمصباح جيب في الأسفل؛ على الدرب المحاذي للنهر. تهيأ لي أن حامل المصباح هو من يصدر ذلك الصوت الذي سمعته، بيد أني لم أستطع تمييز ماهيته، أو لماذا يطلقه. هذا إن كان من يطلقه شخصًا. ما لبث شعاع الضوء أن أخذ يتمايل يمينًا وشمالاً على غير هدى، كما لو أنه يتخاذل. حينها لمحت في نظرة خاطفة وجه جاري المخدّد. ميّزت بين شفتيه شيئاً يشبه السيجار. ثم تصاعد الصوت ثانية، وأدركت ساعتها أنها صفارة كلاب، مع أنني لم أر قطّ أيًّا منها سابقًا. سمعته بعد ذلك يصيح مناديًا الكلب. بوكر، بوكر، صاح ــ وبوكر هو اسم الكلب ــ تعال يا صغيري. وفيما يواصل النداء، عدت إلى

الاستلقاء في سريري وأغمضت عينيّ، لكنني عرفت أنني سأعجز عن الاستسلام للنوم ثانية.

كلّ ما أردته هو أن أنام. فقد غدوت حريصًا على ساعات النوم التي أحصل عليها. وهي مع أنها ليست بالكثيرة، أعرف أن حاجتي إليها مختلفة تمام الاختلاف عن حاجتي إليها في السابق. فأيّ ليلة نوم فاشلة، تلقي ظلالَها القاتمة على عديد من الأيام التالية، وتجعلني مشتتًا ومتوعّكًا. ما عاد لدي وقت لمثل هذه الأمور، فأنا أحتاج إلى كامل تركيزي. مع ذلك، وجدتني أعتدل في سريري ثانية ملقيًا برجليّ في الظلمة الحالكة على الأرض. ثم تحسّست ملابسي المعلّقة على ظهر الكرسي، وشهقت مرغمًا حينما شعرت بملمسها الشديد البرودة. مضيت بعدئذ عبر المطبخ إلى الرواق. ارتديتُ معطفي القديم المبطّن، تناولت مصباح الجيب من على الرّف، وخرجت إلى عتبة الباب. كان الظلام دامسًا. فتحت الباب ثانية، مرّرت يدي إلى الداخل وأضأت نور المدخل. تحسّنت الرؤية آنذاك، ونثر انعكاس الضوء على جدار المرحاض الأحمر وهجًا دافئًا في الفناء.

أنا محظوظ. أقول لنفسي. فأنا أستطيع أن أخرج ليلاً لألتحق بجارٍ لي يبحث عن كلبه. ولن يستغرق الأمر إلا يومًا أو يومين لأستعيد قواي. أضأت مصباح الجيب، وغادرت الفناء ميمّمًا المنحدر الطفيف حيث ما زال جاري واقفًا يلوّح بمصباحه ليتنقّل نوره على نحو دائري بطيء تجاه حدود الغابة، وعبر الدرب، وعلى امتداد حافّة النهر، ثم يعود إلى نقطة البداية من جديد. بوكر! بوكر! صاح. ثم أطلق صفارته التي مزّق صوتها بذبذباته الحادة المزعجة هدوءَ الليل، فيما كان وجهه وجسمه مجلّلين بالظلام. لم أكن على معرفة به، ولم أكلّمه سوى

مرّات معدودات في أثناء مروري بالقرب من كوخه باكرًا في الصباح على الأغلب، وأنا أصحب كلبتي ليرا للتنزّه. فجأة خطر لي أن أعود إلى البيت، وأن لا أشغل بالي بهذه القصة؛ فما الذي في وسعي أن أفعله على أي حال. لكنْ، لا ريب في أنه لمح ضوء مصباحي، وفات الأوان للتراجع. ثم إن هناك شيئًا ما في تلك الشخصية أعجز عن استشفافه تحت جنح الظلام. أضف إلى ذلك أنه لا يجدر به البقاء وحده على ذلك النحو. إنه ليس بالأمر الصائب.

«مرحبا،» قلت بصوت خافت مراعيًا حرمة السكون. استدار. وللحظة عجزت عن رؤية أيّ شيء، لأن ضوء مصباحه حطّ على وجهي مباشرة. وعندما أدرك ما فعله خفّض المصباح. وقفت بلا حراك لعدّة لحظات إلى أن استعدتُ قدرتي على الرؤية ليلاً، ثم اقتربت منه. ووجدنا نفْسَيْنا نقف وجهًا لوجه، كلّ منا يسلّط مصباحه من مستوى الوركين نحو الأرض من حولنا. لا شيء هناك بدا مثلما هو عليه في النهار. كنت آلف الظلام. ولا أتذكّر أبدًا أنني خفت منه يومًا. إنما لا بدّ أنني فعلت في وقت ما. أما الآن فأشعر أنه بسيط وآمن وشفاف، بغضّ النظر عن كثرة الأشياء المتوارية فيه، مع أن هذا لا يحمل أيّ معنى في طيّاته. فلا شيء يستطيع تحدّي خفّة الجسد ومرونته؛ لا الارتفاع المطلق، ولا المسافات اللامحدودة، هذه ليست من مواصفات الظلام. الظلام ليس سوى فضاء متعذّر القياس نتحرّك فيه.

«هرب مرة أخرى،» قال جاري. «أعني بوكر كلبي. يحدث هذا أحيانًا. ويعود دائمًا. لكن النوم يعاندني عندما يختفي هكذا. هناك ذئاب في الغابة الآن، وفي الوقت نفسه أشعر أنني لا أستطيع إبقاء بابي مغلقًا.»

ألاحظ أنه محرج قليلاً. ولا ريب أنني سأبدو مثله لو أن المفقود كلبي. لا أعرف ما قد أفعله إذا هربت ليرا، وهل أخرج وحدي للبحث عنها.

«أتعرف أن ليس في العالم من كلب أذكى من البوردر كولي؟» قال.

«هذا ما سمعته.»

«إنه أذكى مني، أعني بوكر. وهو يعرف ذلك. أخشى أنه على وشك فرض سلطته علي.» قال جاري وهو يهزّ رأسه.

«هذا ليس شيئًا جيدًا.» أجبت.

«لا.»

لحظتها تذكّرت فجأة أننا لم نتعارف بعد، فمددتُ له يدي وأنا أوجّه نحوها مصباحي ليراها، وقلت:

«تروند ساندر.» وهذا التصرّف أربكه. استغرق ثانية أو ثانيتين لينقل مصباحه إلى يده اليسرى ويصافح يدي اليمنى قائلاً:

«لارس، لارس هوغ... بحرف الغين.»

«تشرّفت بمعرفتك. كيف حالك؟» قلت، وشعرت أن لكلماتي وقعًا شاذًا ومستهجنًا هناك في وسط الليل الحالك، مثلما حدث حينما حضر أبي جنازة في أعماق الغابة، قبل العديد والعديد من السنوات، ووقف قائلاً «تعازينا». وعلى الفور اعتراني الندم على التفوّه بتلك الكلمات الأربع. لكن، لم يظهر على لارس هوغ ما يشير إلى أنه استهجن ذلك. ولعله ظنّ أنها العبارة المناسبة، وأن الوضع ليس أغرب مما يمكن أن يكون عليه عندما يتبادل رجلان بالغان التحيّة في ميدان ما.

كان الصمت يطوّقنا من كلّ جانب. ومع أننا شهدنا على مدى أيامٍ وليالٍ أمطارًا ورياحًا وزمهريرًا لا نهائيًا بين أشجار الصنوبر

والتنوب، عمّت الغابة في تلك الليلة سكينة مطبقة. ما من ظلّ تحرّك فيها. وهناك وقفنا بلا حراك؛ أنا وجاري، نحدّق إلى الظلام. ثم اعتراني إحساس بوجود شيء خلفي، فسرَت في ظهري قشعريرة لم أستطع الحؤول دونها. تملّك لارس هوغ الشعور نفسه، وسرعان ما وجّه ضوء مصباحه نحو نقطة على بُعد بضعة أمتار ورائي. التفتُّ حينها، وأبصرت بوكر واقفًا؛ متسمّرًا ومتنبّهًا. ذاك مشهد سبق لي أن رأيته من قبل: كيف يعي الكلب الشعور بالذنب ويظهره بطريقة حسّية. وهذا شيء لم يستسغه، كما هو الحال مع الكثير منّا. لا سيما أن صاحبه شرع يخاطبه بلهجة أقرب إلى لهجة الأطفال، لم تتناسب مع ملامح وجه متعب مخدّد لرجل لا شكّ أنه خرج من قبل في الليل البارد، وتعامل — كما استشعرت حينما تصافحنا – مع ظروف مستعصية، ظروف معقدة معاكسة لاتجاه الرياح، ظروف ذات جسامة عظيمة.

«آها بوكر، أيها الكلب الأحمق، أين كنتَ؟ عصيتَ مرّة أخرى أوامر بابا. ألا تستحي، ألا تستحي أيها الطفل المشاكس من تصرفاتك الشائنة؟» قال واقترب خطوة، فانبرى الكلب يطلق دمدمة خافتة من أسفل حنجرته وهو ينصب أذنيه. تسمّر لارس هوغ في أرضه. خفّض مصباحَه إلى أن تسلّط ضوؤه على الأرض مباشرة. وما عاد بإمكاني أن أميّز إلا البقع البيضاء في فراء الكلب، لأن السوداء منها اختلطت بسواد الليل. وبدا لي كلّ شيء مغرقًا في التنافر وانعدام التناسق بينما تواصلت دمدمة الحيوان الخافتة في التصاعد من أسفل حنجرته، وقد غدا مصدرها ينبعث من نقطة أقلّ قابلية للتحديد. ثم ما لبث جاري أن قال:

«قتلت كلبًا مرّة في الماضي. وعاهدت نفسي آنذاك بألا أعيد الكرّة ثانية. والآن لا أدري.» من الواضح أنه شعر بالارتباك، وأنه أصبح عاجزًا عن رسم خطوته التالية. فجأة أخذتني به رأفة رهيبة. شعورٌ انبثق من حيث لا أدري، من مكان ما في الظلام، شعور مرتبط بحدث أخذ مجراه في حقبة مختلفة كليًا، أو من ماضي ذكريات في حياتي نسيتها منذ زمن بعيد. أصابني هذا بالتشوّش والانزعاج. تنحنحتُ، وقلت بصوت لم أنجح في التحكّم به تمامًا:

«الكلب الذي اضطررت إلى قتله، ما جنسه؟» وعلى الرغم من أنني لا أعتقد أن هذا ما رغبت في معرفته، وجدتني مضطرًا إلى أن أقول شيئًا يهدئ من روع الخفقان المباغت الذي اعتمل في صدري.

«بَرْجيهْ ألماني. لكنه لم يكن لي. حدث ذلك في المزرعة التي نشأت فيها. أمي هي التي رأته أوّلاً. رأته يطارد ظبيتين عند حدود الغابة: ظبيتين صغيرتين مرعوبتين، كثيرًا ما لمحناهما ترعيان في الأجمات عند طرف المرج الشمالي. لم تنفصل إحداهما عن الأخرى قطّ. وهذا ما فعلتاه لما لاحقهما الكلب. طاردهما وحاصرهما وعضّ عراقيبهما، حتى أعياهما الإنهاك والتعب وفقدتا أي أمل بالنجاة. لم تطق أمي الاستمرار في مراقبة المشهد، فاتصلت بوكيل الأرض وسألته عما يمكن عمله، فقال: ليس أمامكم إلا أن تقتلوه.

«هذه مهمتك يا لارس، هل تظنّ أنك قادر عليها؟ قالت لي بعد أن أغلقت السماعة. لا مفرّ لي من الاعتراف أنني في الحقيقة لم أرغب في ذلك. لطالما تحاشيت الاقتراب من البندقية. لكنني حزنت على الظبيتين. أضف إلى ذلك أنه لم يكن من الممكن أن أطلب منها تولّي المهمة. وليس في البيت آنذاك سوانا. فأخي البكر يجوب

البحار، وزوج أمي في الغابة يقطع الخشب لجارنا المزارع، كما اعتاد أن يفعل في مثل ذلك الوقت من السنة. وهكذا أخذتُ البندقية، ومضيت عبر المرج إلى الغابة. عندما وصلت لم أجد الكلب في أي مكان. تسمّرت في أرضي وأرهفت السمع. كنّا في الخريف، وهواء منتصف ذلك اليوم نقيّ، والهدوء خارق للطبيعة على نحو ما. التفتُّ ونظرت إلى البيت، حيث أعرف أن أمي تقف عند النافذة وترصدني بعينيها، غير مستعدة لإخلائي من المهمة. عدت والتفتّ نحو الغابة متفحّصًا أحد دروبها. فجأة رأيت الظبيتين تعدوان نحوي. فجلست القرفصاء، وصوّبت البندقية، وأسندت خدي على ماسورتها. كانت الظبيتان مسعورتين من هول الرعب إلى درجة أنهما لم تلاحظاني. أو لعلّ ما بلغتاه من تعب شغلهما عن رؤية عدوٍّ إضافي. لم تنحرفا في جريهما قيد أنملة، ومرّتا بي مباشرة، على مسافة بضعة سنتمترات من كتفي. سمعت لهاثهما، ولمحتُ الوميض الأبيض في عيونهما الواسعة الجاحظة.»

سكت لارس هوغ، رفع المصباح وسلّطه على بوكر، بوكر الذي لم يتزحزح من مكانه ورائي تمامًا. لم ألتفت، لكنني ما برحت أسمع زمجرته الخافتة. كان صوتاً مزعجاً. أما الرجل الذي وقف أمامي فعضّ شفته، وقبل أن يتابع حديثه، مسّد بحركة متردّدة جبينه بأصابع يده اليسرى.

«على بعد ثلاثين مترًا وراء الظبيتين أقبل الكلب. كان حيوانًا ضخمًا. أطلقت النار عليه فورًا. أنا على يقين من أنني أصبته لحظتها، بيد أنه لم ينحرف، ولم يخفّف من سرعته. لا أدري حقًا، لذلك أطلقت النار ثانية، فخرّ على ركبتيه، ثم نهض وواصل الجري. تملّكني

اليأس، فأطلقت النار مرّة ثالثة وهو على بعد أمتار قليلة مني. رأيته يتدحرج ويقع وقوائمه الأربعة تواجه السماء، ثم انزلق نحو مقدّمة جزمتي. لم يكن ميتًا. تمدّد هناك مشلولاً، ينظر إليّ مباشرة، ساعتها، شعرت بالأسى عليه، فانحنيت لأربّت رأسه للمرّة الأخيرة، فزمجر ونهش يدي. انتفضت متراجعًا. ومن شدّة ما أغضبني عاجلته بطلقتين في رأسه.»

وقف لارس هوغ ساكنًا ووجهه لا يكاد يُرى، ومصباح الجيب يتدلّى كليلاً من يده، ملقيًا ضوءًا أصفر دائريًا باهتًا على الأرض، وعلى إبر الصنوبر والحصى، وكوزين من التنوب. أما بوكر فبقي متسمّرا في أرضه من غير أن يصدر صوتًا. تساءلت حينها ما إذا كانت الكلاب تستطيع أن تحبس أنفاسها.

«قصّة رهيبة،» قلت.

«كنتُ في الثامنة عشرة من العمر فقط. حدث هذا منذ زمن بعيد، لكنني لن أنساه أبدًا.»

«حكايتك تجعلني أتفهّم لماذا لن ترغب في قتل أيّ كلب مرة أخرى.»

«سنرى. يُستحسن الآن أن أصحب هذا إلى البيت. الوقت متأخّر. بوكر، تعال،» قال بنبرة حازمة وانطلق. تبعه بوكر طائعًا على بعد بضعة أمتار منه. عندما بلغا الجسر الصغير، توقّف لارس هوغ ولوّح بمصباحه.

«شكراً للرفقة،» صاح في الظلام. وبدوري لوّحت بمصباحي، واستدرت صاعدًا المنحدر الطفيف، لأعود أدراجي إلى البيت. فتحت الباب ودلفت إلى الرواق المضاء. لسببٍ ما أوصدت الباب ورائي؛

أمر لم أفعله منذ أن استقرّ بي المقام في هذا المكان. ومع أن تصرّفي ضايقني، لم أعدل عنه. نزعت ثيابي واستلقيت على السرير متدثّرًا باللحاف الطري وحدّقت في السقف بانتظار سريان الدفء في جسمي، وشعور بشيء من السخف يراودني. ثم أغمضت عينيّ. في مرحلة ما وأنا نائم بدأ الثلج يتساقط. لا شكّ في أنني أحسست بذلك في نومي؛ أن الجوّ قد تبدّل وتفاقمت حدّة البرد، وفي الوقت نفسه فطنتُ إلى أنني أخشى الشتاء، وأخشى الثلج كلّما ازدادت كميته عن المعتاد، وتبدّت لي حقيقة إقحامي لنفسي في وضع بغيض بانتقالي إلى هنا. هذا كلّه جعلني أحلم بالصيف حلمًا عاتيًا، بقي واضحًا في رأسي حينما استيقظت. كان من الممكن أن أحلم بأيّ صيف، بيد أن حلمي نأى نحو صيف خاصّ جدًا، وما زلت أفكر فيه الآن وأنا جالس إلى طاولة المطبخ أتأمل ضوء النهار ينتشر فوق الأشجار عند البحيرة. لا شيء يبدو الساعة كما بدا الليلة الفائتة، ولا أستطيع أن أتخيّل ولو سببًا واحدًا فقط دفعني إلى إغلاق بابي بالمفتاح. أنا متعب، إنما ليس بذلك القدر الذي توقّعته. سأصمد حتى المساء، أعرف أنني سأصمد. أغادر الطاولة، متيبّس الأوصال قليلاً، فظهري ما عاد مرنًا كالسابق. وها هي ليرا القابعة قرب الموقد، ترفع رأسها وتنظر إليّ. أسنخرج ثانية؟ لا، لن نفعل، ليس بعد. لديّ الكثير من العمل. إن تذكّر ذاك الصيف بدأ يزعجني، على الرغم من أنه كفّ عن إزعاجي منذ سنوات طويلة.

٢

لنخرج ونسرق الخيول. هذا ما قاله وهو واقف عند باب الشاليه الذي أقضي فيه الصيف مع أبي. كنّا في مطلع شهر تموز من سنة 1948، وأنا أبلغ الخامسة عشرة من العمر. كان الألمان قد رحلوا قبل ثلاث سنوات عن البلاد، ولا أتذكّر أننا أتينا على ذكرهم بعد ذلك. أبي على الأقلّ لم يفعل، بل لم يأت مطلقًا على ذكر أي شيء عن الحرب.

غالبًا ما طرق جون بابنا، في مختلف الأوقات، ساعيًا ورائي للخروج معه: لنصطاد الأرانب البرية، لنعبر الغابة تحت ضوء القمر الشاحب صعودًا إلى قمّة التلّ والليل في غاية السكون، لنصطاد سمك التروتة من النهر، أو لنمارس البهلوانيات فوق جذوع الأشجار الصفراء اللامعة؛ الجذوع المتخلفّة بعد تنظيف النهر بفترة طويلة والمبحرة مع التيار على مقربة من الشاليه. وعلى الرغم من خطورة تلك البهلوانيات لم أرفض قطّ، ولم أخبر أبي مطلقًا أيّ شيء عن

مخططاتنا. كان بإمكاننا أن نرى امتدادًا للنهر من نافذة المطبخ، إلا أنه ليس بالموضع الذي اتخذناه مرتعًا لألعابنا البهلوانية. اعتدنا أن نبدأ دائمًا من نقطة سفلية أبعد، على بعد كيلومتر تقريبًا. وفي بعض الأحيان مارسنا القفز على الجذوع بسرعة كبيرة وأوغلنا كثيرًا، إلى درجة أن تستغرق منّا العودة مشيًا عبر الغابة ساعة، وذلك بعد أن نكاد نزحف زحفًا إلى الضفة، مرتجفين وغارقين بالماء.

لم يرغب جون في صحبة أحد غيري، مع أن لديه أخوين توأمين أصغر منه؛ لارس وأود. كنت أنا وهو في السنّ نفسها. ولا أعرف مع من اعتاد أن يقضي وقته في باقي السنة وأنا في أوسلو. لم يتطرّق إلى هذا الحديث البتة. ومن جهتي ما أخبرته قطّ عما أفعله في المدينة.

لم يقرع الباب مطلقًا. ولطالما أقبل بتؤدة من جهة درب النهر حيث يربط قاربه الصغير، لينتظر عند الباب إلى أن أتنبّه إلى وجوده. وهذا لم يقتض مني وقتًا طويلاً. حتى في الصباح الباكر، وأنا لا أزال مستغرقًا في النوم، يغزو أحلامي فجأة شعور بالقلقلة، كما لو أنني أريد التبوّل، فأجاهد لأنهض قبل فوات الأوان. وعندما أفتح عينيّ وأدرك أن شيئاً آخر هو ما أزعجني، أذهب مباشرة إلى الباب وأفتحه، فألقاه منتظرًا. حينها يضيّق عينيه مثلما يفعل دائمًا ويسفر وجهه عن ابتسامة صغيرة.

«لنخرج ونسرق الخيول، ما رأيك؟»

قوله «لنخرج» عناني وعناه فقط. وفي حال تمنّعت عن مرافقته سيمضي وحده، وليس في ذلك أي مرح. ثم إنه ليس من السهل على المرء أن يسرق الخيول بمفرده، بل ذلك مستحيل في الواقع.

«هل وقفت تنتظر وقتًا طويلاً؟» سألته.

«الآن وصلت.»

ذاك ما يقوله دائمًا. وما عرفت على الإطلاق أهي الحقيقة أم لا. يومها، فيما أنا واقف عند عتبة الباب بسروالي التحتاني رنوت بعيدًا من فوق كتفه. كان ضوء النهار طالعًا. وعلى النهر حطّت حفنات من السديم، والجوّ بارد قليلاً. عرفت أنه سرعان ما سيغدو أدفأ، لكنني في تلك اللحظة شعرت بالقشعريرة تغزو فخذيّ وبطني. مع ذلك بقيت واقفًا هناك أنظر إلى النهر، أراقبه وهو يتدفّق من عند المنعطف، على مسافة أعلى قليلاً، برّاقًا ورقراقًا من تحت الضباب، ليتجاوزه متابعًا جريانه. لقد خبرت ذاك النهر عن ظهر قلب، لأنه لازم أحلامي طوال الشتاء.

«أيّ خيول؟»

«خيول باركالد. فهو يبقيها في المرج في الغابة، وراء المزرعة.»

«أعرف. أدخلْ ريثما أرتدي ملابسي.»

«سأنتظرك هنا.»

لم يوافق قطّ على الدخول، ربما بسبب أبي. فهو لم يتحدّث معه مطلقًا. ولم يلق عليه التحيّة في يوم. وإذا التقيا في الطريق إلى الدكان غضّ بصره. حينها، يتوقّف أبي ويستدير متعقّبًا إياه بعينيه ويقول:

«أليس ذاك جون؟»

«بلى.» أجيب

«ما حكايته؟» يقول أبي في كلّ مرة، كما لو أن ذلك يصيبه بالإرباك. وفي كلّ مرة أجيب:

«لا أعرف.»

وأنا في الحقيقة لم أعرف. ولم يخطر لي أن أستفهم. يومذاك، وقف

جون على العتبة الحجرية وعيناه تحملقان في النهر، بينما ذهبت أجلب ثيابي من على ظهر أحد الكراسي المصنوعة من جذوع الأشجار. لبست على وجه السرعة. كرهت أن أدعه يقف هناك منتظرًا، مع أنني تركت الباب مفتوحًا لأبقى على مرأى منه طوال الوقت.

من الواضح أنه كان يجدر بي أن أفطن إلى وجود شيء استثنائي في ذلك الصباح التمّوزي؛ شيء له علاقة بالضباب فوق النهر، والسديم على التلّ، شيء يتعلّق بضوء السماء الأبيض، شيء في الطريقة التي قال بها جون ما لديه ليقوله، أو في طريقة تحرّكه أو وقوفه هناك ثابتًا بلا حراك عند الباب. لكنني كنت في الخامسة عشرة من العمر فقط، والشيء الوحيد الذي لاحظته هو أنه لا يحمل البندقية التي تلازمه دائمًا لئلا يفوّت فرصة اصطياد أرنب بريّ قد يظفر أمامنا على الدرب. هذا بحدّ ذاته لم يثر دهشتي كثيرًا، لأنها قد تعيقنا ونحن نسرق الخيول، ثم إننا في النهاية لسنا بصدد قتلها. وبقدر ما استطعت أن أستشف، رأيت أن جون هو نفسه كما أعهده؛ هادئًا ومتوترًا في آن، مضيّقًا عينيه وجماع فكره منصبّ على ما ننوي القيام به، بلا أي دلالة تشير إلى نفاد صبره. ذاك ناسبني جيدًا، ولست أخفي سرًا إذا اعترفت أنني كنت في معظم مآثرنا بطيئًا بالمقارنة معه. فهو يمتلك سنوات من الخبرة. النشاط الوحيد الذي برعت فيه هو ركوب جذوع الأشجار في النهر، لأنني، كما ألمح جون، أتمتع بتوازن ذاتي وموهبة فطرية، ولو أنها ليست التعابير نفسها التي اعتاد أن يستخدمها.

ما علّمنيه هو كيف أتصرّف بتهوّر، ما علّمنيه هو أنني إذا أطلقت العنان لنفسي، و لم أقيّدها بإمعان التفكير مسبقًا في العواقب، أستطيع

إنجاز أشياء كثيرة ما حلمت قطّ بتحقيقها.

«حسنًا، استعداد، تأهّب، انطلاق.» قلت.

انطلقنا معًا على درب النهر المنحدر. كان الوقت مبكراً جدًا. من فوق التلّ أقبلت الشمس محوّمة بمروحتها الضوئية، وأضفت على كلّ شيء لونًا جديدًا تمامًا. وما تخلّف من الضباب فوق الماء تحلّل واختفى. شعرت بالدفء يحطّ على كنـــزتي، فأغمضت عينيّ وتابعت المشي من غير أن أتعثّر مرّة واحدة، إلى أن خمّنت أننا بلغنا الضفّة. حينها فتحت عينيّ وتلمّست طريقي بين الصخور المصقولة بماء النهر، ومن هناك إلى مؤخّرة القارب الصغير. وسرعان ما دفعه جون وقفز إلى داخله، ثم أمسك المجدافين وجدّف بحركات قصيرة قوية، ميمّمًا مجرى التيار رأسًا. ترك القارب ينساق وحده مع النهر لفترة، ثم جدّف ثانية حتى بلغنا الضفّة المقابلة على مسافة تقارب خمسين مترًا من سافلة النهر. بعيدًا بما يكفي لئلا يُلمح القارب من البيت الريفي.

ثم تسلّقنا المنحدر، جون أولاً، وأنا في أعقابه. مشينا بمحاذاة سياج الأسلاك الشائكة عند المرج، حيث انبثق العشب طويلاً تحت خمار رقيق من السديم، ذلك العشب الذي سيُجزّ قريبًا ويُنشر على المحفّات ليجفّ تحت الشمس. بدا مشينا هناك شبيهًا بخوضنا الماء إلى حدود أوراكنا بلا مقاومة، كما في الأحلام. كان الماء صديقي، وكثيرًا ما حلمت به آنذاك.

كان المرج مِلْكاً لباركالد، ولطالمنا سلكنا تلك الدرب صعودًا بين الحقول إلى الطريق المؤدّية إلى الدكاكين، لنشتري المجلات أو الحلوى أو أشياء أخرى نمتلك ثمنها؛ فلسًا أو فلسين، وأحيانا خمسة منها لا

تنفكّ ترنّ في جيوبنا مع كلّ خطوة من خطواتنا. أو سلكنا الدرب في الاتجاه المعاكس قاصدين بيت جون، حيث تستقبلنا أمّه بحفاوة بالغة ما إن ندخل، حتى إن المرء ليخالني وليّ عهد البلاد أو ما يشبه ذلك. وفي تلك الأثناء ينغمس أبوه في قراءة الجريدة المحلية، أو يقصد الحظيرة ويختفي هناك متشاغلاً بعمل لا يحتمل التأخير. استشعرت في ذلك البيت شيئًا استغلق عليّ فهمه، إلا أنه لم يقلقني. فبالنسبة لي يمكنه أن يبقى في الحظيرة قدر ما يشاء. ذاك شأن لم يهمّني مطلقًا. ومهما حدث، أنا في النهاية سأعود إلى دياري مع نهاية الصيف.

كانت مزرعة باركالد في أقصى طرف من الدرب، وراء بعض الحقول التي تُزرع مناوبة بالشوفان والشعير كلّ سنتين، وبإزاء الغابة التي يقع المخزن في أحد أطرافها. في تلك الغابة اعتاد أن يُطلق أربعة خيول لترتع في مساحة واسعة من الأرض. وهذه الأرض سُوّرت بسياجين شائكين على مستويين مختلفين. كانت الغابة غابته، وكانت مترامية الأطراف لأنه من أكبر ملاّك المقاطعة. وأنا وجون لم نستلطفه قطّ، مع أنني أجهل السبب، فهو لم يسئ إلينا مطلقًا، ولم أسمعه يومًا يتلفّظ بكلمة عدائية. ولعل ذلك يعود إلى أن لديه مزرعة كبيرة، وجون ليس إلا ابن مزارع بسيط. بيد أن الجميع تقريبًا كانوا من المزارعين البسطاء في ذلك الوادي المتاخم للنهر، والذي يبعد عن الحدود السويدية بضعة كيلومترات فقط. ومعظمهم، ما زالوا يعتاشون على ما تنتجه مزارعهم، وعلى مردود الحليب الذي يبيعونه لمصنع الألبان، أو على الاحتطاب في مواسم قطع الأخشاب؛ سواء لحساب باركالد في غابته، أو في مكان آخر. وكذلك في غابة يمتلكها وغد ثري من بيروم؛ تمتد آلافًا وآلافًا من الهكتارات شمالاً

وجنوبًا. وبقدر ما استطعت ملاحظته، لم أرَ ما يدلّ على أن لدى الناس هناك مالاً كثيرًا. لعلّ لدى باركالد بعضًا منه، لكن والد جون لم يمتلك أيًا منه. ولا ريب أن أبي كذلك. ليس على حدّ علمي على الأقلّ. أما كيف جمع ما يكفي لشراء الشاليه حيث أقمنا في ذلك الصيف، فهذا لا يزال لغزًا بالنسبة لي. بصراحة، أنا لم أستطع في يوم تكوين فكرة واضحة عمّا قام به أبي ليكسب قوته، وليلبي من ضمن حاجات أخرى، متطلبات حياته وحياتي. فعمله بدا أنه كثيرًا ما تغيّر من شيء إلى شيء آخر، والعامل المشترك بين هذه الأعمال هو تضمّنها دائمًا لأدوات متعدّدة، وماكينات صغيرة، وأحيانًا مقدارًا هائلاً من التخطيط والتركيز وقلم الرصاص في يده، ورحلات إلى مختلف الأماكن في أنحاء البلاد؛ أماكن لم تطأها قدماي قطّ، وما رأيتها يومًا. جلّ ما عرفته آنذاك أنه ما عاد يعمل تحت إمرة أحد. غالبًا ما لاحظت أن لديه الكثير لينجزه، وقد يخفّ الضغط أحيانًا. ومع ذلك، نجح في توفير مالٍ كاف. وعندما ذهبنا إلى هناك للمرّة الأولى قبل سنة، راح يتجوّل في الأرجاء مستكشفًا ومربتًا الأشجار، وعلى شفتيه ابتسامة خفيّة. ثم اقتعد صخرة عند ضفّة النهر ويده تحتضن ذقنه، يتأمّل الماء كما لو أنه في صحبة رفاق قدامى. إنما لا ريب أن هذا غير ممكن، أم تراه ممكنًا؟

خلّفت أنا وجون درب المرج، وسلكنا الطريق التي بدت لنا مختلفة على الرغم من أننا سلكناها من قبل عدّة مرات. فنحن قد خرجنا لنسرق خيولاً، وشعرنا أن نيّتنا تفضحنا. كنّا بصدد ارتكاب جريمة. وذاك يغيّر الناس، يغيّر شيئاً في ملامحهم، ويَسمهم بطريقة معيّنة في المشي لا يستطيعون تلافيها. ثم إن سرقة الخيول هي أسوأ

جريمة على الإطلاق. لم نكن نجهل القوانين السارية في غرب بيكوس، وبالطبع قرأنا مجلات رعاة البقر. ومع أنه يمكننا القول إننا في شرق بيكوس، فنحن في أقصى ذلك الشرق، ما يجعل المرء يقول إننا في الناحية المعاكسة. هذا مرهون بطريقة اختيارك للجهة التي تنظر منها إلى العالم. وبما أن الرحمة في ظلّ تلك القوانين معدومة، فإن وقوعك في قبضة العدالة، يعني أن مصيرك أن تعلّق على شجرة بحبل حول عنقك، حبل من الخيش القاسي يلتفّ حول بشرتك الناعمة. ثم يأتي من يركل مؤخرة الفرس، فينفر مبتعدًا من تحت قدميك، وحينها تناضل من أجل حياتك في فضاء لا قعر له. حياة تتوالى أحداثها أمام عينيك بصور تتلاشى شيئًا فشيئًا إلى أن تفرغ منك ومن كل ما مرّ عليك، ثم يغشاها الضباب، وتتحوّل في النهاية إلى سواد. ما زلتُ في الخامسة عشر فقط، هي آخر فكرة تراودك، وتلك سنّ صغيرة للموت بسبب حصان، لكنك تعرف أن الأوان قد فات. تابعنا المشي يومذاك، ولاح لنا بيت باركالد ثقيلاً وقاتمًا عند طرف الغابة. وبدا منذرًا بالشؤم أكثر من أي وقت مضى. في تلك الساعة المبكرة لم نلمح بالنوافذ أنوارًا، إنما، لعلّه كان واقفًا هناك يرنو إلى الطريق، ثم لاحظ طريقتنا المريبة في المشي وفطن إلى ما ننويه.

كان التراجع بالنسبة إلينا غير ممكن. تقدّمنا بأرجلٍ متيبّسة بضع مئات من الأمتار على الطريق الحصوي، إلى أن اختفى البيت وراء منعطف. ثم صعدنا دربًا آخر عبر حقل آخر يعود لباركالد أيضًا. ومنه دلفنا إلى الغابة. في البداية بدت الغابة كثيفة ومعتمة عند جذوع التنوب. وخلت الأرض من أي شيء ما عدا طحالب داكنة الخضرة، كأنها بساط هائل ولدن تحت أقدامنا. وذلك لأن ضوء الشمس ما

وجد قطّ طريقه بالكامل إلى هناك. مضينا أحدنا يتبع الآخر على الدرب الذي شعرنا أنه يزداد طراوة مع كلّ وطأة قدم. جون أولاً، وأنا أسير في أعقابه بحذائي الرياضي البالي. ثم استدرنا وانعطفنا إلى اليمين. هناك، وبالتدريج، بدأ الفضاء يتّسع، والضوء من فوقنا يتّضح، إلى أن أبصرنا فجأة شريطي الأسلاك الشائكة يلمعان، وأدركنا أننا وصلنا. أشرفنا على فسحة قُطعت فيها جميع أشجار التنوب. شجيرات الصنوبر والبتولا فقط انتصبت طويلة ووحيدة بلا أي وقاء يحمي ظهورها. وتلك التي لم تنج من الرياح الشمالية، تهاوت أرضًا مشرّعة جذورها في الفضاء. وبين أرومات التنّوب نما العشب غزيرًا ومفعمًا بالنسغ. لمحنا الخيول وراء بعض الأشجار أمامنا، لا يظهر منها لنا سوى أردافها، وذيولها التي راحت تنشّ الذباب. شممنا رائحة روث الخيول والأشنة الرطبة، وعبير عذب نفاذ مهيمن لشيء أعظم منّا ويتخطّى مداركنا؛ عبير الغابة. تلك الغابة التي امتدت وامتدت شمالاً، مخترقة السويد ثم فنلندا، وموغلة قدمًا إلى سيبيريا. غابة يمكن بكلّ بساطة أن يتوه المرء فيها، ويهبّ مئات الأشخاص للبحث عنه لأسابيع عديدة بلا جدوى. إنما، أي ضير في هذا، تساءلت يومها، في أن نتوه هنا؟ حينها، لم أدرك بالطبع مدى خطورة تلك الفكرة.

انحنى جون وانسلّ من بين السياجين الشائكين ويده تضغط السلك السفلي، أما أنا فانبطحت على الأرض وتدحرجت من تحت ذلك السلك. نجحنا في العبور من غير أي مزق في بنطلونينا أو كنـــزتينا. وقفنا بحذر ومشينا على العشب نحو الخيول.

«تلك البتولة هناك، تسلّقها.» قال جون مشيرًا إلى شجرة بتولا ضخمة تنتصب منفردة على مسافة قريبة من الخيول، تتفرّع منها

أغصان متينة، أدناها يعلو الأرض ثلاثة أمتار تقريبًا. مضيت برفق وبلا أيّ تقاعس إلى الشجرة. نصبت الخيول رؤوسها وأدارتها نحوي بينما تقدّمت. لكنها لازمت مكانها، وواصلت مضغ العشب حيث هي. ناور جون ملتفًا حولها في نصف دائرة من الناحية الأخرى. أما أنا فتخلّصتُ من حذائي، ثم أحطت الشجرة بذراعي الاثنتين، وعثرت بإحدى رجلي على موطئ قدم ثابت في شقوق لحائها، ركزت باطن قدمي الأخرى على جذعها، وتسلّقتها كالقرود إلى أن نجحت في إحاطة أحد أغصانها بيسراي. فاتكأت عليه وأحكمت التمسّك به بيدي اليمنى تاركًا رجليّ تتزلقان على الجذع الخشن. للحظة تعلّقت بذلك الغصن بكلتا يديّ قبل أن أرفع جسمي. وما لبثت أن جلست هناك مدلّيًا رجليّ. في تلك الأيام كنت بارعًا في مثل هذه الأشياء.

«حسنًا،» هتفت بصوت منخفض. «أنا جاهز.»

كان جون جالسًا القرفصاء أمام الخيول يخاطبها برقّة، فوقفتْ بلا حراك ورؤوسها ملتفتة إليه، وقد نصبت آذانها تنصت إلى كلامه شبه المهموس. لم أستطع سماع أي شيء مما قاله وأنا على غصني، إلا أنني حينما هتفت «حسنًا» هبّ واقفًا وهو يفتح ذراعيه وصاح:

«ياهووو!» فجفلت الخيول وشرعت تعدو. ليس بسرعة كبيرة، ولا ببطء شديد أيضًا. انحرف اثنان منها شمالاً، ويمّم اثنان شجرتي مباشرة.

«استعدّ،» صاح جون رافعًا ثلاثة من أصابعه في الهواء مؤديًا تحيّة الكشافة.

«أنا مستعدّ!» أجبته، ثم لويت جسمي جاعلاً بطني على الغصن، حافظت بيديّ على توازني، وفتحت رجليّ في الهواء كالمقص.

شعرت بوجيب طفيف في صدري بسبب وقع الحوافر المتردّد في جذع الشجرة من الأرض. ومن مكان آخر مختلف تمامًا في داخلي شعرت بارتعاش مفاجئ، بدأ في معدتي واستقرّ في وركيّ. ولعجزي عن السيطرة عليه تجاهلته. كنت جاهزًا.

أخيرًا دنا الفرسان منّي. سمعت لهاثهما المتلاحق. غدا الارتجاج في الشجرة أقوى، وضجّ رأسي بوقع الحوافر. وحينما تمكّنت من رؤية خطم أقرب الحصانين أسفل مني، انزلقت من على الغصن، ورجلاي المنفرجتان متصلّبتان، ثم أفلتُّ الشجرة وحططت على ظهر الفرس، قريبًا من عنقه. خبطت عظام كتفيه بمنفرج ما بين رجليّ، وبعثت الخبطة بي موجة غثيان وصلت إلى حلقي. في السينما، لطالما بدا القيام بهذا سهلاً مع زورو. بدأت دموعي تنهمر. أردت أن أتقيأ، وفي الوقت نفسه أردت المحافظة على قبضتي الحازمة على عرفه بيديّ الاثنتين. انحنيت إلى الأمام، وضغطت شفتيّ بقوة. راح الفرس يهزّ رأسه بجنون، وما انفكّ ظهره يخبط ما بين رجليّ، ثم سارع العدو، وحاكاه في ذلك الحصان الآخر. ومعًا أرعدنا بين جذوع الأشجار. سمعت جون يزعق من خلفي «ياهووو!»، وتملّكتني الرغبة في الصراخ أنا أيضًا، لكنني لم أستطع، ففمي الملآن بالقيء كاد يمنعني عن التنفّس. أخيرًا، تركت القيء يخرج ليستقرّ على جيد الفرس. وعلى الفور تصاعدت رائحة قيء طفيفة ممتزجة برائحة الحصان القويّة. كفّ صوت جون عن بلوغ مسامعي، ثم عمّ الطنين أذنيّ. تلاشى وقع الحوافر، ورجرج ظهر الحصان جسمي كأنه دقات قلبي. بعدئذ، حلّ سكون مباغت من حولي جلّل كلّ شيء. من خلال ذلك السكون سمعت زقزقة الطيور. سمعت على وجه التحديد شدو الشحرور من أعلى شجرة

تنّوب. وبصفاء كصفاء الزجاج تناهى إليّ صوت قبّرة في الأعالي، وعدّة طيور أخرى لا أميّز تغريدها. كان ذلك غريبًا جدًا. بدا مثل فيلم بلا صوت، أُلحق به صوت آخر لا علاقة له به. شعرت أنني في مكانين مختلفين في وقت واحد، وأيّ منهما لم يلحق بي ضررًا.

«هيها!» زعقت، ومع أنني تمكّنت من سماع صوتي، تهيأ لي أنه آت من مكان آخر، من الفضاء العظيم حيث شدت الطيور، كأنه نداء عصفور ينبعث من قلب الصمت. للحظة غمرتني سعادة عارمة. اتسع صدري مثل منفاخ الأكورديون، كلما تنفّست خرجت منه النغمات. فجأة لمحت شيئًا يلمع من بين الأشجار أمامي. كان بريق الأسلاك الشائكة. حينها أدركت أننا اجتزنا الفسحة كلّها، وأننا نتقدّم بأقصى سرعة نحو سياج الطرف الآخر. عاد ظهر الفرس يخبط منفرج ما بين ساقيّ بعنف، فأحكمت التمسّك بعرفه وفكّرت: سنقفز الآن. لكننا لم نقفز. قبل السياج مباشرة ارتدّ الحصانان بعزم، وانتزعتني قوانين الفيزياء من على ظهر حصاني، وقذفتني في الهواء بخطّ مستقيم وأنا أركل بقدميّ وأصارع، وحطتني فوق السياج. شعرت بالسلك يمزق كمّ كنـــزتي وبألم حادّ، ثم وجدتني مُلقىً على نبات الخلنج، وقد أفرغ الارتطام جسمي من الهواء.

أعتقد أنني غبت عن الوعي لبضع ثوان، لأنني أتذكّر أنني فتحت عينيّ وكأنني أفتحهما على بداية جديدة؛ لا شيء مما رأيته بدا مألوفًا لي، كان رأسي فارغًا، لا أفكار فيه، وكلّ شيء صاف تمامًا، والسماء شفافة الزرقة. لم أتذكّر اسمي ولم أتعرّف على جسمي. بلا اسم، رحت أطفو في كلّ الأنحاء ناظرًا إلى العالم لأول مرّة. ملأني شعور بتنوّر غريب وجمال شفّاني. ثم سمعت صهيلاً ووقع حوافر، وعادني

كلّ شيء مثل سلاح مجلجل ارتدّ عليّ وأصابني بصدع في جبيني. اللعنة، قلت لنفسي، أنا مشلول. نظرت إلى قدميّ الحافيتين البارزتين من بين نبات الخلنج، وتراءى لي أنهما لا ترتبطان بي.

كنت لا أزال ممدّدًا بلا حراك عندما أبصرت جون يقترب من السياج على ظهر الفرس. كان قد ألجمه ليتمكّن من السيطرة عليه. توقّف وراء السياج تمامًا بعد أن شدّ الحبل، فوقف الحصان إزاء السياج تقريبًا. نظر جون إليّ.

«أراك ممددًا هنا؟» قال.

«أنا مشلول.»

«لا أظنّ.» أجاب

«ربما لا،» قلت وعاينت قدميّ من جديد. ثم وقفت. آلمني ظهري وأحد جانبيّ، لكن لم يتأذّ بي أي شيء داخلي. سال الدم من جرح في ساعدي، ولطخ كنـــزتي عند الموضع الذي تمزقتْ فيه. ذاك كلّ شيء. مزّقت ما تبقى من الكمّ وربطته حول الذراع المصابة. آلمني الجرح بحدّة فظيعة. أما جون فبقي جالسًا على فرسه بهدوء. وإذ رنوت إليه رأيت أنه يحمل حذائي بإحدى يديه.

«أتريد معاودة الكرّة؟»

«لا أعتقد. مؤخّرتي تؤلمني.» قلت، مع أنها ليست المنطقة التي آلمتني أكثر. خُيّل إليّ أنني لمحت ابتسامة طفيفة على وجه جون. لم أستطع الجزم بسبب أشعة الشمس التي حطّت على وجهي. ترجّل جون من على ظهر الفرس وحلّ الحبل الذي ربطه حول خطمه، ثم لوّح بيده ليبعده. بدا الفرس سعيدًا بالمغادرة.

مرّ عبر السياج بطريقته السابقة نفسها، بخفّة وبلا أي خدش في

جسمه. أقبل نحوي وألقى حذائي على الخلنج.

«أتستطيع المشي؟»

«أظنّ ذلك،» قلت. ولأتجنّب الانحناء دفعت قدميّ في الحذاء و لم أشدّ رباطه. وبذلك مضينا إلى الغابة. جون أوّلاً وأنا أتبعه بمنفرج فخذيّ الواهن، وظهري المتيبّس، إحدى رجلي تتحرّك بشيء من الصعوبة، وإحدى ذراعي تستند على جسمي بثقل. وإذ توغّلنا ما بين الأشجار، فكّرت أنني ربما لن أنجح في قطع مسافة العودة كلّها عندما يحين الوقت للرجوع. وفكّرت في أبي متذكّرًا إياه لما طلب مني قبل أسبوع أن أحشّ العشب خلف الشاليه. كان العشب قد طال كثيرًا، وإن لم يُحشّ سيتقوّس ويتحوّل إلى بساط جافّ ذابل لا يمكن أن ينمو أي شيء من خلاله. قال إنني أستطيع استعمال منجل قصير، لأنه أسهل بالنسبة إلى يد تعوزها الخبرة. جلبت المنجل من كوخ الأدوات، وجنّدت كلّ قواي محاولاً تقليد أبي في طريقة تحرّكه حينما راقبته يفعل ما أفعله. حششت العشب حتى نضحت بالعرق، وسار الأمر جيدًا مع أن المنجل كان أداة جديدة كلّ الجدّة عليّ. عندما بلغت البقعة الممتدة إزاء حائط الشاليه، حيث نمت مجموعة كبيرة من القرّاص بكثافة وغزارة، تفاديتها وسلكت طريقي من حولها. ثم جاء أبي ووقف يراقبني. أمال رأسه وحكّ ذقنه، فاستقمت منتظرًا تعليقه.

«ولماذا لم تحشّ هذا؟»

رنوت إلى مقبض المنجل القصير ثم القرّاص الفارع.

«سأتوجّع إذا لسعتني،» أجبته.

لحظتها تأملني بشبه ابتسامة على شفتيه، وهزّة طفيفة برأسه.

«أنت بنفسك من يقرّر متى تتوجّع،» قال بنبرة جدّية مفاجئة.

ثم دنا من القرّاص وقبض بيد عارية على النبتة اللاذعة، وبدأ يقتلعها بهدوء كامل. اقتلعها واحدة تلو الأخرى، وكدّسها على الأرض. لم يتوقّف إلا بعد أن انتزعها كلّها، ولا شيء في وجهه دلّ على أنها لسعته. اعتراني شيء من الخجل وأنا ماضٍ خلف جون. فنصبت قامتي، بدّلت إيقاع خطواتي، وبذلت جهدي لأمشي بطريقة عادية. بعد خطوات قليلة فقط، لم أجد سببًا لتقاعسي عن فعل هذا منذ البداية.

«إلى أين نذهب؟»

«أريد أن أريك شيئًا. إنه ليس بعيدًا.»

في تلك الأثناء كانت الشمس قد توسّطت السماء. وانتشرت الحرارة تحت رؤوس الأشجار، بل فاحت رائحتها في الجو. ومن جميع أنحاء الغابة تصاعدت الأصوات؛ رفرفة أجنحة، أغصان تهتزّ، فروع تتكسّر، زعيق باشق، زفرة أرنب برّي يلفظ آخر أنفاسه، وطنين مكتوم كلّما حطّت نحلة على زهرة. سمعت دبيب النمل بين الخلنج، والدرب الذي سلكناه ارتفع مع ارتفاع سفح التلّ. تنفّست بعمق من أنفي وقلت لنفسي إنني سأظل أتذكّر هذا المكان كما هو عليه الآن، وسأفتقده، مهما تقلّبت حياتي، ومهما شددت رحالي بعيدًا. عندما التفتُّ استطعت سبر الوادي من خلال تشابكات أشجار الصنوبر والتنوب. رأيت النهر يتعرّج برّاقًا في الأسفل. رأيت سقف منشرة باركالد بقرميده الأحمر على مسافة أبعد إلى الجنوب عند ضفّة النهر. رأيت أيضًا العديد من المزارع الصغيرة في البقع الخضراء المجاورة للشريط المائي الضيق. كنت أعرف العائلات التي تسكنها وعدد أفراد كلّ منها. وحتى مع عدم تمكّني من رؤية كوخنا في أقصى الضفّة،

ميّزت الأشجار التي يتوارى خلفها. تساءلت أما زال أبي نائمًا أم أنه يقوم بجولة هناك باحثًا عني، متسائلاً بلا قلق أين ذهبت، وهل أعود قريبًا، وهل يجدر به أن يعدّ الفطور. عندئذ، أدركت فجأة أنني جائع جدًا.

«ها هي،» قال جون. «هناك،» تابع مشيرًا إلى صنوبرة باسقة نأت عن الدرب قليلاً. فوقفنا بلا حراك ننظر إليها.

«إنها ضخمة بحقّ.»

«ليس هذا المقصود. تعال!» قال جون ومشى إلى الشجرة وبدأ يتسلّقها. لم يكن الأمر صعبًا، فأغصانها الدنيا تدلّت بثبات متينة وضخمة، ومن السهل بلوغها. وخلال وقت وجيز أصبح على ارتفاع عدّة أمتار، وأنا أتبعه. تسلّق بسرعة، وبعد نحو عشرة أمتار توقّف وجلس ينتظر وصولي إليه. ولأن هناك متسعًا لكلينا، جلسنا متجاورين على غصننا الثخين. أشار إلى نقطة في الغصن يتشعّب منها إلى فرعين. هناك رأيت عشّ طير يشبه قصعة عميقة، أو كوز مثلجات. ومع أنني سبق أن رأيت أعشاشًا كثيرة، لا أظنّ أنني شاهدت واحدًا بمثل نمنمته وهشاشته ودقّة بنائه بالطحالب والزغب. ولم يبد ثابتًا، بل مرفرفًا في الهواء.

«إنه عشّ صعو،» قال جون بصوت منخفض. «الفقسة الثانية.» ثم مال إلى الأمام، مدّ ذراعه نحو العشّ ودسّ ثلاثة أصابع في الفتحة المغطاة بالريش. وسرعان ما أخرج بيضة أذهلني حجمها الصغير إلى درجة أن عينيّ تسمّرتا تحدّقان. أصابني الدوار من مجرد النظر إليها والتفكير في أن هذه الكُرة البيضاوية الهشّة، ستتحوّل بعد بضعة أسابيع إلى طائر حيّ بجناحين، قادر على التحليق والاندفاع من

الأغصان العالية إلى الأسفل من غير أن يرتطم بالأرض، ليعود مدفوعًا بالإرادة والغريزة إلى التحليق نحو الأعالي ملغيًا عوامل الجاذبية. ولم أجد بُدًّا من أن أهتف:

«يا الله! من العجيب أن يصبح شيء بهذا الصغر كائنًا حيًا، ويطير ببساطة!» ولعلي لم أحسن صياغة ما قلته، ولا ريب أنه أقلّ بكثير من ذلك الشعور المتدافع العاصف الذي اعتمل في صدري. إنما، حدث شيء في تلك اللحظة عجزت قطعًا عن فهمه. إذ حينما رفعت نظري ورنوت إلى وجه جون رأيته ممتقعًا ومجهدًا. ولا أدري أذاك بسبب ما قلته أم بسبب البيضة التي حملها. ولن أعرف الحقيقة مطلقًا. لكن شيئًا جعله يتغيّر فجأة، نظر إليّ، نظر في عينيّ مباشرة، كما لو أنه يراني لأول مرّة. ولأول مرّة لم يضيّق عينيه اللتين غدا بؤبؤاهما كبيرين وأسودين. ثم فتح يده وأفلت البيضة فسقطت على طول الجذع. تابعتها بعينيّ. رأيتها ترتطم بأحد الأغصان في الأسفل، وتتكسّر متناثرة إلى شظايا صغيرة شاحبة تطايرت في كلّ الاتجاهات. ثم حطّت أرضًا عديمة الوزن مثل رقاقات الثلج، وما لبثت أن انجرفت بعيدًا برفق. أو هكذا أتذكّر ما حدث. ولا أستطيع أن أسترجع في ذهني أيّ شيء آخر جعلني أكثر يأسًا. تطلّعت إلى جون ثانية، وجدت أنه عاود الانحناء وبيد واحدة انتزع العشّ من بين فرعي الغصن، حمله على امتداد ذراعه وسحقه إلى فتات بين أصابعه، على بعد سنتمترات معدودة من عينيّ. أردت أن أقول شيئاً، لكن الكلمات لم تطاوعني. استحال وجه جون إلى قناع بياض الطبشور فاغر الفم. ومن ذاك الفم انطلقت أصوات جمّدت الدم في عروقي، لأنني ما سمعت قطّ شيئًا مثلها من قبل؛ أصوات حلقية، مثل حيوان

لم أره ولا أتمنّى أن أراه. فتح يده ثانية، خبط راحته بجذع الشجرة وفركها باللحاء، فتناثرت منها رقاقات صغيرة، حتى لم يتبقّ في النهاية سوى لطخة لزجة لم أستطع النظر إليها، فأغمضت عينيّ وأبقيتهما مغلقتين. لما فتحتهما كان جون قد قطع مسافة جيدة نزولاً وهو يتزلق من غصن إلى غصن. ركّزت نظري على شعره البنيّ الأشعث، بيد أنه لم يرفع عينيه إليّ ولا مرّة واحدة. على ارتفاع بضعة أمتار من الأرض ترك نفسه يهوي. سقط مرتطمًا بأرض صلبة. سمعت ارتطامه وأنا جالس في الأعلى. ثم خرّ على ركبتيه مثل كيس فارغ وخبط جبينه بالأرض. لبث هناك مكوّمًا لفترة كأنها الأبدية. وطوال تلك الأبدية حبست أنفاسي و لم أتحرّك. استعصى عليّ استيعاب ما حدث. على نحو ما شعرت أنها غلطتي من غير أن أعرف لماذا. أخيرًا نهض بتجبّر وبدأ يسلك الدرب. أطلقت أنفاسي المحبوسة، وأخذت نفسًا عميقًا جديدًا. سمعت صفيرًا في صدري، سمعته بوضوح، بدا شبيها بتنفّس مصاب بالربو. كنت أعرف رجلاً مصابًا بالربو يسكن في شارعنا في أوسلو، والصفير بدا شبيها بما يصدره عندما يتنفّس. أصبت بالربو، قلت لنفسي، اللعنة، هكذا تصاب بالربو، عندما يحدث شيء ما. ثم بدأت أنزل، ليس بسرعة جون، بل كما لو أن كلّ غصن كان مَعْلَماً ينبغي لي التريّث عنده مدّة طويلة حتى لا يفوتني أي شيء مهم. وفكّرت طوال الوقت في التنفّس.

هل حينذاك تبدّل الجوّ؟ هذا ما أظنّه. وقفت في وسط الدرب. لم ألمح جون في أيّ مكان بعد أن توارى في أسفل الطريق التي جئنا منها. فجأة، سمعت حفيفًا في أعلى الأشجار. نظرت عاليًا ورأيت رؤوس التنّوب يتمايل بعضها على بعض، رأيت أشجار الصنوبر تنحني للريح،

وشعرت بأرض الغابة تهتزّ من تحت قدميّ. كان ذلك كالوقوف على الماء، وجعلني أصاب بالدوار. نظرت من حولي لأتمسّك بشيء، تهيّأ لي أن كلّ شيء يتحرّك. والسماء التي لاحت قبل هنيهة شفّافة الزرقة أصبحت قاتمة بلون الفولاذ، يتخلّلها بصيص باهت الصفرة عند التلّ في الناحية الأخرى من الوادي. ومن هناك ظهر وميض برق حادّ، تبعه الرعد الذي أحسست به في كامل جسمي. شعرت بانخفاض الحرارة، وبدأت ذراعي التي جرحها السلك الشائك تؤلمني. أسرعت أحثّ الخطى، بل جريت، متتبّعًا الدرب الذي جئنا منه نحو مرعى الخيول. حينما وصلت نظرت من فوق السياج إلى ما بين الأشجار ولم ألمح للخيول أثرًا. للحظة خطر لي أن أسلك الطريق المختصرة عبر تلك الفسحة، بيد أنني بدلاً من ذلك مشيت متتبعًا خطّ السياج حتى بلغت الدرب المؤدّي إلى الطريق. انحرفتُ شمالاً وبدأت أجري. هدأت الريح في تلك الأثناء، وانبسطت الغابة أمامي والهدوء المطلق يسودها. أما مرض الربو الطارئ فأحكم قبضته على صدري.

بينما أنا واقف في الطريق سقطت أولى قطرات المطر على جبيني. لمحت جون على مسافة أمامي. وجوده على تلك المسافة منّي عنى أنه لم يقطع الطريق جريًا. لم يمش بسرعة، ولم يمش ببطء. مشى فقط. قلت لنفسي سأناديه، وأطلب منه أن ينتظرني، إلا أنني خشيت ألا تسعفني أنفاسي. وشيء ما في هيئته جعلني أتراجع. اكتفيت بالمشي في إثره محافظًا على المسافة نفسها بيننا طوال الطريق. مررنا بمزرعة باركالد حيث شعّت النوافذ المضاءة في وجه السماء القاتمة، وتساءلت إن كان يقف في الداخل يراقبنا مدركًا أين كنّا. رفعت رأسي عاليًا يداعبني الأمل في أن المطر قد اقتصر على تلك القطرات

التي أحسست بها، حينها ظهر وميض برق آخر فوق التلال، أعقبه على الفور هزيمُ رعد. لم أخشَ الرعد يومًا، ولم أشعر بالخوف لحظتها لولا تيقّني من أنه عندما يتزامن ظهور الرعد والبرق فإن صاعقة قد تسقط في أي مكان قريبًا منّي. وإذ تابعت سيري على الطريق بعيدًا عن أيّ ملجأ أحتمي به انتابني شعور غريب. انهمر عليّ المطر كأنه جدار، ووجدت نفسي فجأة وأنا خلف ذلك الجدار مبلّلاً تمامًا في غضون لحظات. ولو كنت عاريًا لما شكّل ذلك أيّ فرق. كان العالم بأكمله قاتمًا وغارقًا بالماء. بصعوبة لمحت جون على بعد مئة متر مني، على الرغم من أن لا حاجة لي به ليدلّني على الطريق، لأنني عرفت من أين ينبغي لي أن أمضي. استدرت لأسلك الدرب الذي يقطع مرج باركالد. ولو لم يبلّلني المطر، لتكفّل العشب الفارع هناك بجعل بنطلوني ثقيلاً ولزجًا. وذاك في جميع الأحوال لم يشكّل أيّ أهمية حينها. قلت لنفسي إنّ باركالد سيضطر إلى الانتظار أيامًا ليجفّ العشب قبل أن يتمكّن من جزّه. فالعشب لا يُجزّ وهو مبلّل. تساءلت ما إذا كان ينوي أن يطلب من أبي ومنّي أن نساعده في صنع التبن كما فعل في السنة الفائتة. تساءلت أيضًا إن كان جون قد أخذ قاربه وعبر النهر وحده، أم أنه ينتظرني عند الضفّة. ولولا أنها مسيرة شاقّة وطويلة لارتقيت الطريق المؤدّية إلى الدكّان، ثم نزلت عبر الغابة إلى الجهة الأخرى. ولولا التيّار القويّ والماء الذي لا ريب أنه ازداد برودة لعبرت المسافة سباحة. كنت متجمّدًا من البرد في ثيابي المبللة، وارتأيت أن خلعها أفضل. وقفت في أرضي وبدأت أنزع كنـــزتي وقميصي. فعلت ذلك بصعوبة لأنها التصقت بجسمي. وبعد أن تدبّرت أمري في النهاية صررتهما وتأبّطتهما. بدا كلّ شيء غارقًا بالماء إلى درجة مثيرة

للضحك. والمطر الذي ساط جذعي العاري بعث بي الدفء بطريقة غامضة. حينما مرّرت يدي على جسمي لم أشعر بأيّ شيء تقريبًا، بسبب إنهاكي ونعاسي والخدر الذي سرى في أصابعي وجسمي. خطر لي حينها أنه من الرائع أن أتمدّد لبرهة وأغمض عيني. تقدّمت بضع خطوات. مسحت الماء عن وجهي بيدي، وشعرت بدوار. فجأة وجدت نفسي عند النهر من غير أن أسمع خريره. هناك أبصرت جون أمامي جالسًا في القارب، وشعره المجعّد الأشعث عادة، مبلل وملتصق برأسه. رأيته ينظر إليّ من خلال المطر وهو يثبّت المجدافين ليبقي مؤخّرة القارب قرب الضفّة، لكنه لم يقل شيئًا.

«مرحبا،» همهمت وأنا أمشي بخطىً غير ثابتة على الأحجار المستديرة الملساء. تعثّرت، لم أقع. صعدت إلى القارب، وجلست على عارضة المؤخّرة. ما كدت أستقرّ حتى بدأ يجدّف بصعوبة كما لاحظت، لأننا نعاكس التيار. ولذلك تقدّمنا ببطء. أراد أن يعيدني إلى البيت تمامًا مع أنه حتمًا متعب، ومع أنه يسكن عند سافلة النهر. رغبت في أن أقول له أن لا داعي لذلك، وأنه يستطيع نقلي إلى الضفّة الأخرى فقط، لأقطع المسافة المتبقية سيرًا على الأقدام. بيد أنني لم أتفوّه بكلمة. لم أستطع.

وصلنا أخيرًا. وبجهد بطولي حرف جون القارب قريبًا من الضفة بما يكفيني لأترجّل. وهذا ما فعلته، ووقفت هناك أنظر إليه.

«إلى اللقاء،» قلت. «أراك غدًا.»

لم يجب. اكتفى بإخراج المجدافين من الماء. ترك القارب ينحرف وحده في حين التفت يحدّق بي. وأدركت أنني لن أنسى أبدًا عينيه بتلك النظرة الحادّة فيهما.

مكتبة
t.me/t_pdf

٣

كنت أنا وأبي قد باشرنا رحلتنا بالقطار من أوسلو قبل أسبوعين. ثم ركبنا الحافلة من إلفيرُم لساعات وساعات. دأبت الحافلة على التوقّف بروتين لم أفهمه. ما أعرفه هو أنها توقّفت كثيرًا. بين فترة وأخرى ونحن فيها استسلمت للنوم على مقعدي الساخن تحت الشمس الحارقة. وكلّما أفقت ونظرت من النافذة هيّأ لي أننا لم نتقدّم قيد أنملة، لأن المنظر الذي يطالعني يبدو مماثلاً لذاك الذي رأيته قبل أن أنام؛ طريق حصوي متعرّج تحدّ جانبيه حقول ومزارع كبيرة وصغيرة، فيها بيوت بيضاء ومستودعات مطلية باللون الأحمر. وأبقار مستلقية على العشب تجترّ بعيون ناعسة تحت الشمس، يفصلها عن الطريق سياج أسلاك شائكة، معظمها داكنة اللون، والقليل منها فقط تخلّلت جلودها البُنيّة أو السوداء بقع بيضاء. ومن وراء المزارع تمتدّ الغابة بظلالها الزرقاء وترتقي إلى تلّ عتيد.

استغرقت منا الرحلة يومًا كاملاً تقريبًا، والغريب في الأمر أنني لم

أشعر بالملل. راقني التطلّع من النافذة إلى أن يَثقل جفناي من النعاس والحرارة، فأنام. ثم أصحو ثانية وأتطلع من النافذة للمرّة الألف أو أكثر. أو ألتفت ناظرًا إلى أبي حيث جلس طوال الرحلة منكبًا على كتاب تقني؛ شيء ما عن بناء البيوت أو المحرّكات أو الماكينات، فقد كان مولعًا بهذه الأشياء. فيرمقني ويهزّ رأسه مبتسمًا، وأبادله الابتسام. ثم يغوص في كتابه من جديد، وأعود أنا إلى النوم وأحلم بأشياء دافئة وأشياء ناعمة. وما أفقت في المرّة الأخيرة إلا بعد أن أحسست بأبي يهزّ كتفي.

«هيا، أيها القائد،» قال. ففتحتُ عينيّ ونظرت من حولي. كانت الحافلة مطفأة المحرّك ومتوقّفة في ظلّ شجرة البلّوط الضخمة أمام الدكّان. وقع بصري على الدرب المؤدّي إلى الجسر فوق النهر الذي ضاق هناك وأرغى فيما جرى منحدرًا، وأشعة الشمس تتلألأ في رذاذه. كنا آخر من تبقّى من الركّاب في تلك المحطّة الأخيرة. فالحافلة لا يمكن أن تتقدّم أكثر، وعلينا قطع الطريق مشيًا. قلت لنفسي هذه شيم أبي المعهودة في اصطحابي إلى أبعد نقطة يمكن بلوغها من غير أن نتجاوز حدود النرويج. ولم أطرح أيّ سؤال عن سبب اختيار تلك البقعة بعينها، إذ بدا لي كما لو أنه يمتحنني، ولم أمانع ذلك لأنني أثق به.

أخذنا حقائبنا وأغراضنا من مقصورة الأمتعة في مؤخّرة الحافلة، وباشرنا السير صوب الجسر. توقّفنا في منتصف الطريق وتفرّسنا في الماء شبه الأخضر المندفع. ثم أمسكنا قصبتي الصيد المصنوعتين من خشب البامبو، وقذفنا صنارتيهما من فوق الحاجز الخشبي الجديد، وبصقنا في الماء، وانبرى أبي يقول:

«انتظر وسترى يا جاكوب!»

كلّ سمكة، في رأي أبي، اسمها جاكوب. سواء سعى وراءها في مياه خليج أوسلو المالحة حيث نعيش، وصدره منحنٍ فوق الحاجز معاينًا الماء بابتسامة هازئة، وممازحًا البحر بقبضة لعوبٍ وهو يقول؛ انتظر يا جاكوب، إننا قادمون في إثرك. أو في هذا النهر المتدفّق في نصف دائرة، مخترقًا الحدود من السويد، ومارًّا بهذه القرية في طريق عودته إلى السويد على بعد بضعة كيلومترات جنوبًا. تذكّرت كيف أنني في السنة الماضية حينما تفرّست في الماء المدوّم، تساءلت ما إذا يمكن المرء أن يعرف سواء بالنظر أو الإحساس أو التذوّق أن ذلك الماء سويدي في الحقيقة، وأنه مقترض فقط في هذا الطرف من الحدود. غير أنني كنت آنذاك أصغر سنًا ولا أفقه الكثير عن العالم، ثم إنها بطبيعة الحال مجرّد فكرة خيالية. وبينما وقفت على الجسر أنا وأبي تبادلنا النظرات وابتسمنا، وتملّكني أنا شخصيًا شعور بالإثارة أحسست به ينتشر في معدتي.

«كيف الحال؟» سألني.

«على ما يرام،» أجبته، وانفجرتُ بالضحك.

ارتقيت الدرب من النهر تحت المطر. وجون من خلفي في القارب يبحر مع التيّار. تساءلتُ إن راح يخاطب نفسه بصوت عالٍ، مثلما أفعل غالبًا وأنا وحدي، حيث أعيد وصف ما فعلته، متمعّنًا في محاسنه ومساوئه، ومنتهيًا بالقول إنني لم أجد أمامي خيارًا آخر. ثم رجّحت أن جون لم يفعل.

كان جسمي بأكمله متجمّدًا من البرد، وأسناني تصطكّ. أدركت أن الوقت قد تأخّر لأعاود ارتداء كنـــزتي وقميصي اللذين تأبّطتهما.

غدت السماء أشدّ حلكة مما تبدو عليه في الليل عادة. كان أبي قد أشعل قنديل الكيروسين في الشاليه، فشعّ من النوافذ ضوء أصفر وهّاج. ومن المدخنة تصاعد الدخان الرمادي الذي سرعان ما خمد على السطح بفعل الريح، لينساب بعد ذلك نزولاً مع الماء على حجارة البيت، مشكّلاً مزيجًا أشبه بعصيدة قاتمة اللون. كان مشهدًا غير اعتيادي.

وجدت الباب منفرجًا. مضيت مباشرة إلى الشرفة واستنشقت رائحة القديد المقلي المتسرّبة من فرجة الباب المضيئة. توقّفت تحت الإفريز الصغير. ولأول مرّة منذ ساعات كفّ المطر عن لسع رأسي. بقيت هناك لدقيقة أو اثنتين، ثم فتحت الباب ودخلت. وجدت أبي عند فرن الحطب يعدّ الفطور. تريثت عند العتبة والماء يقطر مني على ممسحة الأقدام. لم يشعر بي وأنا أدخل. ولم أعرف في أيّ وقت نحن، إنما لا ريب أنه أجّل إعداد الطعام بقدر ما يستطيع. كان يلبس فوق قميصه كنـــزة قديمة مفعمة بالثقوب، يحبّ ارتداءها عندما يعمل. لحيته التي لم يحلقها منذ وصولنا بدأت تزداد نموًا. شعراني وحرّ، ستسمعه يقول وهو يمسّد ذقنه. وذاك رجل أحببته. سعلت، فالتفت ناظرًا إليّ برأس مائل. لبثت أنتظر منه أن يقول شيئًا.

«ما هذا، يا للصبي المبلّل!»

هززت رأسي. «صحيح،» قلت وأسناني تصطكّ.

«لا تتحرّك!» هتف وهو يرفع المقلاة من على النار. مضى إلى غرفة النوم، وعاد بمنشفة كبيرة.

«اخلع بنطلونك وحذاءك.» قال، ففعلت ما طلبه مني. لم يكن الأمرُ سهلاً. وإذ وجدتُني هناك عارياً فوق ممسحة الأقدام، أحسستُ

أنني عدت طفلاً من جديد.

«اقترب من النار،» قال. فامتثلت. أضاف خشبتين إلى الموقد ثم أغلق بابه الصغير. رأيت من خلال غطاء التهوية اللهب يتأجّج، ومن الصلب الأسود تدافعت موجات من الحرارة آلمت بشرتي قليلاً. ثم لفّني بالمنشفة وبدأ يفركني. فعل ذلك بحذر في البداية ثم شدّد الفرك. شعرت كما لو أنني أشتعل، مثلما يشتعل عودان من الخشب عندما يفركهما الهنود الحمر معًا لإيقاد النار. كنت عودًا صلبًا جافًا ما لبث أن تحوّل إلى كتلة حمراء متوهّجة.

«اسمع، أمسكها الآن جيدًا،» قال. فشددت المنشفة حول كتفيّ بقوة. عاد إلى غرفة النوم وجاءني ببنطلون نظيف وكنـــزة سميكة وجوارب. وعلى مهل شرعت أرتدي ثيابي.

«جائع؟»

«نعم،» أجبته، ثم لزمت الصمت لفترة طويلة من الوقت. جلست إلى الطاولة. وضع بيضًا وقديدًا وخبزًا خبزه بنفسه في الفرن القديم، وقطّعه إلى شرائح سميكة طلاها بالسمن. التهمت كلّ ما وضعه أمامي. وهو أيضًا جلس ليأكل. سمعنا المطر يقرع السقف. أمطرت الدنيا على النهر وعلى قارب جون وعلى الطريق إلى الدكّان وعلى مروج باركالد. أمطرت على الغابة وعلى الخيول في مراعيها وجميع أعشاش الطيور على جميع الأشجار، على الأيائل وعلى الأرانب البرية، وعلى كلّ سطح في القرية. لكننا نعمنا بالدفء والجفاف في داخل الشاليه. كان الموقد يفرقع، وأكلت إلى أن أفرغت صحني تمامًا. أما أبي فأكل وشبه ابتسامة ترتسم على شفتيه كما لو أننا في صبيحة عادية جدًا، لولا أنها في الحقيقة لم تكن كذلك. فجأة شعرت بتعب

شديد، فانحنيت إلى الأمام، وضعت رأسي فوق يديّ المستندتين إلى الطاولة، ونمت.

عندما أفقت وجدت نفسي وأنا بكامل ملابسي تحت اللحاف الطري في سرير المبيت التحتاني، وهو في الواقع سرير أبي. من النافذة شعّت الشمس من ناحية الشاليه الخلفية. فأدركت أن الوقت قد تجاوز الثانية عشرة بكثير. نحيّت اللحاف جانبًا، ترنّحت مغادرًا السرير، ووضعت قدميّ على الأرض. شعرت أنني في حالة جيّدة. و لم ألقِ بالاً لذلك الوهن الذي أحسست به في أحد جانبيّ. قصدت غرفة الجلوس. وجدت باب البيت مفتوحًا على مصراعيه، والشمس تنير الفناء. كان العشب الندي يتلألأ، وطبقة سميكة من البخار تطفو على مسافة متر من الأرض. طنّت ذبابة عند النافذة. ورأيت أبي واقفًا بالقرب من الخزانة في إحدى الزوايا، يفرغ البقالة من حقيبة الظهر ويضعها على الرفوف. أدركت أنه قطع المسافة إلى الدكان ذهابًا وإيابًا بينما أنا نائم.

رآني في الحال، توقّف عما كان يفعله وتسمّر هناك وفي يده كيس. ساد السكون من حولنا، ولاحت على وجهه جدّية بالغة.

«كيف تشعر؟» سألني.

«بخير،» قلت. «أشعر أنني بخير.»

«جيد،» قال، ثم أطرق صامتًا لبرهة قبل أن يضيف:

«هذا الصباح، عندما خرجت، هل كنت مع جون؟»

«نعم.»

«وماذا فعلتما؟»

«خرجنا لنسرق خيولاً.»

«ما هذا الذي تقوله؟» هتف أبي وقد اعتراه الذهول. «أيّ خيول تعني؟»

«خيول باركالد. في الواقع لم نقصد سرقتها حقًا. أردنا امتطاءها فقط. نقول سرقة لنجعل المغامرة أكثر إثارة.» ابتسمت بحذر، لكنه لم يبادلني الابتسام. «لم يحالفني الحظّ،» أردفت. «قذفني الحصان على سياج الأسلاك الشائكة.» رفعت يدي لأريه الجرح، إلا أنه نظر في عينيّ مباشرة.

«ماذا عن جون؟»

«جون؟ إنه كحاله أبدًا، إلا في الآخر. أراد أن يريني عشّ صعو في أعلى شجرة تنّوب. وفجأة سحق ذلك العشّ، هكذا.» ورفعت يدي ثانية مقلّدًا بقبضتي ما فعله جون. وضع أبي كيس البقالة الأخير في الخزانة، وهو لا يزال ينظر إليّ ويهزّ برأسه. ثم أغلق باب الخزانة ومسّد لحيته، فقلت حينها:

«وبعد ذلك رحل، ثم هبّت العاصفة الرعدية.»

حمل أبي حقيبة الظهر إلى الباب ووضعها هناك. وقف يتطلّع إلى الفناء وظهره نحوي. حكّ رقبته، ثم استدار عائدًا وجلس إلى الطاولة وهو يقول:

«أتريد أن تعرف ما يتحدّث عنه الجميع في الدكّان؟»

وعلى الرغم من أنني لم أرغب حقًا في معرفة ما تحدّث عنه الناس في الدكّان، أدركت أنه سيخبرني في جميع الأحوال.

«أجل،» أجبته.

في اليوم الفائت خرج جون ومعه بندقيته ليصطاد كعادته الأرانب

البريّة. ومع أن اصطياد الأرانب كان من اختصاصاته المميزة، لم أفهم قطّ سبب هوسه في اصطيادها. كان بارعًا في ذلك، وغالبًا ما نجح في اصطياد واحد من بين اثنين. وهذا ليس هيّنًا نظرًا إلى سرعة الأرانب وصغر حجمها. لا أدري إن كانت عائلته تأكل كلّ تلك الأرانب، فهم لا ريب في أنهم سيسأمونها في النهاية. على أيّ حال، عاد إلى البيت بأرنبين ربطهما من أذنيهما بحبل، وابتسامته تشعّ كأنها الشمس، لأنه لم يطلق سوى خرطوشتين في ذلك الصباح، وكلّ منهما أصابت هدفها. كان ذاك ظفرًا استثنائيًا حتى بالنسبة إليه. عندما وصل إلى البيت بحث عن أبيه وأمّه ليريهما غنيمته، ثم تذكّر أن أمّه تزور أصدقاء لها في بلدة إنبغدا، وأن أباه في الغابة. حينما خرج صباحًا وهو في عجلة من أمره نسي ذلك، ولم يلاحظ مَن مِن أهله في البيت. ولأن رعاية التوأمين منوطة به، وضع البندقية أرضًا في الرواق، علّق الحبل بالأرنبين على مسمار، ومضى يتفقّد البيت بحثًا عن شقيقيه. لم يعثر عليهما فيه، فاندفع إلى الفناء ثانية وجال حول الحظيرة وحول مستودع الحصيد، ولم يجدهما. أصيب بالذعر. أسرع إلى النهر، خاض فيه قريبًا من الحاجز المنصوب هناك. التفت واستدار وتقصّى بعينيه الضفة العليا، والضفة السفلى، ولم يلمح شيئًا باستثناء سنجاب على شجرة راتينج.

«متسلّق أشجار لعين!» دمدم. ثم انحنى فوق الماء وأعمل يديه فيه، كما لو أنه ينحّيه جانبًا لتتضح له الرؤية خلاله. عبثاً فعل، فارتفاع الماء لم يبلغ سوى ركبتيه وكان صافيًا تمامًا. اعتدل وتنهّد بعمق محاولاً لملمة أفكاره، ثم إذا به يسمع صوت عيار ناري من البيت.

البندقية! لقد نسي أن يغلق صمّام الأمان، ولم يسحب الخراطيش؛

هذا الأمر الذي درج على فعله دائمًا كلما عاد إلى البيت. فذاك السلاح هو الشيء الوحيد القيّم بالنسبة إليه. ولطالما اعتنى به ولـــمّعه وأبقاه في حالة جيدة كأنه طفله. فعل ذلك منذ أن أهداه إياه والده في عيد ميلاده الثاني عشر، محذرًا إياه بصرامة من سوء سبل استخدامه، ومبيّنًا على وجه التحديد سبل عدم استخدامه. وقد حرص دائمًا على إغلاق صمّام الأمان ونزع الخراطيش وتعليقه على خُطّاف جداري عالٍ. بيد أنه يومها وضع البندقية أرضًا في الرواق، لأنه تذكّر فجأة ما نسيه؛ أنه المسؤول عن رعاية التوأمين اللذين لا يتعدّيان العاشرة من العمر، وأنهما وحدهما في البيت.

اندفع جون خارج النهر وجرى متتبّعًا الضفّة، يمّم البيت بخطّ مستقيم. وبدا له الطريق طويلاً جدًا. أثقلته ساقا بنطلونه المبلّلتين حتى مستوى ركبتيه. وما انفكّ حذاؤه الموحل يصدر صوتًا مع كلّ خطوة خطاها مسببًا له الاشمئزاز. في منتصف الطريق إلى البيت لمح أباه يقبل جريًا من الغابة في الناحية الأخرى من المزرعة. لم يسبق له قطّ أن رأى أباه يعدو. ومنظر الرجل الضخم الثقيل وهو يتقدّم وثبًا من بين الأشجار نحو الفناء بخطى واسعة ساحقة، وذراعاه مرتفعتان إلى مستوى كتفيه بلا تناسق كأنه يخوض في الماء، بدا مرعبًا جدًا إلى درجة جعلت جون يتسمّر في أرضه. ثم خرّ على العشب متخاذلاً وقد أدرك أن الأوان قد فات مهما كانت طبيعة ما حدث، وأن أباه سيصل إلى البيت قبله. عرف جون لحظتها أنه لا يريد أن يرى ما جرى.

أما ما حدث فهو أن التوأمين أمضيا فترة الصباح كلّها يلهوان في القبو

بالملابس العتيقة والأحذية البالية. ثم صعدا من القبو يضحكان، وأطلاّ من بابه على الرواق. هناك أبصرا الأرنبين المعلّقين على المسمار، والبندقية المستندة إلى الحائط. وهما يعرفان أنها بندقية جون، شقيقهما الأكبر وبطلهما. وفي حال كان مثَلهما الأعلى يشبه مثلي الأعلى وأنا في سنّهما، فلا ريب أنهما رأيا في شخص جون كلّ من دافي كروكيت وهارتسفوت وهاكلبيري فين. وأي شيء فعله جون كانا يقلّدانه ويجعلان منه موضوعًا للهوهما.

وصل لارس إلى البندقية أوّلاً، ولوّح بها وهزّها صائحًا:

«انظر إليّ!» ثم ضغط على الزناد. ألقاه صوت الطلقة واهتزاز عقب البندقية على الأرض وهو يزعق، لم يصوّب نحو أيّ شيء، أراد فقط أن يحمل البندقية ويقلّد جون. كان يمكن أن يصيب صندوق الحطب، أو النافذة الصغيرة المطلّة على الدرج، أو صورة جدّه ذي اللحية الطويلة المعلّقة في إطار مذهّب فوق المشجب، أو المصباح الكهربائي العاري الذي لا يُطفأ أبداً حتى يرى المارّة ضوءه من النافذة في الظلام فلا يضلّون الطريق. لكنه لم يصب أيًّا من تلك الأشياء، بل أصاب شقيقه أود في القلب إصابة مباشرة ومن مسافة قريبة. ولو أن هذا جرى في رواية عن الغرب الأمريكي، لزعمت أوراقها ذات المسام أن اسم أود كان مكتوبًا على تلك الخرطوشة، أو أنه مكتوب في النجوم، أو في إحدى صفحات مجلّد القدر الضخم. وأن أحدًا ليس بمقدوره فعل أو قول شيء قد يجعل الخطوط التي اجتمعت في تلك اللحظة المحمومة تغيّر مسارها. وأن قوى خارجة عن إرادة الإنسان جعلت فوّهة تلك البندقية تصوّب في ذلك الاتجاه تمامًا. إلا أن الحال ليس هكذا هنا. وعرف جون ذلك وهو رابض مكوّمًا على عشب

المرج حالما رأى أباه يخرج من البيت وجثمان أخيه بين ذراعيه، والكتاب الوحيد الذي خُطّ فيه اسم أود ولا يمكن شطبه منه هو سجل الكنيسة.

بالطبع لم يخبرني أبي بكلّ ذلك. ليس بهذا القدر من التفاصيل. إنما هو محفور هكذا في ذاكرتي. ولا أدري هل سعيت إلى سدّ ثغرات هذه اللوحة في الحال، أو أنه شيء فعلته بالتدريج على مرّ السنين. في جميع الأحوال يستحيل الطعن في حقائق ذلك الحدث القاسية، فما حدث قد حدث بالفعل. ما لبث أبي أن عاينني بنظرة استفهام عبر الطاولة، لأنني ربما أعرف أبطال المأساة أكثر منه. إلا أنني لم أرَ أمامي سوى وجه جون الممتقع، والمطر المنهمر على ماء النهر الجاري، وجون يدفع القارب ويتركه ينجرف مع التيّار قاصدًا البيت الذي يعيش فيه، والأشخاص الذين ينتظرونه هناك.

«ليس هذا أسوأ ما في الأمر،» قال أبي.

باكرًا في صباح اليوم الذي سبق حادثة إصابة لارس لشقيقه التوأم أود، أقلّت الشاحنة التي تسلّم البضاعة للدكّان، أمّ التوأمين إلى بلدة إنبغدا. وفي اليوم التالي، يوم المأساة، كان الأب سيذهب بالعربة والفرس ليعيدها. وهي فرس تُدعى برامينا؛ كستنائية اللون وتبلغ من العمر خمس عشرة سنة، نرويجية قويّة بغرّة بيضاء وقوائم بيضاء. لطالما اعتبرتها جميلة وأن لا شيء ينقصها إلا بعض الرشاقة. أما جون فزعم دائمًا أن ثقل أنفاسها يعود إلى إصابتها بحمّى القشّ، وهذا في الحقيقة غير عادي بالنسبة إلى فرس. ومع برامينا استغرقت رحلة الذهاب

والعودة إلى إنبغدا معظم ذلك اليوم.

وقف الأب في الفناء والصبي الميت بين ذراعيه، وابنه البكر جاثم على العشب هامدًا تمامًا كأنه ميت هو الآخر. لم يغب عن ذهن الأب أنه مضطرّ إلى الذهاب. قال لزوجته إنه سيفعل، ويعلم أن لا خيار لديه. وإذا أراد الوصول في الوقت المناسب عليه المغادرة فورًا. استدار ودخل البيت ثانية. وفي الرواق وجد لارس يقف متشنّجًا وصامتًا. رآه بالطبع، بيد أنه عجز عن التفكير في موضوعين عظيمين في الوقت نفسه، فمضى إلى غرفة النوم ومدّد أود على سرير الزوجية، بحث عن غطاء، وغطّى به الجسم الصغير. غيّر قميصه المضرّج بالدم وغير بنطلونه ثم ذهب ليسرج برامينا. من طرف عينه لمح جون يقف على قدميه ويتجه ببطء نحو الإسطبل. وصل إلى هناك حينما أصبحت برامينا مربوطة إلى لوحي العربة. استدار الأب وأمسكه من كتفيه بخشونة — رأى جون لاحقًا أنها خشونة زائدة عن الحدّ - و لم ينبس الولد بكلمة.

«عليك الاعتناء بلارس في غيابي. يمكنك على الأقلّ تدبّر هذا،» قال الأب وهو ينظر نحو الدرج حيث خرج لارس ووقف يطرف بعينيه بسبب الشمس الساطعة. ثم مرّر يده على وجهه، أغلق عينيه لبرهة، تنحنح وصعد إلى العربة. ساط الفرس وبدأت العربة تتحرّك مجتازة البوّابة إلى الطريق مرورًا بالدكّان، ثم مكملة ببطء طريقها الطويل إلى إنبغدا.

اصطحب جون شقيقه لارس في قاربه، وجدّف مع تيّار النهر ليصطاد السمك. عجز عن التفكير في القيام بأيّ شيء آخر. غابا لساعات، و لم أفلح قطّ في تخيّل الحديث الذي تبادلاه آنذاك، ولعلهما

لم يتحدّثا على الإطلاق. ربما اكتفيا بالوقوف على الضفّة، كلّ منهما يحمل قصبة الصيد، يصطادان السمك، يقذفان الصنّارتين، يلفّان بكرتيهما ثانية، يقذفان ويلفّان بلا توقّف، تفصل بينهما مسافة ملحوظة، ولا شيء حولهما سوى الغابة والصمت الرهيب. هذا يمكنني تخيّله بسهولة.

عندما عادا قصدا مستودع الحصيد مع صيدهما المتواضع، وجلسا هناك ينتظران. لم يحاولا دخول البيت ولا مرّة واحدة. في ساعة متأخرة من المساء سمعا وقع خطوات برامينا على الحصى، وصوت العربة ترتقي الطريق. تبادلا النظر. شعرا أنهما يودّان البقاء حيث هما لفترة أطول. بيد أن جون نهض، فحاكاه لارس، وأمسك كلّ منهما يد الآخر لأول مرّة منذ أن كان التوأمان صغيرين جدًا. خرجا إلى الفناء ووقفا يراقبان العربة تتقدّم نحوهما وتتوقّف. سمعا نفس برامينا المتقطّع وكلمات والدهما الملاطِفة للفرس؛ كلمات رقيقة، كلمات حانية، كلمات ما سمعاه قطّ يقولها لأيّ آدمي.

على مقعد العربة جلست أمّهما بفستانها الأزرق ذي الأزهار الصفراء، وحقيبة يدها في حضنها. ابتسمت لهما وقالت:

«ها قد عدت إلى البيت، أليس هذا حسنًا؟» ثم نهضت، وضعت رِجْلاً على العجلة، وقفزت إلى الأرض.

«أين أود؟» سألتْ.

ألقى جون نظرة على أبيه. تفادى الأب نظرته، أشاح يحدّق في حائط مستودع الحصيد وعلك فمه كأنه يمضغ تبغاً. لم يخبرها. طوال الطريق الطويلة عبر الغابة، ولا أحد معهما، ولم يخبرها شيئاً.

أقيمت مراسم الجنازة بعد ثلاثة أيام. سألني أبي إن كان ينبغي علينا الذهاب، وقلت نعم. تلك كانت أول جنازة أشهدها. في سنة 1943 قُتل أحد أخوالي على يد الألمان عندما حاول الفرار من مركز الشرطة في مكان ما في سورلانديت تجاه الساحل الجنوبي. حينها لم أكن هناك حيث وقع الحادث، ولا أعرف حتى إذا أقيمت له أيّ جنازة.

بقي في ذهني من جنازة أُود شيئان. أحدهما أن لا أبي ولا والد جون تبادلا النظر مرّة واحدة. وعندما صافحه أبي اكتفى بقوله: «تعازينا،» وبدت الكلمة دخيلة تمامًا، ولم يستخدمها أحد غيره في ذلك اليوم. وحتى في تلك اللحظة لم يتبادلا النظر.

أما الشيء الثاني فهو تصرّف لارس بعد خروجه من الكنيسة. فعندما وقف أمام القبر المفتوح بدا أنّ اضطرابه يزداد تفاقمًا. وعندما وصل القسّ إلى منتصف مراسم التأبين، وتأهّب الناس لإنزال التابوت الصغير بحبل رُبط إلى مسكتيه، عجز عن تحمّل الموقف فانتفض متحرّرًا من يد أمّه واندفع وسط شواهد القبور هاربًا. هرب إلى أن أصبح خارج فناء الكنيسة تقريبًا. هناك راح يدور حول نفسه قريبًا من الحائط الحجري. دار ودار مطأطئًا رأسه وعيناه على الأرض، وكلما ألحف في دورانه أبطأ القسّ في كلامه. في البداية لم يلتفت سوى قلّة من الحضور في الحشد الذي غلب عليه اللون الأسود، ثم التفت المزيد منهم بعد هنيهة. وفي النهاية التفت الجميع ووقفوا ينظرون إلى لارس بدلاً من تابوت شقيقه. استمرّ هذا إلى أن اجتاز أحد الجيران الساحة الخضراء بهدوء، ووقف عند حافّة الحلقة التي حدّدها لارس بدورانه، وحينما دنا منه لارس أمسكه وحمله. ومع أن قدمي الصبي واصلتا العدو وهو محمول، لم يتفوّه بكلمة. تطلّعت إلى جون وتطلّع إليّ.

هززت رأسي خلسة، ولم يجبني بأيّ حركة، بقي فقط يحدّق في عينيّ مباشرة من غير أن يطرف له جفن. وأتذكّر أنني حينها فكّرت في أننا لن نذهب معًا أبدًا ثانية لنسرق الخيول. تلك الفكرة، أحزنتني أكثر من أيّ شيء آخر جرى في فناء الكنيسة. ذاك ما أتذكّره، ما يعني أن ما تبقّى في ذهني من تلك الحادثة ثلاثة أشياء.

٤

حوت الأرض التي اشتراها أبي أشجارًا إلى جانب المرج. كان معظمها أشجار تنّوب، ولم تخل أيضًا من الصنوبر. وهنا وهناك قد تنبثق شجرة بتولا نحيلة، شبه محشورة ما بين الجذوع الأخرى الداكنة. وتبدأ حدود جميع تلك الأشجار من ضفّة النهر؛ من عند شجرة صنوبر نامية على شفا الحَصى، ومائلة تقريبًا فوق الماء الجاري، وعليها ثُبّت بطريقة غامضة صليب خشبي. من هناك يمتدّ الحرج على نحو دائري ليحيط بالفناء والشاليه، وكذلك بالسقيفة والمرج في الجهة الخلفية، ثم يتابع الامتداد إلى الدرب الضيّق الذي تنتهي عنده حدود أرضنا. كان ذاك الدرب في الواقع مجرّد مجاز شبه مفروش بالحصى ومحفوف بالجذور المتشابكة، يتخلّل صفوف أشجار التنّوب، ثم يتقدّم موازيًا للنهر على مسافة ما من جهة الشرق، ويصل أخيرًا إلى الجسر الخشبي في موضع انعطافه نحو مركز القرية حيث الدكّان والكنيسة. وهو المسار الذي تتبّعناه عندما وصلنا بالحافلة في نهاية شهر حزيران، أو نتتبّعه حينما يترك أبله ما قاربنا عند الضفّة المعاكسة، إلى الشرق

أو الغرب منها، حسب المكان الذي يصدف أننا فيه. هذا الأبله، هو على الأغلب أنا. ما عدا ذلك، درجنا أن نسلك الطريق المحاذية لحقل باركالد على طول سياجه، ثم نقطع النهر بالقارب.

في فترة الظهيرة كانت الغابة الكثيفة من الجهة الجنوبية تظلّل بيتنا من الشمس لبضع ساعات. وقد خطر لي أن ربما هذا ما جعل أبي يقرّر قطع ذلك الصفّ اللعين كلّه وبيعه خشبًا. كنت متأكّدًا من أنه بحاجة إلى المال. بيد أنني لم أدرك مدى حاجته الماسّة إليه. ما ظننته أننا سافرنا إلى ذلك النهر، وللسنة الثانية على التوالي، لأنه في حاجة إلى الوقت والسكينة ليخطّط لحياة مغايرة لتلك التي اختبرها، وأن عليه فعل هذا في مكان مختلف وبرؤية مختلفة عن رؤيته للحياة التي عشناها في أوسلو. إننا أمام مفترق طرق، هكذا قال. أنا وحدي سُمح لي بمرافقته، وهذا منحني مَنـــزلة لا تستطيع أختي منافستها، لأن عليها البقاء في المدينة مع أمّي، على الرغم من أنها تكبرني بثلاث سنوات.

«لا أريد الذهاب في جميع الأحوال، لأنني سأضطرّ إلى الاهتمام بالتنظيف بينما أنتما في الخارج تصطادان السمك. لست غبية.» قالت، ولا ريب أنها أصابت في ما قالته. وخلتُ حينها أنني فهمتُ مرام أبي، وقد سمعته يقول أكثر من مرّة أنه يعجز عن التفكير في حضور النساء. مشكلة لم أواجهها قطّ، بل العكس صحيح. لاحقًا خطر لي أنه ربما لم يقصد بما قاله جميع النساء.

كان الظلّ هو ما واصل أبي الحديث عنه؛ ذاك الظلّ اللعين، مافتئ يقول، إنه في النهاية وقت الإجازة، اللعنة. ثم ينبري يشتم كما يفعل أحيانًا في غياب أمّي. فأمّي نشأت في مدينة زعمت أن ناسها

تشاتموا طوال الوقت، وأنها ما عادت تريد سماع المزيد من السباب. أنا شخصيًا، رأيت أنه من الجيّد التخلّص من أشعة الشمس لبعض الوقت. وذلك خلال ساعات الحرّ التي تحبس فيها الغابة أنفاسها تحت وطأة الضوء الباهر، مطلقة أريجًا يجعلني خاملاً وناعسًا، وقد يدفعني إلى النوم في منتصف النهار.

أيًا كان السبب، اتخذ أبي قراره. ستُقطع معظم الأشجار، وتُسحب جذوعها إلى النهر، لتطفو عليه ويسوقها التيّار إلى منشرة في السويد. وهذا حيّرني، لأن لدى باركالد منشرة على بعد كيلومتر واحد فقط من سافلة النهر. إنما لعلّ كونها منشرة مزرعة، فإن حجمها الصغير قد لا يتكفّل بتدبّر الكمية التي ننوي إرسالها. من ناحية أخرى، رفض السويديون شراء الخشب من منشإه، كما هو متعارف عليه، وبيّنوا أنهم لن يدفعوا سوى ثمن ما يصل من خشب إلى المنشرة، ولن يتحمّلوا مسؤولية النقل المائي. ليس في شهر تـــمّوز، كما قالوا.

«ربما علينا أن نقطع كمية قليلة فقط في كلّ مرّة،» اقترحت.

«القليل الآن، والقليل في السنة القادمة؟»

«أنا مَن يقرّر متى تُقطَع أشجاري،» أجاب أبي، مع أنني لم أكن ألمّح إذ قلت ذلك إلى أن القرار قراره أم لا. غير أنني لم أعلّق. فالأمر لم يشكّل لي أهمية. جلّ اهتمامي انصبّ على أن أعرف أسيسمح لي بالمشاركة في عملية النقل، ومن أيضًا سيشارك في العمل، لأنه بالتأكيد عمل شاق، وخطر حتمًا إن لم تعرف ما تفعله. وعلى حدّ علمي، لم يسبق لأبي قطّ أن قام بقطع الأشجار ونقلها. وأنا أدرك الآن أنه على الأرجح لم يفعل. بيد أنه لطالما تمتّع بثقة قويّة بالنفس جعلته يُقدم على أيّ شيء تقريبًا مؤمنًا بالنجاح فيه.

قبل ذلك كان قد حلّ وقت جزّ الحشيش. فبعد العاصفة الرعدية لم تمطر السماء كثيرًا، وجفّ العشب في غضون أيام. وفي ذات صباح جاءنا باركالد بشعره المصفّف للتوّ ويداه في جيبيه، ليسألنا عن إمكانية التفكير في تخصيص بضعة أيام للتذرية. ففي رأيه أن لولا الجهد العضلي الذي بذلته أنا وأبي في السنة الفائتة، لذهب حصادها أدراج الرياح. خصوصًا جهدي أنا، كما أفهمتني كلماته المداهنة. كنت في سنّ تؤهلني لأدرك أن ما يسعى إليه حقًا هو الخدمة المجانية. لكنه أصاب في ما قاله. فقد اشتغلنا آنذاك بجدّ.

داعب أبي لحيته، ضيّق عينيه ناظرًا إلى الشمس لبرهة، ثم أطرق ونظر جانبًا إليّ ونحن واقفان على درج العتبة.

«ما رأيك، تروند تي؟» سألني، ملمّحًا بحرف التاء إلى اسمي الثاني «توبياس» الذي لا أستعمله مطلقًا. ولا يدعوني أبي هكذا إلا عندما يريد التظاهر بالجدّية، مبيّنًا لي أنّ هناك مجالاً للعبث قليلاً.

«نـــ.. نـــ.. نعم،» أجبت. «لعلّ هذا ممكنًا.»

«لدينا بعض الأعمال الخاصة التي نحتاج إلى الاهتمام بها،» قال أبي.

«صحيح،» قلت. «لدينا أشغال علينا إزاحتها من طريقنا. مع ذلك، ربما نستطيع توفير يوم أو يومين لك، وقد نتمكّن من تدبّر الأمر.»

«نعم، قد نتمكّن، لكن ذلك لن يكون سهلاً،» قال أبي.

«إيه، سيكون صعبًا.» أضفت. «والمرء قد يقترح مقايضة تفي بالغرض وتسهّل المسألة.»

«أصبت،» هتف أبي وهو يرمقني بفضول. «ليست المقايضة

بالفكرة السيّئة قطعًا.»

«فرس مع عدّته،» قلت. «لبضعة أيّام. الأسبوع القادم، أو الأسبوع الذي يليه.»

«نعم، تمامًا،» قال أبي بابتسامة عريضة. «رمية تصيب الهدف. ماذا تقول يا باركالد؟»

وقف باركالد في الفناء وقد ارتسمت على وجهه علامات الحيرة وهو يستمع إلى حوارنا الموارب. وسرعان ما وقع في الفخّ. مرّر يده على شعره وقال:

«نعم، طيّب، لا أرى مانعًا. يمكنكم أن تأخذوا برونا.» ولاحظت أنه رغب في أن يعرف سبب حاجتنا إلى الحصان، لكنه شعر أنه فقدَ تسلْسلَ أفكاره، وآخر ما أراده هو أن يظهر بمظهر الأبله.

قال باركالد إنه يحبّذ مباشرة الحصاد في اليوم التالي، بعد أن يتبخّر آخر ما قد يتبقّى من الندى. وأن علينا الذهاب إلى المرج الشمالي، ثم رفع يده مودّعًا، وبالتأكيد سعيدًا بالمغادرة. وفيما هو يسلك طريقه إلى النهر ليركب قاربه، وضع أبي يديه على خصره، نظر إليّ وقال:

«يا للعبقرية، من أين جاءتك هذه الخاطرة؟» فهو لم يعرف قطّ كم أمعنتُ التفكير في عملية قطع الخشب ونقله. وحينما لم أسمعه يأتي على ذكر أيّ حصان، تدخّلت، لأنني أعلم أننا لن نستطيع جرّ الجذوع إلى النهر بأيدينا. مع ذلك لم أجب. اكتفيت برفع كتفيّ والابتسام. قبض على خصلة من شعري، وهزّ رأسي برفق.

«لستَ غبياً يا فتى!» قال. وهذا صحيح. فأنا لطالما آمنت بذلك: أنني لست مغفّلاً.

كانت قد مرّت أربعة أيام على جنازة أود. ومُذاك لم أرَ جون. خلّف بي هذا شعورًا غريبًا. كنت أستيقظ في الصباح مترصّدًا خطواته في الفناء وعلى الدرج، متلمّسا سماع صرير المجاديف في مقابضها، والخبط الطفيف عندما يصطدم قاربه بحجارة الضفّة. بيد أن الهدوء البالغ عمّ كلّ الصباحات. عمّها بمعزل عن زقزقة الطيور وحفيف الريح في قمم الأشجار. وبمعزل عن رنين الأجراس والماشية تُساق من المساكن الصيفية على شمالنا وجنوبنا إلى التلال وراء الشاليه، لترعى في السفوح الخضراء طوال النهار إلى الخامسة مساءً، حيث تأتي الحلّابات إلى المروج، سالكات الدرب صعودًا، ليعدنها إلى الحظائر وهن يدندنّ لها. كنت أستلقي على سرير المبيت المجاور للنافذة المفتوحة، أسمع رنين الأجراس المعدنية المتقطّع وهو يتغيّر مع تغيّر تضاريس الأرض، وأفكّر في أنني، مهما حدث، لا أتمنى أن أكون في أيّ مكان آخر غير هذه الشاليه مع أبي. وفي كلّ مرة وقفت أرتدي ملابسي، وجون ليس هناك عند الباب، أحسست بشيء من الارتياح، ثم ينتابني الخجل، وأستشعر في حلقي ألـــمًا. وقد تمضي ساعات قبل أن يختفي ذلك الألم.

لم أره عند النهر. لم أره ومعه قصبة الصيد على الضفّة، أو في القارب متجهًا إلى عالية النهر أو سافلته. ولم يسألني أبي ما إذا قد خرجنا معًا، وأنا لم أسأل أبي إن كان قد رآه. هكذا جرى الأمر. نتناول الفطور. نلبس ثياب الشغل، ونمضي إلى قارب التجديف القديم الذي ضُمّ إلى صفقة شراء الشاليه، ونعبر النهر.

يومها كانت الشمس ساطعة، وأنا أجلس على مقعد المجداف الخلفي، وعيناي مغمضتان عن الضوء وعن وجه أبي المألوف وهو

يجدّف بضربات رخيّة. واستغرقت في التفكير في شعور المرء إذا فقد حياته باكرًا جدًا. يفقد حياته كما لو أنه يحمل بيضة في يده، ثم يوقعها، فتسقط على الأرض وتنكسر. عرفت أننا لن نشعر بأيّ شيء على الإطلاق. فعندما نموت، نموت. مع ذلك هنالك شعور ما لا يتجاوز جزءًا من الثانية قبل الموت مباشرة، سواء أدركنا أنها النهاية وخبرنا ماهيتها أم لم نفعل. بعينيّ المغمضتين أبصرت فتحة ضيّقة أمامي، مثل باب منفرج قليلاً اندفعت نحوه لأنني أردت الدخول. من ذلك الصدع شعّ نور ذهبي، مصدره ضوء الشمس على جفنيّ. فجأة وجدتني أنسلّ إلى الداخل، ولا ريب في أنني بقيت هناك للحظة قصيرة. لم يفزعني ذلك مطلقًا، شعرت فقط بالحزن والدهشة من سكينة كلّ شيء. حينما فتحت عينيّ، بقي الشعور يلازمني. تفحّصت الماء وصولاً إلى الضفّة البعيدة، رأيت أنها ما زالت هناك. نظرت إلى وجه أبي، كما لو أنني أنظر إليه من مكان بعيد جدًا، طرفت بعينيّ عدة مرات، أخذت نفسًا عميقًا، وربما ارتعشت قليلاً، لأن أبي ابتسم لي ابتسامة متسائلة وقال:

«كيف تجري أمورك أيها القائد؟»

«أنا بخير،» قلت بعد برهة صمت. عندما بلغنا الضفّة وربطنا القارب، وتتبّعنا السياج عند المرج، شعرت به في مكان ما في داخلي، بذلك البصيص الطفيف المتخلّف، بصيص نور أصفر باهر، وخِلت أنه لن يفارقني أبدًا.

لما وصلنا إلى المرج الشمالي، وجدنا فيه أناسًا. وباركالد بنفسه يقف إزاء الحصّادة واللجام بيده، وعلى أهبة الاستعداد لركوب الفرس.

تعرّفت على تلك الفرس فورًا لأن منفرج فخذيّ ما زال يؤلمني بعد مغامرتنا المشتركة. كان هناك رجلان من القرية وامرأة لم يسبق لي أن رأيتها من قبل، رجّحت أنها من أقرباء أحد الأشخاص الذين يعيشون هناك، لأنها لم تبد مثل زوجات المزارعين. لمحت زوجة باركالد واقفة تتحدّث مع أمّ جون؛ شعرهما معقود على شكل كعكة، فستاناهما من القطن المزهّر، باهتان وملتصقان بجسميهما، سيقانهما مكشوفة وجزمتاهما تصلان إلى حدود ربلاتهما، وكلّ واحدة منهما تحمل معزقة ذات مقبض أطول منها بمرّتين. سمعنا ترداد صوتيهما عبر فضاء الصباح على طول الدرب الصاعد. بدت أمّ جون مختلفة في المرج عمّا هي عليه في بيتها الخانق. لاحظت هذا في الحال لفرط وضوحه. ولا شكّ أن أبي لاحظ الشيء نفسه. وبطريقة لا إرادية تقريبًا، التفتنا وتبادلنا النظرات التي ميّز فيها كلّ منّا ما جال في خلد الآخر. تدفّقت الحرارة إلى وجهي، وانتابني التوتّر والحرج في الوقت نفسه. ولا أدري أذاك بسبب ما راودني من أفكار مفاجئة، أم لأنني اكتشفت أن أبي فكّر في ما فكّرت فيه. حينما رآني أتضرّج بالحمرة ضحك، ضحك ضحكة خافتة، لا استخفاف فيها. لا بدّ أن أقرّ بهذا. ضحك فقط، بحرارة على ما أعتقد.

حثثنا الخطى بين الحشيش إلى الحصّادة وحيّينا باركالد وزوجته. صافحتنا أمّ جون وشكرتنا على حضورنا إلى جنازة أود. كانت رزينة، متورّمة العينين قليلاً، إنما غير منهارة. أكسبتها الشمس سمرة لطيفة، فستانها أزرق، وعيناها زرقاوان وبرّاقتان، ولا تصغر أمّي إلا ببضع سنوات. كانت بكلّ بساطة تشعّ. وشعرت كما لو أنني أراها للمرّة الأولى في ضوء النهار. ولم أعرف هل بدت هكذا بسبب ما

حدث، أو هل ما حدث يمكن أن يجعل المرء يبرز ويضيء. اضطررت إلى التحديق في الأرض وعبر المرج لأتفادى عينيها. ثم قصدت كدسة الأوتاد حيث الأدوات، وأخذت مذراة لأتكئ عليها بينما رحت أحملق في الفراغ، بانتظار انطلاق باركالد. بقي أبي يدردش لبعض الوقت، ثم التحق بي، التقط من على العشب مذراة من بين بكرتي سلك معدني، غرزها في الأرض، ووقف ينتظر مثلي ونحن نتحاشى تبادل النظرات. أخيرًا، حثّ باركالد الفرس بعد أن جلس على مقعد الحصّادة، وخفّض القواطع وبدأ يتحرّك.

قُسّم الحقل إلى أربعة قطاعات، ليجري العمل في كلّ منها على حدة. جزّ باركالد الحشيش بخطّ مستقيم على طول منتصف القطاع الأول. وعلى بعد بضعة أمتار من حدود المرج غرزنا عند الزاوية وتدًا متينًا في الأرض بمطرقة. لففنا طرف سلك بكرة المعدن حوله وثبّتناه، وأحكمنا ربطه جيدًا. ثم جاء دوري لأحمل البكرة بمقبضيها اللمّاعين من القدم، وأفرد السلك وأشدّه جيدًا وأنا أمشي القهقرى في القطاع الذي جزّه باركالد. كانت البكرة ثقيلة. وبعد أمتار قليلة بدأ معصماي يوجعانني وآلمتني كتفاي، لأنه كان عليّ إنجاز ثلاثة أمور في وقت واحد بتلك البكرة الثقيلة، وعضلاتي لم تسخن بعد. مع انبساط السلك التدريجي غدت المهمة أسهل، لولا أن ما بلغته من إعياء حينها تضاعف بالقدر نفسه. فجأة تولّد لديّ نفور من كلّ ما هو جهد بدني، فتملّكني الغضب لأنني لم أشأ أن يلاحظ أحد هناك أيّ فتى من المدينة أنا. خصوصًا وأمّ جون تنظر إليّ بتينك العينين الزرقاوين المذهلتين. أنا بنفسي مَن أقرّر متى أتوجّع، وهل ينبغي أن أظهر ذلك أو أخفيه. وهكذا، دككت الألم ودفعته إلى قعر جسمي حتى لا

يفضحني وجهي، وبذراعين مرفوعتين، فردت السلك وبسطته حتى وصلت إلى آخر المرج. هناك، بكلّ هدوء ممكن، وضعت البكرة على الأرض العشبية التي جُزّت لتوّها، واثقًا من دقّة عملي. وبهدوء مماثل استقمت. حشرت يديّ في جيبيّ، وتركت كتفيّ تسترخيان. وبذلك الألم في رقبتي كما لو أن السكاكين تقطعها تقدّمت ببطء شديد لأنضمّ إلى الآخرين. عندما مررت بالقرب من أبي، رفع يده بدون تكلّف وربّت ظهري قائلاً بهدوء:

«أحسنت صنعًا.» وكان ذاك كافيًا. تلاشى الوجع ووجدتني متلهّفًا لأداء المهمة التالية.

أنهى باركالد جزّ القطاع الأول من الحقل، وقام بجولته الأولى في القطاع التالي، ثم وقف إلى جانب الفرس ينتظرنا لنكمل بقية العمل. كان الرئيس هناك، ووفقًا لأبي، هو من أولئك الناس الذين يبذلون أفضل ما لديهم في العمل وهم جالسون، ويقفون ليستريحوا. شرط ألا يستغرق الأمر وقتًا طويلاً، لأنه عندئذ سيجلس في جميع الأحوال. هذا إذا كان هناك أيّ شيء يحوجه إلى أخذ راحة. وهو شيء لم أقتنع به كثيرًا. فقيادة تلك الفرس ليست مضنية حقًا، إذ قامت سابقًا بهذا العمل عدّة مرّات، ويمكنها أن تؤديه دائمًا بعينين مغمضتين، ثم إنها ما لبثت أن سئمت الوقوف، وأبدت رغبتها في التحرّك. لكن باركالد لم يسمح لها بذلك لأنه رجل منهجي، وليس لديه أيّ نيّة في حشّ المرج كلّه دفعة واحدة. خطّته تقتضي الانتهاء من قطاع واحد أولاً، ثم من قطاع آخر، حتى والشمس الساطعة في السماء الصافية تحمل وعدًا باستمرارها على المنوال نفسه. كان النهار الحارّ قد تقدّم في الوقت كثيرًا إلى درجة أن بدأت ظهور قمصاننا تقطر بالعرق،

وكلّما رفعنا حملاً ثقيلاً سال العرق من جباهنا. في تلك الآونة كانت الشمس قد بلغت سمتها، ولا يكاد يلوح في الوادي أيّ ظلّ. والنهر الرقراق تمعّج ماضيًا في جريانه، وهديره يبلغ مسامعنا وهو يندفع نحو المنحدر تحت الجسر قرب الدكّان. جمعت ملء ذراعيّ من الأوتاد وحملتها لأوزعها على مسافات منتظمة على طول السلك الفولاذي، ثم عدت فارغ اليدين طلبًا للمزيد. وقام أبي وأحد رجال القرية بقياس المسافات، ثم استخدما عتلة لإقامة حفر في الأرض بين كلّ مترين، وجعلاها متناوبة من الجانبين على طول الخطّ. وبلغ مجموعها اثنين وثلاثين حفرة. تخفّف أبي من ثيابه مبقيًا على قميصه التحتاني؛ فتعاكس لونه الأبيض مع شعره الأسود ومع بشرته الملوّحة بالشمس وعضديه المرنين المصقولين، والعتلة الضخمة ترتفع ثم تهبط بثقل مصحوبة بصوت يشبه صوت الارتشاف من الأرض الرطبة. وأبي مثل الماكينة، أبي السعيد، أبي وأمّ جون في أذياله تغرز معه الدعامات في الحفر على امتداد المسافة إلى النقطة التي فيها البكرة، حيث يجب غرز إسفين جديد ليحافظ على ثبات الحاجز. لم أستطع الكفّ عن مراقبتهما.

توقّفتْ أمّ جون مرّة، وضعتْ الوتد أرضًا، مشت بضع خطوات مولية الحقل ظهرها، وأطرقت تنظر إلى النهر بكتفين مرتعشتين. عندئذ قوّم أبي ظهره وانتظر ويداه المحميتان بالقفازين تحيطان بالعتلة. ثم التفتت بوجهها المتّقد والمبقّع بالدموع. فابتسم أبي وهزّ لها رأسه بشعره المنسدل على جبينه، وحمل العتلة ثانية. أجابته بابتسامة رزينة. عادت أدراجها، أمسكت وتدًا، وبحركة التفافية غرزته جيدًا في الحفرة. وما لبثا أن واصلا العمل بالوتيرة السابقة نفسها.

لم يحضر جون أو أبوه، مع أنني كنت واثقًا من أنهما سيفعلان، لأنهما جاءا في السنة الفائتة. خطر لي أنه ربما منعتهما من ذلك أشغال أخرى؛ أشغال خاصة بهما. أو أنهما لم يستطيعا إرغام نفسيهما على المجيء. أما أن تستطيع هي فهذا في الحقيقة شيء استغربته. ثم كففت عن التفكير فيه عندما راقبتها لفترة وهي تشتغل. بل حتى أَمَلتُ أن يطلب أبي من ثلاثتهم مساعدتنا في قطع الخشب ونقله. لم أعتبر ذلك متعذّرًا، لأن والد جون يتمتع بخبرة أوسع في هذا المجال. ومن ناحية أخرى تساءلت، كيف يمكن أن تجري الأمور إذا استمرّا على ما هما عليه، و لم يستطع أحدهما النظر إلى الآخر؟

عندما انتصبتْ جميع الأوتاد بصفّ متسلسل عبر الحقل، صار لا بدّ من مدّ السلك الفولاذي على مستوى الفخذ بينها، وعقده من اليمين واليسار بالتناوب، ليستقيم في الوسط. تكفّل رَجُلا القرية بهذا العمل. كان أحدهما قصيرًا والآخر طويلاً. وتلك بدت تركيبة جيدة، لأنهما مارسا هذا العمل سابقًا. وبخفّة ومهارة نجحا في جعل السلك يمتدّ مستقيمًا ومشدودًا مثل وتر قيثارة من الأول حتى آخر وتد، حيث أُحكم عقده في النهاية حول الإسفين الذي دقّه باركالد في الطرف الآخر. وسرعان ما حمل كلّ منا مذراته وانتشرنا مثل أذرع مروحة محافظين على مسافة مناسبة بيننا، وشرعنا نجرف الحشيش من جميع النواحي نحو الحاجز. وفي الحال بدا سرّ طول عصا المِذراة جليًا. فقد وفّرت لنا مساحة قطرية ملائمة لنغطي مجتمعين المساحة كلّها، ما يعني أننا لن نخلّف قشّة واحدة وراءنا. بيد أن تحريك العصي إلى الأمام والوراء آلاف المرات جاء قاسيًا على أكّفنا، ولذلك اضطررنا إلى وضع قفازات واقية لنحمي جلدنا من التمزّق، ولنتجنّب التعرّض

للحروق واللسع بعد ساعة واحدة فقط. ما لبثنا أن ملأنا السلك الأول. بعضنا استخدم الأمشاط مع كثير من الدقّة والتوازن. وبعضنا ممن هم أقلّ خبرة، مثلي ومثل أبي، استخدموا أيديهم، وما فعلناه سار سيرًا حسنًا أيضًا، وشيئًا فشيئًا اصطبغ باطن أذرعنا العارية باللون الأخضر. بعد أن حُشي السلك الأول، مددنا سلكًا آخر حُشي بدوره، ثم سلكًا ثالثًا، إلى أن صار لدينا خمسة أسلاك بعضها فوق بعض. ثم الطبقة الأخيرة الأقلّ سماكة التي تهدّل منها العشب كأنه إفريز على الجانبين، حتى ينساب المطر عن الحزمة حينما ينهمر، فتبقى صامدة لشهور، ويبقى العلف سليمًا تحتها. قال باركالد إنها تكون تقريبًا بجودة تلك التي تجفّف في المستودع، هذا إذا أُنجز كلّ شيء بإتقان. وبقدر ما وسعني أن أحكم، لم أر أيّ خلل في عملنا. وأمامنا انتصبت الحزمة كما لو أنها هناك في تلك الأرض منذ الأزل، تضيئها الشمس وظلّها الطويل مسترسل وراءها، متناغمة مع جميع تضاريس الحقل، وقد تحوّلت في النهاية إلى مجرّد شكل، شكل بدائي، حتى وإن لم يكن هذا هو التعبير نفسه الذي استخدمته حينذاك. النظر إليها فقط منحني بهجة عظيمة. وما زلت اليوم أختبر الشعور نفسه عندما أنظر إلى صورة حزمة قشّ في كتاب، لكن ذلك بات من الماضي الآن. لا أحد اليوم في هذه المنطقة من البلاد، يصنع العلف بتلك الطريقة. اليوم، يقوم بهذا العمل رجل واحد على جرّاره، وتجفيف الحشيش يتمّ على الأرض، وهناك المجفّفات الآلية ومكابس الحزم ومكعبات هائلة الحجم ببياض البلاستيك من العلف النتن. وهذا، يجعل مشاعر البهجة تتسرّب مني ليحلّ محلّها الإحساس بمرور الزمن، الإحساس بأن ذاك حدث منذ أمد بعيد، والإحساس المباغت بتقدّم العمر.

٥

لم أتعرّف إليه في المرّات الأولى القليلة للقائي به. ففكري عندئذ لم يكن يصبّ في ذلك المجرى، ولماذا يفعل؟ درجت على الاكتفاء بهزّ رأسي له كلما مررت به وأنا أصطحب ليرا؛ هو خارج كوخه يكدّس الحطب تحت الإفريز، وأنا ماضٍ على الدرب وفي رأسي أشياء أخرى مختلفة كلية. حتى عندما ذكر لي اسمه، لم يرمز إلى شيء. غير أنني، بعدما عدت إلى سريري ليلة أمس بدأت أتساءل. هناك شيء ما في ذلك الرجل وفي الوجه الذي لمحته على ضوء مصباحينا المرتعشين. الآن أنا متأكّد تمامًا؛ لارس هو لارس، على الرغم من أن آخر مرة رأيته فيها كان في العاشرة من العمر، وهو الآن يتعدّى الستين. ولو ورد هذا في رواية ما، لاعتبرته مغيظًا. لقد قرأت كثيرًا في الحقيقة، لا سيّما في السنوات الأخيرة، وفي السابق أيضًا بشتى الوسائل الممكنة. وتفكّرت في ما قرأت. وهذا النوع من المصادفات يبدو في الروايات متكلّفًا، في الروايات المعاصرة على وجه التحديد. وأجد تقبّله صعبًا.

مثل هذه الأشياء لا تستهجن عند ديكنـــز. ولكن عندما تقرأ لديكنـــز، فأنت تقرأ قصصًا شعرية من عالم مندثر، حيث ينبغي على كلّ شيء فيه أن يترابط في النهاية مثل المعادلة، وحيث يُستعاد التوازن الذي اختلّ مرة، لتبتسم الآلهة من جديد. إنه نوع من السلوان ربما، أو الاحتجاج على عالم خرج عن مساره. الزمن تغير الآن، وعالمي لا يشبه ذاك العالم، وما انسجمت قطّ مع أولئك الذين يعتقدون أن وجودنا محكوم بالقدر. تراهم ينتحبون، يتبرأون من مسؤولياتهم ويلتمسون الرحمة. أعتقد أننا نشكّل حياتنا بأنفسنا، هذا على الأقلّ ما فعلته أنا، وفقًا لما تعنيه هذه الحياة لي. وأتحمل المسؤولية كاملة. مع ذلك، ها أنا الآن من بين جميع الأماكن التي كان في وسعي الانتقال إليها، أجدني قد حططت رحالي هنا بالذات.

لا أعني أن ذلك يغيّر شيئًا. إنه لا يغيّر خطتي لهذا المكان، لا يغيّر جوهر شعوري تجاه إقامتي فيه. هذا كلّه لا يزال كالسابق، وإني لمتيقّن من أنه لم يتعرف إليّ، وهكذا أريد للوضع أن يستمرّ. بيد أنني لا أنكر أن الأمر يحمل في طيّاته بعض التأثير.

خطّتي لهذا المكان بسيطة جدًا. إنه مستقرّي الأخير. أما كم سيستغرق ذلك من الوقت، فهو شيء لم أعره كثيرًا من التفكير. هنا، أعيش كلّ يوم بيومه. وأول ما ينبغي لي معالجته، هو التعامل مع الشتاء إذا سقط الكثير من الثلج. بيني وبين كوخ لارس مسيرة مائتي متر، وخمسين مترًا أخرى من بعده إلى الطريق الرئيسي. وبظهري هذا، لن أنجح في جرف الثلج من تلك المسافة كلّها. بل ولن أنجح حتى لو أن ظهري ما زال بعافيته السابقة. في هذه الحالة لن أجد وقتًا لأيّ شيء آخر.

جرف الثلج مهمّ، وكذلك وجود بطارية جيدة في السيارة في حال اشتدّ البرد. ثـــمّة ستة كيلومترات للوصول إلى تعاونية المنطقة. ومن الضروري أن يكون عندي كمية كافية من الحطب للموقد. لديّ في البيت مدفأتان كهربائيتان، لكنهما قديمتان، وأرجّح أنهما لا تبعثان الحرارة بقدر ما تستهلكان من كهرباء. كان يمكن أن أشتري جهازي تدفئة بدواليب، من النوع الحديث ذي الأنابيب المملوءة بالزيت، والذي تصله بالتيار الكهربائي مباشرة، وتجرّه حسب رغبتك. إلا أن وجهة نظري هي الاستغناء عن أيّ حرارة لا أستطيع توليدها بنفسي. عندما قدمت إلى هنا، حالفني الحظّ في العثور على كومة كبيرة من حطب البتولا القديم في المرحاض الخارجي. غير أنه ليس بالكافي. ثم إن جفافه الشديد سيجعله يحترق بسرعة. ولذلك قمت قبل بضعة أيام بقطع شجرة تنّوب ميتة، مستخدمًا منشار الزنجير الذي اشتريته. ومشروعي الحالي هو تقطيع الجذع وتقسيمه إلى أحجام مناسبة، وتكديسها فوق الحطب القديم قبل فوات الأوان، لأنني استهلكت إلى الآن كمية كبيرة من تلك الكومة.

منشار الزنجير الذي لديّ من ماركة جونسيريد. ولا أعني أنني أعتبرها الماركة الفضلى، لكن الجميع هنا يستعملونها. والرجل الذي اشتريتها منه في ورشة الماكينات في القرية قال إنهم لا يقبلون تسلّم أي ماركة أخرى إذا أحضرت له زنجيرًا مكسورًا بغية إصلاحه. منشاري ليس جديدًا، غير أنه فُحص بعناية مؤخرًا وزُوّد بزنجير جديد. وبدا البائع حاسمًا جدًا. هنا إذًا مملكة جونسيريد. ومملكة فولفو. لم أرَ في حياتي قطّ مثل هذا الكمّ من سيارات الفولفو في مكان واحد، سواء موديلات الرفاهية الحديثة أو موديلات أمازون القديمة. والأخيرة أكثر

من الأولى. بل رأيت أيضًا في سنة 1999واحدة من موديل PV القديم أمام مكتب البريد. وهذا لا ريب في أنه بيّن لي شيئًا عن المكان، إنما لست أعرف بالتحديد ما هو، ما عدا أننا على مسافة قريبة جدًا من السويد، ومن قطع الغيار الرخيصة. ولعل الأمر على هذا القدر من البساطة.

أركب السيارة وأنطلق، أنحدر وأمرّ بالنهر، أتجاوز كوخ لارس، ثم إلى الطريق الرئيسي عبر الغابة. من بين الأشجار على يميني أرى البحيرة تتلألأ، إلى أن تصبح فجأة خلفي. أجتاز أرضًا منبسطة من حقول صفراء على الجانبين انتهى حصادها منذ وقت طويل. وفوق هذه الحقول تحلّق أسراب كثيرة من الغربان، من غير أن تصدر صوتًا تحت ضوء الشمس. في الطرف الآخر من السهل، تستقرّ منشرة خشب عند ضفّة نهر أوسع من النهر الذي أراه من نافذة بيتي، لكنه يصبّ في البحيرة نفسها. نهر استخدم سابقًا لنقل الخشب، ما يفسر وجود المنشرة هناك، وإن مضى على ذلك وقت طويل. الآن، يمكن أن تُقام المنشرة في أي مكان، لأن الخشب صار يُنقل عبر الطرقات. ومصادفة إحدى الشاحنات بمقطورتها المثقلة بالحمولة عند منعطف طريق ريفي ضيّق ليست بدعابة. فسائقوها يقودون كالمجانين، ويستخدمون الأبواق بدلاً من المكابح. قبل بضعة أسابيع فقط اضطررت في اللحظة الأخيرة إلى الانحراف نحو خندق قناة، عندما أرعدت البهيمة الهائلة وهي تتجاوزني. أعتقد أنني آنذاك أغمضت عينيّ لثانية ظنًّا مني أن ساعتي حانت. إلا أن خسائري اقتصرت على تهشّم زجاج مؤشّر السيارة الأيمن نتيجة اصطدامه بأرومة شجرة. جلست هناك

فترة طويلة، وجبيني على المقود. كان الوقت قارب الليل، والمحرّك قد توقّف، مع أن المصابيح بقيت مضاءة. حينما رفعت رأسي عن المقود، أبصرت أمامي بوضوح وشقًا يبعد عن سيارتي حوالي خمسة عشر مترًا. وعلى الرغم من أنني لم أشاهد وشقًا من قبل، عرفت ماذا رأيت. وفي ذلك المساء الغارق بالسكون من حولنا، لم يلتفت الوشق لا يمينًا ولا شمالاً، مشى قدمًا فقط، بليونة، من غير أي هدر لطاقته، واثقًا من نفسه. لا أتذكّر متى شعرت آخر مرة بنبض الحياة نفسه الذي شعرت به عندما قدت السيارة إلى الطريق ثانية واستأنفت السير، وكلّ ما فيّ تحت جلدي متوتّر ومرتجّ.

في اليوم التالي، أخبرت الناس في الدكّان عن الوشق. قالوا يُحتمل أنه مجرّد كلب. لم يصدّقني أحد. لا أحد ممن التقيت يومها سبق له أن رأى الوشق، فلماذا أراه أنا، ولماذا أُخصّص بمثل هذا الحدث و لم يمض على إقامتي هناك أكثر من شهر؟ لو كنت مكانهم لفكّرت مثلهم. هذا لا يلغي أنني قد رأيت ما رأيت، فصورة السنّور البري مطبوعة في مكان ما في داخلي، ويمكنني استحضارها في ذهني وقتما أشاء. وأتمنى كثيراً أن أراه ثانية في يوم ما، أو حتى في ليلة ما. هذا سيسرّني حتمًا.

أركنُ سيارتي أمام محطّة البترين. مشكلة المؤشّر ما زالت على حالها. لم أغيّر بعد بيته الزجاجي أو أستبدل لمبته، وقد تدبّرت أمري بدونه إلى الآن. لكن المساء بدأ يزداد حلكة، فضلاً عن أن الاستغناء عنه مخالف للقانون. لذا، أدخل وأتحدّث إلى الرجل في المرآب. يلقي نظرة من نافذة الباب الانزلاقي ويقول إنه سيغيّر اللمبة في الحال، وسيرسل في طلب بيتها الزجاجي من خردة السيارات.

«لا داعي لشراء شيء جديد لسيارة قديمة،» يقول. وهو بالتأكيد

محقّ. فعمر سيارتي عشر سنوات، من نوع نيسان ستيشن واغن، ومع أن قدراتي المالية تسمح لي بشراء سيارة جديدة، رأيت أنني إذا فعلت ذلك إضافة إلى شراء البيت، قد أنقص كثيرًا من مواردي، فعدلت عن الفكرة. في الواقع، فكّرت في سيارة من ذوات الدفع الرباعي، لأنها عملية هنا. ثم وجدتني أجزم أن مثل هذه السيارة فيها شيء من التباهي والنعمة المحدثة، وانتهى بي الأمر إلى سيارتي الحالية، ذات الدفع الخلفي، مثل أيّ سيارة أخرى قدمها في السابق. وبالطبع، اضطرّتني إلى اللجوء إلى الميكانيكي بسبب مشاكل شتى؛ منها على وجه الخصوص موّلدها الكهربائي المستهلَك. وفي كلّ مرة يردّد على مسامعي الشيء نفسه، ويرسل في طلب قطع غيار من تاجر الخردة. وهذا لا يكلّف إلا عُشر تكلفة القطع الجديدة، وأظنّ أيضًا أن السعر الذي يطلبه زهيد جدًا. في أثناء انكبابه على العمل يصفّر، ومذياع ورشته مضبوط دائمًا على قناة الأخبار، وسياسته المالية مدروسة جيدًا. تربكني مودّته وحفاوته، لأنني في الحقيقة توقّعت منه شيئًا من الإعراض، لا سيّما أنني لا أقود سيارة فولفو. ولكن، لعلّه هو أيضًا ليس من هنا.

أترك السيارة في محطّة الوقود وأمشي مرورًا بالكنيسة وتقاطع الطريق إلى الدكّان. ما أفعله هو أمر غير اعتيادي، فالجميع هنا يستخدمون سياراتهم دائمًا، بغضّ النظر عن وجهتهم أو كم تبعد عنهم. التعاونية على سبيل المثال تقع على بعد مئة متر، وأنا الوحيد الذي يمشي إليها من موقف السيارات. أشعر أنني محطّ الأنظار، وأُسرّ بولوج الدكّان.

أبادل الناس التحيّة عن يميني ويساري. الناس هنا ألفوني، ويعرفون

أن مستقرّي بينهم نهائي، وأنني لست واحدًا من أولئك السيّاح الذين يحتشدون بسياراتهم الفخمة في أعياد الفصح أو الصيف ليصطادوا السمك نهارًا، ويلعبوا البوكر ويحتسوا المشروب مساءً. استغرقوا بعض الوقت قبل أن يبدأوا في طرح الأسئلة بحذر وأنا أقف في الطابور أمام الصندوق. والآن يعرف الجميع من أنا وأين أسكن. يعرفون عن حياتي المهنية، وكم أبلغ من العمر، وأن زوجتي توفّيت قبل ثلاث سنوات في حادث نجوت منه بصعوبة، وأنها ليست زوجتي الأولى، وأن لي ابنتين راشدتين من زواج سابق، وأن لهما أولادًا. أخبرتهم بكلّ ذلك، أخبرتهم حتى كيف أنني عزفت عن العمل بعدما ماتت زوجتي، فتقاعدت وشرعت أبحث عن مكان جديد عليّ كليًا لأقيم فيه، وأنني عندما وجدت البيت الذي أسكنه الآن سعدت كثيرًا. يروقهم سماع هذا، على الرغم من أن الجميع يقول إنه كان يكفيني أن أسأل أيّ شخص هنا ليخبرني عن حالة البيت، وأن الكثير من الناس اهتمّوا به لموقعه الممتاز، ولكن لا أحد منهم تشجّع على شرائه، بسبب ما يحتاجه من ترميم قبل أن يصبح صالحًا للسكن. فأردّ عليهم بقولي من الجيّد أنني لم أعرف حينها، وإلا لعدلت عن شرائه، ولَمَا اكتشفت أن السكن فيه ممكن إذا لم أتطلّب الكثير دفعة واحدة، بل أنجزت ما ينبغي إنجازه على دفعات. وهذا يناسبني بالفعل، أقول لهم، لديّ متسع من الوقت، لأنني لن أغادر إلى أيّ مكان آخر.

يروق للناس أن تخبرهم عن الأشياء باعتدال، وبلهجة متواضعة وحميمة. طريقتك هذه تولّد لديهم الإحساس بأنهم يعرفونك، ولكنهم في الحقيقة لا يعرفونك. هم يعرفون عنك، لأنه سُمح لهم بالاطلاع على الحقائق، وليس المشاعر، ولا ما هو رأيك في أيّ شيء، ولا

كيف أن ما جرى لك والقرارات التي اتخذتها بسببه قد حوّلاك إلى ما أنت عليه. ما يفعلونه هو أنهم يسدّون الثغرات بمشاعرهم الخاصة وآرائهم وافتراضاتهم، ويصوغون لك حياة جديدة لا تكاد تمتّ إلى حياتك بصلة، وهذا كفيل بتحريرك من الشرك. لا أحد يستطيع الوصول إليك، ما لم تسمح له أنت بذلك. حسبك أن تتصرّف بتهذيب وتبتسم مبقيًا وساوسك بمنأى عنهم، لأنهم سيأتون على ذكرك مهما تملّصت منهم. إنه شيء حتمي، وأنت بنفسك ستتصرّف مثلهم في حالة مشابهة.

لا أريد شراء حاجيات كثيرة، ليس أكثر من رغيف خبز وشيء آكله معه. و لم يستغرق ذلك وقتًا. صارت سلّة مشترياتي شبه الفارغة تدهشني، ويدهشني أن ألاحظ اكتفائي الآن، وقد بتّ وحدي، بحاجات محدودة. تجتاحني بغتة نوبة سويداء عديمة المغزى. وأشعر بعينيّ أمينة الصندوق على جبيني بينما أبحث عن النقود لأدفع لها، إنه الأرمل؛ هذا ما تراه، إنهم لا يدركون أيّ شيء آخر، وعدم إدراكهم لا يضيرني في جميع الأحوال.

«هاك، تفضّل،» تقول بصوت رخيم ناعم كالحرير، وتناولني الباقي، فأجيب:

«شكرًا جزيلاً،» وأنا، أنا بحقّ الله، على حافّة ذرف الدموع. فأسارع إلى الخروج بكيس مشترياتي وأجتاز الطريق إلى محطّة الوقود. لقد حالفني الحظّ، أقول لنفسي، إنهم لا يفهمون شيئًا.

أرى أن الرجل قد غيّر لمبة المؤشّر. أضع كيسي على مقعد الراكب، وأمشي بين مضخّات البترين قاصدًا المحل. تبتسم لي زوجته من وراء الطاولة.

«مرحبًا،» تقول.

«مرحبًا،» أردّ. «ما ثمن اللمبة؟»

«ليس بالكثير، لِم العجلة؟ ما رأيك في فنجان قهوة؟ أولاف يرتاح قليلاً،» تقول مشيرة بإبهامها إلى باب الغرفة الخلفية للمحلّ. من الصعب أن أرفض. أتجه نحو مدخل الباب المفتوح بتردّد وألقي نظرة إلى الداخل. هناك أرى أولاف الميكانيكي جالسًا على كرسيّ أمام شاشة كومبيوتر تعرض أعمدة طويلة من أرقام مضيئة. ولا واحد منها أحمر اللون بقدر ما أستطيع أن أستشف. إحدى يديه تمسك فنجان قهوة يتصاعد منه البخار، وبالأخرى لوح شوكولاته. لا بدّ أنه يصغرني بعشرين سنة. بيد أنني ما عدت أفاجأ مطلقًا عندما أكتشف أن الرجال البالغين دوني في العمر.

«اِجلس واسترخِ قليلاً،» يقول وهو يصبّ القهوة في كوب من البلاستيك ويضعه عَلى الطاولة أمام كرسيّ شاغر، ويشير لي لأتقدّم بينما يستند بكلّ ثقله على كرسيّه. وفي حال أنه معتاد النهوضَ في وقت باكر مثلي، وهذا ما أفترضه، فلا شكّ في أنه قد اشتغل لوقت طويل، وهو بالتأكيد منهك. أَجلس على الكرسي.

«كيف تجري الأمور في القمّة؟» يقول، «هل استقرّ بك المقام؟» والقمة هي اسم داري، لأنها تطلّ من علٍ على البحيرة.

«ذهبت إلى هناك مرتين لأتفقّد المَكان،» يردف. «ودرست فكرة تقديم عرض شراء، ففيه متسع لتصليح السيارات، لكن البيت يحتاج إلى الكثير من الترميم، فعدلت عن رأيي. أحبّ العمل في مجال السيارات، لا البيوت. لعل الأمر عكس ذلك بالنسبة إليك؟» وفجأة نظرنا معًا إلى يديّ. إنهما لا تبدوان مثل يدي صنائعي.

«ليس تمامًا،» أجيب. «لست ماهرًا في أيّ منهما، إنما مع الوقت سأنجح في تحسين وضع البيت. وقد أحتاج إلى يد المساعدة بين حين وآخر.»

ثـــمّة شيء أفعله، لم أُطلع أحدًا عليه قطّ. وهو أنني كلّما اضطررت إلى القيام بشيء عملي، بمعزل عن المهامّ اليومية العادية، أغمض عينيّ، وأتخيّل كيف يمكن أن ينجزه أبي، أو كيف أنجزَه وأنا أراقبه، ثم أحاكي تصرفاته إلى أن أنغمس في الإيقاع الملائم، فتكشف المهمّة عن نفسها وتغدو واضحة المعالم. هذا في الواقع ما دأبت على فعله لزمن أبعد من أن أتذكّره، كما لو أن السرّ يكمن في طريقة تناغم الجسم مع المهمّة التي أمامه بتوازن معيّن لحظة استهلاله لها؛ مثل خبطك للوح الغطس في قفزة عالية، وتكهّنك قبل ذلك بعظمة الجهد الذي يلزمك أو قلّته. ويكمن أيضًا في التقنية الموجودة دائمًا في جميع الأعمال؛ أي التسلسل من شيء إلى شيء، في سياق مدفون في باطن كلّ جزء من أجزاء المهمّة. كأن ما تنوي القيام به هو في الحقيقة موجود مسبقًا في شكله النهائي. وأقصى ما على الجسم فعله حينما يهمّ بالتحرّك أن ينحّي حجابًا، ليصبح كلّ شيء مقروءًا من قِبل الشخص المراقِب. أنا هو الشخص المراقِب، والرجل الذي أراقبه، أراقب حركاته ومهاراته، رجل لا يتعدّى الأربعين؛ الرجل الذي كان عليه أبي عندما رأيته للمرة الأخيرة وأنا في الخامسة عشرة، قبل أن يختفي من حياتي إلى الأبد. وبالنسبة لي، لن يتجاوز هذه السنّ أبدًا.

لعلّ من الصعب شرح ذلك كلّه للميكانيكي الودود، فأكتفي بقولي:

«كان أبي رجلاً عمليًا، وتعلّمت الكثير منه.»

«الآباء، لا غنى عنهم،» يجيب. «كان أبي مدرّساً في أوسلو. علّمني قراءة الكتب، وهذا تقريبًا كلّ شيء. ليس في وسعك أن تقول عنه إنه كان عمليًا، لكنه رجل طيّب، حلو المعشر. توفّي قبل أسبوعين.»

«لم أكن أعرف، أنا آسف.»

«كيف لك أن تعرف؟ كان مريضًا منذ وقت طويل، ولعلّ هذا أفضل له. بيد أنني أفتقده، نعم أفتقده بالفعل.»

أشعر، بينما هو جالس هناك أمامي، أنه يفتقد أباه فعلاً؛ يفتقده ببساطة وصراحة. أتمنّى لو أن الأمر عندي بهذه السهولة، أن تفتقد أباك فقط، وأن تقف عند هذا الحدّ.

أنهض. «يجدر بي الانطلاق،» أقول، «بيتي بانتظاري. عليّ متابعة العمل فيه، فالشتاء على الأبواب.»

«نعم،» يجيب مبتسمًا. «إن أربكك شيء لا تتردّد في السؤال، نحن دائمًا حاضرون.»

«هناك شيء بالفعل؛ الطريقُ حتى البيت، تعلم أنه طويل جدًا. عندما يسقط الثلج سأعاني في جرفه وحدي، ولا أمتلك جرّارًا.»

«لا مشكلة، يمكنك الاتصال بهذا الرجل،» يقول أولاف الميكانيكي وهو يدوّن اسمًا ورقمًا على ورقة ملاحظات صفراء لاصقة. «هو أقرب جيرانك ممن يملكون جرّارًا. وهو يجرف الثلج عن طريقه عادة، ويستطيع بسهولة الاهتمام بطريقك. إنه مزارع، وليس لديه مكان يقصده في الصباح سوى جرف الثلج عن طريقه ذهابًا وإيابًا، لا أعتقد أنه سيمانع زيادة المساحة، إنما أرجّح أن يطلب مقابلاً ماديًا. أظنّ أن خمسين كرونر في كلّ مرة ستفي بالغرض.»

«إنه أمر بديهي. لن يزعجني دفع هذا المبلغ. شكرًا على المساعدة وعلى القهوة.»

أعود إلى المحلّ وأدفع ثمن لمبة المؤشّر. فتبتسم زوجة الميكانيكي وتقول، «أتمنّى لك يومًا سعيدًا.» وبذلك أعود أدراجي لأركب سيارتي وأنطلق إلى البيت. ورقة الملاحظات الصفراء الملصقة بمحفظتي جعلت المستقبل القريب أقلّ تعقيدًا. ينتابني شعور بالراحة والاستكانة وأفكّر: أهذا كلّ ما يستلزمه الأمر؟ حسنًا، يمكن للشتاء أن يقبل الآن.

أرجع إلى القمّة، وأركنُ سيارتي أمام شجرة الفناء؛ شجرة بتولا شبه مقوّرة تقريبًا قد تنهار في أي وقت إذا لم أهتمّ بها سريعًا. أقصد المطبخ بكيس مشترياتي، أملأ الإبريق بالماء وأشغّل المرشّح الكهربائي لإعداد القهوة. أذهب لأحضر منشار الزنجير من المستودع، وآخذ معه مبردًا صغيرًا مستديرًا وزوجًا من واقيات الأذنين تباع مع المنشار. أجلب من المرآب البترين وزيت المحرّكات، وأضع كلّ شيء على العتبة الصخرية أمام الباب تحت الشمس التي زاد دفئها قليلاً بتوسّطها السماء. أدخل البيت ثانية، أحضر الترمس وأقف قرب الرفّ منتظرًا انتهاء دورة مرشّح القهوة. بعدئذ، أملأ الترمس بالقهوة الساخنة وأرتدي ملابس شغل سميكة وأخرج من جديد. أقتعد العتبة الحجرية وأبدأ في شحذ المنشار بالمبرد بهدوء وانتظام، لتغدو جميع أسنانه حادّة ولامعة. لا أدري أين تعلّمت فعل هذا. أفترض أنني رأيته في فيلم؛ فيلم وثائقي عن الغابات العظيمة، أو فيلم مغامرات تجري أحداثه في الأدغال. يمكن أن تتعلّم الكثير من الأفلام إذا تمتّعت بذاكرة قويّة، ففيها تراقب الناس يقومون بأعمال اعتادوا القيام بها دائمًا. الأفلام الحديثة ليس فيها الكثير من الأداء الواقعي. فيها أفكار فقط. أفكار

هزيلة، وشيء يدعونه الفكاهة، كلّ شيء ينبغي له الآن أن يثير الضحك. وأنا لا أحب التسلية، ما عاد لديّ متّسع من الوقت لها.

في جميع الأحوال، لم أتعلم طريقة سنّ منشار الجرير من أبي، لم أراقبه وهو يفعل ذلك، ولا أستطيع تقليده مهما حاولت التنقيب في ذاكرتي. فالمنشار الفردي لم يكن قد وصل إلى الغابات النرويجية في سنة 1948. آنذاك، لم يتوافر سوى عدد قليل من الماكينات الثقيلة التي تتطلّب خمسة رجال لحملها، أو يتمّ نقلها باستخدام الأحصنة. لا أحد في ذلك الحين سمحت له إمكانياته المادية باقتنائها. ولذلك، عندما كان أبي بصدد تقطيع خشب أرضنا في ذات صيف بعيد، أنجز العمل بالأساليب المتّبعة في تلك المناطق: عدّة رجال لديهم منشار قطري، وبلطة، ومن حولهم نسيم عليل، وفرس مدرّب، وسلسلة قطر إلى النهر حيث توضع أكوام الخشب على ضفّته جاهزة وجافّة بانتظار أن تُنقش علامة مالكها على كلّ جذع منها. وبعد أن تُنقل جميع الجذوع المقطوعة إلى الأسفل، وبعد تقشير لحائها قدر الإمكان، تُدحرج إلى الماء بخطافات طويلة بإشراف رجلين يقفان عند طرفي الكومة. ثم تعلو صيحات وداع تتردّد عبر النهر بكلمات قديمة جدًا ما عاد يعرف أحد معناها. ويقترن بتلك الصيحات صوت ارتطام الخشب بالماء، ليمضي برفق مع وجهة النهر، قبل أن يدفعه التيّار إلى رحلته الموفقة!

أقوم من على العتبة الصخرية والمنشار المسنون بيدي. أضعه على طرفه وأفكّ سدّادتي الخزانين. أسكب البنـــزين في وعائه وأملأ خزّان الزيت، وأعيد وضع السدّادتين بإحكام. أصفّر لليرا، فتأتي جريًا ملبية النداء وقد تخلّت عن مهمّة حفر جدّية وراء البيت. أتأبّط الترمس

وأمشي إلى شفا الغابة حيث شجرة التنّوب الميتة تستقرّ باسقة وثقيلة وشبه بيضاء بين نبات الخلنج، خالية من أيّ أثر لذلك اللحاء الذي غلّف في يوم ما جذعها. أنجح في تشغيل المنشار بعد سحبتين سريعتين لسلكه. أعدّل وضعية الصمّام على نحو مناسب، وأترك السلسلة تدور في الهواء. يتعالى الهدير في الغابة، أضع واقيتي الأذنين، وأدع نصل المنشار يغور في الخشب. تتطاير النشارة على بنطلوني، ويرتجّ جسمي بأكمله.

٦

كان هناك عبير خشب مقطوع لتوّه. انتشر العبير من جانب الدرب إلى النهر، امتزج بالهواء وانجرف فوق الماء واخترق كلّ شيء في كلّ مكان، وجعلني خدرًا ودائخًا. كنت في قلب ذلك القِوام. تعبق بي رائحة الصمغ، تعبق ملابسي برائحة الصمغ، يعبق شعري، ومن جلدي يفوح أريج الصمغ وأنا مستلقٍ في سريري ليلاً. نمت على تلك الرائحة، وأفقت من نومي بها، ولازمتني طوال اليوم. كنت غابة. أخوض حتى ركبتيّ، حاملاً بلطتي، بين طرابين التنّوب وأقطع الأغصان كما علّمني أبي، أقرب ما يمكن إلى الجذع لئلا يبقى أي نتوء يعيق أداة نزع اللحاء، أو يعلق بشيء، أو يجرح قدم الشخص الذي قد يضطرّ إلى القفز فوق الجذوع عندما يتشابك الخشب الطافي ويسدّ النهر. دأبت على التلويح ببلطتي مرة يمينًا ومرة يسارًا بوتيرة إيقاعية. كان العمل شاقًا، وبدا الحال كما لو أن كلّ شيء يردّ لي الضربات من جميع الجهات، ولا شيء يقبل الانقياد طوعًا. ذاك لم

يضايقني. اشتغلت وأنا غير واعٍ أنني استنفدت طاقتي، حتى اضطر الآخرون إلى إيقافي بالقوة. أمسكوني من كتفيّ وأجلسوني على أرومة شجرة وقالوا إن عليّ الجلوس هناك والارتياح قليلاً. بيد أن الصمغ كان عالقًا بمؤخرة بنطلوني، وثمة وخز برجليّ، فنهضت عن الأرومة، يصاحب نهوضي صوت تمزّق، وانقضضت على بلطتي. تحت الشمس الحارقة رأيت أبي يضحك، فقد بدوتُ مثل رجل نشوان.

كان أبو جون هناك. وجاءت أمّ جون أيضًا في بعض فترات النهار. تحمل سلّة طعام وتصعد إلى الدرب من القارب بشعرها الشديد الشقرة المتعاكس مع خضرة الأشجار الداكنة. وانضمّ إلينا رجل مفتول العضلات يدعى فرانز؛ في أسفل ساعده الأيسر وشم نجمة، يسكن في بيت صغير إلى جانب الجسر يتيح له مراقبة مجرى النهر يوميًا على مدار السنة. وهذا جعله يعرف كلّ ما ينبغي معرفته عمّا يحدث في الماء. وكان هناك أبي وأنا والفرس برونا. أما جون فلا. قالوا إنه رحل إلى إنبغدا بالحافلة بعد بضعة أيام من الجنازة. غير أنهم لم يفصحوا عما يفعله في إنبغدا، وأنا لم أستفسر. ما أقلقني هو عدم تيقّني من أنني سأراه ثانية في يوم ما.

واظبنا صباحًا على البدء بعد السابعة مباشرة، وواصلنا العمل حتى المساء، حيث لا نلبث أن نتهاوى على الأسِرّة، وننام كالأموات إلى أن نستيقظ مع طلوع الضوء ونعاود الكرّة. في مرحلة ما، بدا الحال كما لو أننا لن نصل مطلقًا إلى آخر تلك الأشجار. قد تظنّ وأنت تمشي بينها أن ما يحيط بك إنما هو غابة صغيرة جميلة، ولكن حينما تنوي قطع كلّ شجرة تنّوب هناك بمنشار يدوي، وتبدأ في العدّ، فليس أسهل من أن تتراخى عزيمتك وتغدو متأكّدًا من أنك لن

تنهي العمل أبدًا. بيد أنك عندما تصبح في قلب الدوّامة، وتتناغم مع الإيقاع المناسب، لا يصبح للبداية أو النهاية أيّ معنى؛ ليس وأنت هناك، ولا حينذاك. الأمر الوحيد الجذري هو استمرارك إلى أن يندمج كلّ شيء في نبض واحد، يخفق ويعمل بقوّته الذاتية. ترتاح في الوقت المناسب، ثم تعود إلى العمل، وتأكل ما يسدّ حاجتك من غير إفراط، وتشرب ما يرويك من غير إفراط، وتنام جيدًا عندما يحين الوقت، ثماني ساعات في الليلة، وساعة في النهار على الأقلّ.

أنا شخصيًا نمت في النهار. وأبي نام، ونام أبو جون وفرانز أيضًا. أم جون فقط لم تكن تنام. فعندما يحين وقت الراحة ونستلقي بين نبات الخلنج، كلّ منا تحت شجرته، ونغمض أعيننا، تقصد القارب، وتجدّف ميمّمة بيتها لتهتمّ بشؤون لارس. وحينما نستيقظ نجدها قد عادت، أو نسمع صوت مجاديف القارب من النهر ونعرف أنها في طريقها إلينا. غالبًا ما جلبت لنا معها أشياء نحتاجها؛ أدوات طلبناها، أو وجبة طازجة في السلّة، أو شيئًا خبزته نستمتع بأكله. لم أستطع أن أستوعب كيف نجحت في تدبّر أمرها، لأنها جدّت في العمل مثل أيّ رجل. وكلّما أقبلت نحونا، رأيت أبي المضطجع بعينين نصف مغلقتين يتأمّلها، وهذا ما فعلته أنا أيضًا. لم أستطع منع نفسي. ولأننا فعلنا ذلك، حاكى أبو جون فعلنا، ناظرًا إليها بطريقة تختلف عما اعتدت أن ألاحظه يفعل في السابق، ولعلّ هذا ليس مستغربًا كثيرًا في النهاية. غير أنني لا أظنّ أننا رأينا فيها الشيء نفسه. لأن ما رآه أحرجه، وبالتأكيد أدهشه. أما ما رأيته أنا فجعلني أرغب في قطع أطول شجرة تنّوب، وأراقبها تهوي وتسقط بجنون ودويّ يلعلع صداه في الوادي بأكمله، ثم أشذّبها وحدي في وقت قياسي، وأقشر لحاءها

وحدي بلا توقّف مع أن هذا من أصعب الأعمال، وأجرّها إلى ضفّة النهر بيديّ العاريتين وبظهري من غير الاستعانة بحصان أو شخص آخر، وأطرحها في النهر بهذه القوّة التي اكتشفت فجأة أنني أمتلكها، فيتطاير رذاذ الماء ويرتفع ليضاهي بارتفاعه ارتفاع بيوت أوسلو.

لم يكن لديّ أيّة فكرة عما جال في خلد أبي، ولكن هو الآخر بذل جهدًا مضاعفًا في حضور أمّ جون، وهي بالطبع غالبًا ما كانت معنا. وهكذا استحوذ علينا التعب أنا وهو مع مرور الوقت. ذاك لم يمنعه من الضحك والمزاح، وأنا بدوري حذوت حذوه. حلّقنا عاليًا ونحن نجهل السبب، أو على الأقلّ أنا لم أعرف. حتى فرانز بدت معنوياته عالية، وبعضلاته المفتولة وضحكاته المجلجلة ما انفكّ يرسل الطرفة تلو الأخرى وهو يلوّح بفأسه. ومرّة حينما تصرّف باستهتار واعترض طريق شجرة تهوي، وانتزع غصنٌ قبّعته من على رأسه، ألقى فأسه أرضًا ودار حول نفسه، على وجهه ابتسامة عريضة وذراعاه ممدوتان مثل راقصٍ وصاح:

«مزجت دمي بالقدر، وذراعاي مفتوحتان ترحيبًا بما قد يأتي!»

لحظتها استطعت أن أتخيّله واقفًا في وجه الشجرة الثقيلة المتهاوية، وهي تكاد تتفجّر من غزارة نسغها المسكِر، ليثبّتها حيث هي بيديه العاريتين، والدم الأحمر يتدفّق من وشم النجمة الحمراء على ساعده. أما أبي الذي عجز عن مقاومة الابتسام، فاكتفى بحكّ ذقنه وهزّ رأسه.

«أبوك يجازف،» قال لي فرانز في فترة الاستراحة. كنت جالسًا على صخرة عند النهر أفرك كتفيّ المتيبستين وأتأمّل صفحة الماء. ثم

وجدته إلى جانبي يقول: «أبوك يجازف بقطع الأشجار في منتصف الصيف وإرسالها في النهر رأسًا. إنها مفعمة بالنسغ، كما لاحظتَ بالتأكيد.» نعم، لاحظتُ ذلك قطعًا. وهذا جعل العمل أشقّ، لأن وزن الجذع بما فيه من نسغ يتضاعف في ذلك الوقت في السنة، وبروما العجوز لم تستطع جرّ الكمية نفسها التي تجرّها في العادة.

«قد تغرق الحمولة بسهولة. ومستوى ارتفاع الماء ليس شيئًا يشجعك على إذاعة الخبر، وهو يزداد انخفاضًا. لن أضيف المزيد. وإذا شاء أن نفعل ذلك الآن سنفعل. هذا لا يضيرني. فأبوك هو المعلّم هنا.»

كان المعلّم بالفعل. وما سبق لي أن رأيته هكذا من قبل؛ لم أره وهو يتعامل مع الراشدين لإنجاز عمل ما، فارضًا عليهم سلطته، ومرغمًا إياهم على انتظار تعليماته ليدلّهم على طريقته التي يريد أداء العمل وفقها، وتقبّلهم لما يمليه عليهم كأنه أكثر الأمور بداهة في العالم، مع أنهم أوسع منه معرفة وخبرة في هذا المجال. وحتى ذلك الحين، لم يخطر لي مطلقًا أن أحدًا غيري يمكن أن يتعامل معه على ذلك النحو ولا يمانع. لم يخطر لي أن الأمر هو شيء يتعدّى علاقة الأب بابنه ويختلف عنها.

كانت كومة الخشب في النهر تكبر وتكبر حتى ما عدنا نستطيع الوصول إلى قمّتها لنضع المزيد من الجذوع. فأعددنا كومة جديدة. كانت بروما تنحدر من مرتفعات غابتنا، وتستدير جانبًا لتقف في وضعية مناسبة عند الضفّة حيث نعمل. من حولنا تتردّد أصداء صلصلة السلاسل، والشمس تتلألأ فوق الماء، وبروما داكنة وساخنة

ورقع كبيرة من جسمها تنضح بالعرق؛ تفوح منها رائحة لاذعة لا تنبعث إلا من الخيول، ولا تشبه أيّ شيء آخر اختبرته في المدينة. إنها رائحة جميلة، ما فتئت أقول لنفسي، وكلّما وقفتْ هامدة بعد إحدى دوراتها، تسنّى لي أن أريح جبيني على خاصرتها، لأستنشق تلك الرائحة وأنا أحسّ بشعرها الخشن يحتكّ بجلدي. لم تضطرنا إلى قيادتها أو اصطحابها، لأنها بعد بضع جولات عرفت المحيط جيدًا. مع ذلك، رافقها أبو جون طوال الوقت، مرخيًا اللجام. أما أبي فلبث عند النهر مستعدًا، حاملاً كُلاّبًا طويلاً كأنه رمح في لوحة مباراة من عهد الفروسية الإنجليزي. ومعًا، ما انفكّا يجذبان الجذوع ويرفعانها إلى أعلى ما يمكنهما. هذه المهمة التي تميّزت بالسهولة في البداية، غدت أصعب فأصعب فأكثر صعوبة. لكنهما لم يستسلما. وشيئًا فشيئًا بات واضحًا أنهما يتنافسان. وحينما همّ أحدهما بالاستسلام، مقرّرًا أن لا مجال لرفع المزيد، أصرّ الآخر على الاستمرار.

«هيا!» زعق والد جون، فغرز كلّ منهما كلاّبًا في طرف الجذع، ثم صاح أبي:

«ارفع!»

فردّ والد جون وهو لا يكاد يستطيع ضبط نفسه:

«اللعنة! ارفع واسحَب بحقّ الجحيم!» وأدركت ساعتها أن ما يرمي إليه هو تحدّي سلطة أبي. أحكما سيطرتهما على الجذع. جذباه وأرجحاه حتى تصبّب عرقهما، وبدأ لون ظهري قميصيهما يقتم بالتدريج، ونتأت عروق جبهتيهما ورقبتيهما وأذرعهما زرقاء وضخمة كالأنهار في خريطة العالم: نهر ريو غراند، ونهر براهمابوترا، والنيل. في النهاية ما عاد ثـــمّة مجال للاستمرار، ولا مغزى فيه. كان

الحلّ الأمثل أن نعدّ كومة جديدة، هي في جميع الأحوال الأخيرة، لأننا واظبنا على العمل أسبوعًا كاملاً، وصار بمقدورنا أن نرى نهاية لكدّنا سواء في القطع أو التكديس. ما أنجزناه، وكمّية محصول الجذوع المقشرة، المستقرّة عند الضفّة بصفرتها اللامعة، بدت لي هائلة حتى استصعبت تصديق أنني شاركت في ذلك العمل. لكنهما رفضا التوقّف. صمّما على رفع جذع آخر، ثم آخر. أو بالأحرى ما انفكّا يتبادلان الأدوار في الرفض. دحرجا الجذوع على جذعين وُضعا معاكسين للكومة بزاوية جدّ حرجة. كان يجدر بهما أن يستعينا بالحبال، وأن يقفا على قمّة الكومة، ويدلّيا الحبال، ويعقداها حول الجذع، ويشدّاها ثانية كأنها بكرة، لتقسيم ثقله حينما يُرفع ويوضع في مكان مناسب. أوضح لي فرانز كيف يمكن القيام بذلك. بيد أنهما لم يفعلا هذا، بل اكتفيا باستخدام الكلاّبات عند أطراف الجذوع، وازدياد حجم الكومة جعل الأمر خطرًا، لعدم وجود موطئ قدم جيد، ولأنه كان من المستحيل عليهما عمليًا الانسجام في عمل مشترك.

كاد وقت الاستراحة يمرّ. من مكان قريب من أعلى الدرب، سمعت فرانز يصيح بصوت فيه سخرية يائسة:

«قهوة! أعطوني القهوة! أنا أحتضر!» فوقفتُ بذراعين برّحهما الألم أنظر إلى الرجلين الراشدين اللذين ما فتئا يتحدّى أحدهما الآخر، وهما يئنان بأصوات عالية في الجوّ الحارّ. ثم أقبلت أمّ جون لتأخذ القارب وتجدّف قاصدة البيت ولارس. ووقفت قربي لتراقب.

تنبّهتُ إلى وقوفها هناك ببشرتها الدافئة وفستانها ذي الزرقة الباهتة. ولأنها لم تمضِ مباشرة إلى قاربها كعادتها، لتركبه وتدفع المجاديف،

تأكّدت من أن شيئًا ما سيحدث، من أن هذه إشارة. خطر لي أن أنادي أبي، وأطلب منه أن يضع حدًا لكلّ تلك الحماقة التي أقحم نفسه فيها. لكنني لا أعتقد أنه كان سيتقبّل ذلك منّي برحابة صدر، مع أنه غالبًا ما وافقني كلّما حضرني شيء عقلاني أدلي به، وكثيرًا ما حصل هذا. التفتُّ لأنظر إلى أمّ جون التي ما عاد لها في تلك اللحظة أيّ علاقة بجون، أو لها بالأحرى كلّ العلاقة ولكن اجتمع فيها شخصان مختلفان. كنّا متساويين في الطول، وشعرنا ضارب إلى الشقرة نفسها بعد أسابيع من البقاء تحت الشمس المستعرة. إلا أن الوجه الذي بدا منذ برهة مقروءًا وعاريًا تقريبًا، بدأ ينغلق. عيناها فقط تضمّنتا نظرة حالمة كما لو أنها ما عادت حاضرة معنا، ومع أن تينك العينين نظرتا إلى المشهد نفسه الذي أنظر إليه، خُيّل إليّ أنهما تجاوزتاه إلى ما هو أبعد؛ ما هو أعظم من ذلك الذي استطعت سبره. أدركت أنها مثلي، لن تقول أيّ شيء لتوقف الرجلين، وأنهما، بقدر ما يعنيها الأمر، يستطيعان المضي إلى النهاية المريرة، ليحسما نهائيًا وإلى الأبد أمرًا أجهله. لعلّ هذا بالضبط ما أرادته، وهو بالضبط ما راعني. وبدلاً من أجعله يقصيني، تركته يدعني أنخرط في الحدث. فأي مفرّ آخر غيره كان أمامي؟ وليس لي هناك سواه، ليس وأنا بمفردي. اقتربت منها، وقفتُ إلى جانبها تمامًا بحيث كاد وركي يلامس وركها. شعرت كأنّ شحنة كهربائية تصعقني. لا أظنّ أنها لاحظت حتى. أما الرجلان الواقفان على كومة الجذوع فلاحظا، وأطرقا ينظران إلينا متناسيين للحظة نزاعهما. حينها، بدرت مني حركة فاجأتني أنا نفسي. وضعت ذراعي حول كتفيها وأدنيتها منّي. أمّي هي الشخص الوحيد الذي فعلت معه هذا من قبل. وتلك لم

تكن أمّي، بل أمّ جون التي عبقت بها رائحة الشمس والصمغ مثلي بالتأكيد، وعبقت بها رائحة أخرى أثملتني، كما يثملني أريج الغابة، أثملتني وجعلتني على شفا البكاء. تمنيت ساعتها لو أنها ليست أمّ أحد، لا الأحياء منهم ولا الأموات. أغرب ما في الأمر هو أنها لم تتحرّك، بل تركتْ يدي حيث هي واتكأت برقّة على كتفي. لم أعرف ماذا تريد، ولا ماذا أريد أنا، فاكتفيت باحتوائها أكثر، وَجِلاً وسعيدًا. لعلها فعلت ذلك لأنها وجدت أن كتفي هي الأقرب إليها لتستند إليها، أو لأنني ابن أحدهم. وللمرة الأولى في حياتي لم أرغب في أن أكون ابن أحدهم. لا ابنًا لأمّي في البيت في أوسلو، ولا للرجل الواقف فوق قمّة كومة الجذوع. الرجل الذي أدهشه كثيرًا ما رآه على الرغم من انهماكه في الرفع والشدّ، فاعتدل واقفًا وترك الجذع يتزلق من يده مسبّبًا بذلك بلبلة كافية. عندئذ، جاهد أبو جون الذي ماثلت دهشته دهشة أبي ليمسك الجذع. لكنه فشل، ففلت الجذع وهوى كالرّفاص وخبط كاحليه قبل أن يكمل سقوطه الجانبي عند أسفل الكومة. سمعت صوت قضقضة عظام إحدى رجليه، مثل صوت تكسّر غصن يابس، وسرعان ما تهاوى متدحرجًا بكتفه أولاً على الكومة، ثم حطّ على الأرض متخبّطًا. حدث ذلك بسرعة كبيرة، حتى إنني لم أستوعب ما جرى إلا وهو مستقرّ هناك. وقفت أنظر فقط. وبقي أبي وحده في الأعلى مقلقل التوازن وكلاّبه يتأرجح في إحدى يديه؛ النهر خلفه والسماء فوقه شبه بيضاء من شدّة الحرارة. أنّ أبو جون المطروح أرضًا أنينًا فظيعًا. وزوجته التي أحطتُ كتفيها وعانقتها برفق قبل لحظة، أفاقت من غيبوبتها وتحرّرت منّي وهرعت إلى زوجها. جثت على الأرض وانحنت موسّدة رأسه حضنها من غير أن تقول

أيّ شيء. هزّت رأسها فقط، كما لو أنها بصدد أن تنفض يديها منه وقد تصرّف بطيش للمرة السبعمائة والخمسين. هذا على الأقلّ ما بدا عليه المشهد من حيث وقفت. وللمرّة الأولى على الإطلاق شعرت بشرارة نفور من أبي، لأنه أفسد عليّ أكثر لحظات حياتي كمالاً حتى ذلك اليوم. فجأة استحكم بي ذلك النفور. وجدتني أقف على حافة السخط ويداي ترتعشان. وبدأت أحسّ بالبرد في اليوم الصيفي القائظ. ولا أتذكّر حتى ما إذا تملّكني الأسف على والد جون، وقد بدا واضحًا أنه يتألّم؛ سواء من رجله المكسورة أو كتفه التي سقط عليها. وما لبث الرجل أن بدأ يعوي. كان عواءً موحشًا من شخص بالغ، لأنه مصاب، وربما أيضًا لأن أحد ولديه مات للتوّ، وولدًا آخر هجر البيت وقد لا يعود أبدًا على حدّ علمه، ولأن كلّ شيء في تلك اللحظة تخطّى نطاق الأمل. ليس من الصعب فهم ذلك. لكن، لا أظنني شعرت بالأسف عليه، لأنني كنت طافحًا بأناي. لم تفعل زوجته شيئًا آخر ما عدا مواصلة هزّ رأسها. ومن خلفي أقبل فرانز يعدو نازلاً الدرب بخطى ثقيلة، ونفضت برونا عرفها وجذبت اللجام. حينها فكّرت أن لا شيء منذ تلك اللحظة فصاعدًا سيبقى على حاله السابقة.

كانت الحرارة الخانقة قد استمرّت بلا انقطاع لعدّة أيام، وازدادت في ذلك اليوم على الأخصّ. كان في الجوّ شيء ما، كما يقولون، والرطوبة تفوق الاحتمال، والعرق يسيل منا بدفق أكثر من المعتاد. وفيما ذوى منتصف النهار ببطء، بدأت الغيوم تتجمّع من غير أن تنخفض الحرارة. قبل حلول المساء اسودّت السماء بأكملها. كنّا قد

نقلنا والد جون عبر النهر بأحد القوارب، ثم أُخذ إلى الطبيب في إنبغدا بواحدة من السيارتين اللتين في القرية؛ بسيارة باركالد بالطبع. وهو بنفسه تسلّم المقود خلال الرحلة الطويلة كلّها. بقيت أمّ جون مع لارس في البيت، إذ لا يمكن تركه وحده لمثل ذلك الوقت الطويل. وفكّرت في أنها لا بدّ ستشعر بالضجر والوحشة وهي تنتظر وحدها مع الولد، وليس معها شخص بالغ تحادثه. أما الحديث الذي جرى بين الرجلين في السيارة، فلم أستطع تخيّله قطّ.

عندما لاحت أول ومضة برق، كنت أنا وأبي جالسين إلى الطاولة في الشاليه ننظر إلى النافذة وقد أنهينا تناول طعامنا من غير تبادل كلمة واحدة. ومع أن النهار لم ينته بعد، لأننا ما زلنا في تـــمّوز، بدت الظلمة مثل ظلمة ليلة تشرينية. لما ومض البرق رأينا الأشجار التي أبقينا عليها، وأكوام الخشب عند الضفّة، والنهر أيضًا، وشاهدنا بوضوح ضفّته المقابلة. وفي إثر ذلك مباشرة تصاعد صوت انهيار جعل الشاليه تهتزّ.

«أنا هالك لا محالة،» قلت.

التفت أبي عن النافذة ورماني بنظرة استفهام.

«ماذا قلت؟»

«أنا هالك لا محالة،» أجبت.

هزّ رأسه وتنهّد. «حسنًا، عليك إذًا أن تفكّر في تثبيت حجزك،» قال. «إياك أن تنسى.» عندئذ بدأت السماء تمطر، برفق أولاً. وبعد بضع دقائق راح المطر يقرع السقف بعنف حتى تعذّر علينا سماع أفكارنا ونحن جالسان إلى الطاولة. رجع أبي برأسه إلى الوراء موليًا

السقف وجهه، كما لو أنه قادر على رؤية المطر من بين الأعمدة والألواح والدعامات. ولعله أمَل أن تسقط قطرة ماء على جبينه. ثم أغمض عينيه. فخطر لي أن ترطيب وجوهنا بالماء البارد بعد ذلك اليوم الحافل سيفيدنا حتمًا. ولا ريب في أن الفكرة نفسها واتته لأنه هبّ مغادرًا الطاولة وقال:

«ما رأيك في حمّام؟»

«لن أقول لا،» أجبت. وفي الحال دبّت فينا الحياة، فقفزنا وبدأنا ننـــزع ثيابنا بعجالة، وركلناها يمينًا وشمالاً. جرى أبي عاريًا إلى حوض الاستحمام وغطس لوح الصابون في الدلو. بدا عجيب الشكل مثلي؛ أسمر اللون من الرأس إلى السرّة، وبياض الطبشور من السرّة إلى القدمين. وقف يفرك جسمه إلى أن اختفى تحت حلقات الرغوة، ثم ألقى إليّ بلوح الصابون، ففعلت مثله بقدر ما استطعت من سرعة.

«آخر واحد يخسر،» أعلن مندفعًا نحو الباب. فطرت وراءه مثل لاعب كرة قدم أمريكي، لأقطع عليه الطريق وأفقده توازنه. قبض عليّ من كتفي ليبقيني بعيدًا. لم ينجح في ذلك بسبب جسمي الزلق. فبدأ يضحك وصاح:

«سأريك أيها الخسيس اللزج!» وهو بالطبع يستطيع قول ذلك، لأنه حظي بموافقتي منذ سنين بعيدة جدًا. وصلنا معًا إلى فتحة الباب الضيقة، جنبًا إلى جنب، متلاصقين، وكلّ منا يحاول الخروج أولاً. ثم وقفنا على العتبة تحت الإفريز ورأينا المطر يسحن الأرض من حولنا. كان المشهد مؤثّرًا وباعثًا على الخوف. للحظة تسمّرنا هناك نحدّق. ثم أخذ أبي نفسًا عميقًا، ومثل ممثل زعق:

«الآن أو هيهات!» قبل أن يقفز إلى الفناء تحت المطر، حيث شرع يرقص وهو عارٍ تمامًا وذراعاه مبسوطتان في الهواء والماء يتناثر على كتفيه. هرعت إليه تحت المطر المنهمر لأقف حيث وقف، أقفز وأرقص وأغني «النرويج بالأحمر والأبيض والأزرق»، وما لبث أن بدأ يغنّي معي. وفي وقت قصير شُطف الصابون من على جسمينا وشُطف معه الدفء. كان جسمانا ناعمين ولامعين كجسمي فقمتين، وبالتأكيد باردي الملمس مثلهما.

«سأموت من البرد،» هتفت.

«وأنا أيضًا» صاح، «لكننا نستطيع احتماله بعد.»

«طيّب،» صحت، ثم صفعت بطني وخبطت فخذيّ براحتي يديّ، لأستحثّ بعض الحرارة في جلدي الخدر، إلى أن خطرت لي فكرة المشي على يديّ. كنت ماهرًا في ذلك، فصحت على أبي:

«هلمّ يا هذا،» ثم انحنيت أرضًا وارتفعت على يديّ. لم يسعه إلا أن يقلّدني. مشينا على أيدينا فوق العشب المبلل، والمطر يسوط أردافنا بلسعات جدّ باردة اضطرتني إلى الوقوف على قدميّ عاجلاً. ولا ريب أن أحدًا لم يمتلك مؤخّرة بنظافة مؤخّرتينا فيما هرعنا إلى البيت ثانية، حيث جفّفنا جسمينا بمنشفتين كبيرتين، وتدلّكنا بخرقة خشنة لنحفّز الدورة الدموية ونستعيد الدفء. فجأة، تأمّلني أبي برأس مائل وقال:

«غدوتَ رجلا إذًا.»

«ليس تمامًا،» أجبت، لأنني عرفت أن الأمور التي تجري من حولي ما زالت مستعصية على فهمي، وأن البالغين يفهمونها، وأنني سأصل قريبًا إلى تلك المرحلة.

«لا، ربما ليس تمامًا،» قال.

مرّر يده خلال شعره المبلّل، وبمنشفته المعقودة حول خصره مضى إلى الموقد. مزّق صحيفة قديمة إلى أشرطة، فتلها ودفعها إلى داخل بيت النار، ثم وضع ثلاثة عيدان من الحطب حول الصحيفة وأشعل النار. أغلق باب الموقد، وترك وعاء الرماد مفتوحًا من أجل مجرى الهواء. ما لبث الحطب الجافّ السريع الاشتعال أن بدأ يطقطق. ظلّ قريبًا من الموقد؛ مرفوع الذراعين وشبه منحنٍ على الصفائح المعدنية السوداء، تاركًا الحرارة المتصاعدة تتغلغل في بطنه وصدره. لزمت مكاني. رحت أنظر إلى ظهره، مدركًا أنه سيقول شيئًا ما. فهو أبي، وأنا أعرفه جيدًا.

«ما حدث اليوم،» قال وهو لا يزال يوليني ظهره. «ما كان له أيّ داعٍ. الطريقة التي واصلنا المضي بها، عاقبتها السيئة حتمية. وجب أن أضعَ لها حدًّا منذ وقت مبكر. كان حسم الأمر بيدي، لا بيده. أتفهمني؟ نحن راشدون. والخطأ خطأي في ما حدث.»

لم أقل شيئًا. لم أفهم هل عناني وعنى نفسه بقوله نحن راشدون، أم هو يلمّح إلى نفسه وإلى والد جون. ورجّحت الخيار الثاني.

«إنه لا يُغتفر!»

لعل ما قاله صحيح، ويمكنني أن أدركه. لولا أنني لم أحبّ أن يتحمّل الملامة كلّها هكذا. رأيت أنه موضوع قابل للنقاش، وفي حال استحقّ اللوم فأنا أستحقه أيضًا. حتى مع عدم ارتياحي لتحمّل مسؤولية أحداث كتلك. شعرت أنه حطّ من شأني بإقصائي عن اللوم. وعاودتني المرارة، لكن أخفّ من السابق. استدار، قرأت في وجهه أنه أدرك ما يدور في خلدي، إنما لا سبيل هناك لمناقشة المسألة

بطريقة تجعلها أسهل علينا. تعقيدها البالغ منعني حتى من إمعان التفكير فيها. ليس في تلك الليلة. أحسست بكتفيّ ترتخيان، وبجفنيّ يتهدّلان، فرفعت يدي لأفركهما بمفاصل أصابعي.

«هل أنت متعب؟»

«أجل،» قلت. وكنت متعبًا بالفعل؛ متعبًا جسدًا ومتعبًا فكرًا، وملوّح الجلد. أردت فقط أن أستلقي تحت اللحاف في سريري وأنام وأنام إلى أن يصبح من المستحيل أن أنام أكثر.

مدّ ذراعه وشعّث شعري، ثم تناول علبة عيدان ثقاب من على الرفّ فوق الموقد، ومضى إلى الطاولة ليشعل مصباح البارافين. أطفأ عود الثقاب وفتح باب الموقد وألقاه في النار. بدا جسمانا في ظل ضوء المصباح الأصفر بلونيهما الأسمر والأبيض أكثر غرابة. ابتسم وقال:

«اذهب ونَم قبلي، سأوافيك حالاً.»

لكنه لم يفعل. عندما نهضت في الليل لأتبوّل لم أجده في أيّ مكان. مشيت مترنّحًا من شدّة النعاس نحو غرفة الجلوس، ولم أجده. فتحت الباب ونظرت خارجًا. رأيت أن المطر قد توقّف، ولم أجده هناك أيضًا. حينما عدت أدراجي لاحظت أن سريره ما زال مرتّبًا ومعدًّا بإتقان على الطريقة العسكرية المعهودة، وأن شيئًا فيه لم يتغيّر منذ الصباح الفائت.

٧

انتهيت من تشذيب جذع التنّوب الميت، وقطعته بمنشار الجترير إلى أطوال مناسبة تعادل نصف حجم لوحة التقطيع. ثم نقلت تلك القطع ثلاثًا ثلاثًا على التوالي بعربة. وكدّستها على الأرض خارج كوخ الحطب. هي الآن مكوّمة على شكل هرم ثنائي البعدين، وعلى ارتفاع مترين تقريبًا من الجدار تحت الإفريز. غدًا سأبدأ في مهمّة فلقها. سار كلّ شيء حتى الساعة على خير وجه. وأنا راضٍ عن نفسي، لكن ظهري هذا نال ما يكفيه اليوم. أضف إلى ذلكً أن الوقت يقارب الخامسة؛ الشمس الغاربة تحطّ عند ما لا بدّ أنه الغرب، أو الجنوب الغربي، والغسق يتسرّب من طرف الغابة حيث كنت أعمل. إنه وقت جيّد للتوقّف. أمسح النشارة ومخلّفات البنـــزين والزيت العالقة بالمنشار إلى أن يغدو على نحو ما نظيفًا. أتركه ليجفّ على مقعد في كوخ الحطب. أغلق الباب وأجتاز الفناء بترمسي الفارغ تحت إبطي. أجلس على الدرج، وأخلع جزمتي الرطبة، أطرقها بقوة لأخرج

شظايا الخشب منها، وأنفض ساقي بنطلوني. أنفض جواربي، أصفقها بقفازي الشغل، وأنتزع البقايا الأخيرة بأصابعي. تشكّل هذه البقايا كومة صغيرة دقيقة. ليرا جاثمة تراقبني وهي تلوك كوز صنوبر نتأ من فمها كسيجار خامد من النوع الضخم. أدرك أنها تريد مني أن آخذه وأقذفه بعيدًا لتجري في إثره وتسترجعه. لكن، إذا بدأنا هذه اللعبة، سترغب في أن نستمرّ ونستمرّ، وأنا في الحقيقة خائر القوى.

«آسف، سنلعب في مرّة أخرى،» أقول لها ثم أربّت رأسها الأصفر، أمسّد رقبتها، وأشدّ أذنيها بلطف. إنها تحبّ هذا. تفلت الكوز من فمها وتذهب لتقعي على ممسحة الباب.

أترك جزمتي عند العتبة وكعباها تجاه الحائط. أعبر الرواق إلى المطبخ بجوربيّ. هناك أجلي الترمس بماء حارّ من الحنفية، وأضعه على الرفّ ليجفّ. لم يمض أكثر من أسبوعين على تركيبي للسخّان. لم يكن هنا أي سخّان من قبل مطلقًا، فقط مغسلة في الجدار تحت حنفية ماء بارد. استدعيت سبّاكًا يعرف تفاصيل بيتي جيدًا، فأخبرني أنه ينبغي حفر خندق إلى أنابيب الماء بطول مترين ابتداءً من الجدار الخارجي، ليحقّق المطلوب بتحويل زاوية الأنبوب إلى المطبخ تحت جدار الأساس. قال إنه عليّ مباشرة العمل كخفّاش هارب من الجحيم، قبل أن يهجم الصقيع. لم يكن واردًا أن يقبل السبّاك تولّي الحفر بنفسه، لأنه ليس عاملاً كما قال. ذاك لم يزعجني، بيد أنها كانت مهمّة شاقة، إذ لا شيء هناك سوى الحصى والحجارة. وتبيّن لي من ضخامة بعض الحجارة أنني أسكن على تلّ صخري.

لديّ الآن حوض جلي مثل جميع الناس. أتأمل نفسي في المرآة التي فوق الحوض. الوجه هناك لا يختلف عن الوجه الذي توقّعت رؤيته

بعمر السابعة والستين. أي أن مظهري متناسب معي. أما هل يروقني ما أراه، فتلك قضية أخرى. وهي ليست بذات أهمية. الناس الذين سأظهر أمامهم ليسوا كثرًا، ولا أمتلك إلا مرآة واحدة. ولأعترف بالحقيقة، ليس لديّ أيّ شيء ضدّ الوجه الذي في المرآة. أنا قانع به، وأميّز فيه نفسي. ولا يسعني أن أطلب أكثر من هذا.

المذياع دائر. إنهم يتحدّثون عن اليوبيل الفضي للألفية القادمة. يتحدّثون عن المشاكل التي سيتحتّم ظهورها في جميع أنظمة المعلوماتية خلال الانتقال من الأرقام المتماسكة 97 و98 و99 إلى 00، وأننا نجهل ما قد يحدث ويجب أن نحتاط لتفادي كوارث محتملة، وأن قطاع الصناعة النرويجية بطيء جدًا في اتخاذ إجراءات احتياطية. لا أفقه شيئًا من هذا، والأمر في الحقيقة لا يشدّ اهتمامي. ما أنا متأكّد منه فقط هو أن زمرة كاملة من مستشارين لا يملكون أدنى فكرة عما سيحصل، خرجوا ليجنوا بعض الدراهم. وهو ما سيفعلونه حتمًا، وقد فعلوه سابقًا.

أُخرج أصغر قِدر عندي، أنظّف بضع حبات بطاطس وأضعها فيه، ثم أضيف الماءَ إلى القدر وأحطّه على الفرن. أشعر بالجوع الآن، فالعمل بالخشب حفّز شهيتي. لم أشعر بهذا الجوع منذ عدّة أيام. اشتريت البطاطس من الدكان، وفي السنة القادمة سأحصل على محصولي الخاص من حديقة المطبخ القديم وراء الكوخ. إنها الآن مكسوّة بالأعشاب وتحتاج إلى الحراثة. أنا واثق من أنني سأتدبّرها، عليّ فقط تخصيص وقت لها.

من المهمّ ألا نستهتر بوجبة العشاء عندما نعيش وحدنا. إذ ليس أسهل من التهاون في هذا، لأن الطبخ لشخص واحد عمل مملّ. لا بدّ

من وجود البطاطس، والمرق والخضر، وفوطة وكوب نظيف وشموع مضاءة على الطاولة، ولا جلوس للأكل بثياب الشغل. لذلك، في انتظار نضوج البطاطس، أقصد غرفة النوم وأبدّل بنطلوني، أرتدي قميصًا أبيض نظيفًا وأعود إلى المطبخ. أفرد على الطاولة مفرشًا قبل أن أضع زبدة في المقلاة لأقلي السمك الذي اصطدته من البحيرة بنفسي.

في الخارج، خيّم الوقت الضارب إلى الزرقة. كلّ شيء في هذه الآونة يتقارب بعضه من بعض؛ الكوخ وتخوم الغابة والبحيرة من وراء الأشجار. كما لو أن الأثير الملون يربط ما بين أجزاء العالم، فلا يتبقّى شيء منفصل هناك. هذه فكرة تستحق التأمّل. أما موضوع كونها حقيقية أم لا فقضية أخرى. بالنسبة لي، أرى أن الانفصال أفضل. مع ذلك، وفيما العالم الأزرق يخصّني في هذه اللحظة بتعزية لا أظنّني أريدها، ولا أحتاجها، أجدني أتقبّلها. أجلس إلى الطاولة برضى وأبدأ في الأكل.

فجأة أسمع طرقًا على الباب. الطرقُ في حدّ ذاته ليس مستغربًا بما أنني لا أملك جرسًا. لكن لا أحد طرَق بابي منذ أن سكنت هنا. وكلّما جاءني الناس في زيارة، سمعت صوت السيارة، وخرجت إلى العتبة لاستقبالهم. لكنني الآن لم أسمع صوت سيارة، ولا رأيت أيّ ضوء. أنهض تاركًا الوجبة التي بدأتها للتوّ، مترعجًا قليلاً، وأذهب إلى الرواق وأفتح الباب. إنه لارس، وبوكر خلفه في الفناء؛ ساكنًا ولمرّة واحدة على الأقلّ مستكينًا. يبدو النور في الخارج شبه مصطنع، مثله مثل نور أفلام شاهدتها؛ أزرق ومفبرك وخفيّ المصدر، ومع ذلك تبقى الأشياء فيه واضحة المعالم، وفي الوقت نفسه تُرى من خلال فلتر

واحد، أو كلّها توحي بأنها مصنوعة من المادة نفسها. حتى الكلب يبدو أزرق وهامدًا، كأنه نموذج من الصلصال.

«ليلة سعيدة،» أقول. مع أن الوقت لا يزال أبكر من ذلك. بيد أنه ليس من الممكن قول أيّ شيء آخر في ظلّ هذا الضوء. يبدو لارس محرجًا، أو ربما هناك شيء آخر، شيء يتعلّق بوجهه. وكذلك الأمر مع الكلب. ألاحظ أن في جسميهما هما الاثنين صلابة يتشابهان بها، وأن لا هذا ولا ذاك ينظر في عينيّ مباشرة. يلبثان منتظرين فقط، صامتين. أخيرًا يقول لارس:

«ليلة سعيدة،» ثم يغرق في الصمت ثانية، غير مفصح عمّا يريده. وأنا بدوري أجهل كيف يمكن أن أساعده.

«كنت أهمّ بتناول الطعام،» أقول. «إنما لا بأس، تفضّل!» أفتح الباب على مصراعيه وأدعوه للدخول وأنا متأكّد من أنه سيرفض، ومن أن ما يريد قوله سيُقال هناك عند العتبة. هذا لو نجح في إخراج الكلمات التي يتصارع معها. في النهاية يتّخذ قراره، يصعد درجة العتبة الأخيرة، ويلتفت نحو بوكر قائلاً:

«اجلس هنا،» ويشير إلى درج العتبة. فيمشي بوكر إلى الدرج ويجلس. أتنحّى جانبًا ليدخل لارس إلى الرواق. أتوجّه إلى المطبخ، وبينما يتبعني ويغلق الباب خلفه، أتوقّف عند الطاولة حيث لهب الشموع يرفرف بسبب تيار الهواء.

«هل أكلت؟» أسأله. «الطعام يكفي شخصين.» وهذا تقريبًا صحيح. فأنا دائمًا أعدّ ما هو أكثر من حاجتي، مسيئًا في الحكم على شهيّتي. وما يزيد من طعام يذهب عادة إلى ليرا، وهي تعرف ذلك. وعندما أجلس لآكل تغدو أكثر من سعيدة، وتذهب لتجثم قرب

الموقد، حيث تنتظر وعيناها تراقباني بيقظة. أراها تترك موضعها وتقف مبصبصة بذيلها تتشمّم بنطلون لارس. إن بنطلونه كما يبدو يحتاج إلى الغسيل، ليس ثـــمّة شكّ في هذا.

«تفضّل بالجلوس،» أقول، ولا أنتظر جوابًا منه بل أجلب صحنًا من الخزانة الجانبية، ثم أضعه على الطاولة مع لوازم المائدة وأضيف فوطة وكأسًا. أسكب له ولنفسي البيرة. ولو أن هناك ثلجًا على النافذة، لبدا الأمر كأننا في عشيّة عيد الميلاد. يجلس. ألمحه يختلس نظرة إلى قميصي الأبيض. لباسه لا يعنيني، فالقانون الذي أتبعه يخصّني وحدي. ألاحظ أنني لم أسهّل عليه مهمة البوح بما جاء ليقوله. أجلس بدوري، وأحثّه على خدمة نفسه. يأخذ قطعة سمك وحبّتي بطاطس والقليل من المرق. أتحاشى التطلّع إلى ليرا، لأن ذاك هو تقريبًا ما كانت ستحصل عليه. نشرع في الأكل.

«لذيذ،» يقول لارس، «هل اصطدته بنفسك؟»

«نعم، في الأسفل عند مصبّ النهر.»

«السمك هناك كثير. سمك الفرخ على الخصوص، هناك الزنجور أيضًا قرب القصب، وأحيانا التروتة إذا حالفنا الحظّ.» فأهزّ رأسي موافقًا وأواصل الأكل، منتظرًا بصبر أن يفصح عمّا لديه. بالطبع لا أعني أنه في حاجة إلى سبب خاصّ ليأتي إلى هنا ويتناول العشاء معي. أخيرًا، يعبّ جرعة كبيرة من البيرة، ويمسح فمه بالفوطة قبل أن يضع يديه على حضنه، ثم يتنحنح ويقول:

«أعرف من أنت.»

أتوقّف عن المضغ. أفكّر في وجهي على نحو ما رأيته قبل قليل في المرآة. أيعرف من ذاك؟ أنا وحدي من يعرف. أو هل تراه يتذكّر

صحف ما قبل ثلاث سنوات وفيها صورة كبيرة لي؛ صورتي وأنا أقف في وسط الطريق تحت المطر الهتّان، والدم والماء يسيلان من رأسي وجبيني إلى ربطة عنقي وقميصي، والنظرة الزجاجية المذهولة في عينيّ وهما تواجهان الكاميرا. خلفي مباشرة سيارة الأودي الزرقاء التي لا تكاد تظهر في الصورة، بمؤخّرتها المرتفعة في الهواء ومقدّمتها الغائرة في المنحدر الصخري. سطح الجبل القاتم المبلّل، عربة الإسعاف ببابيها الخلفيين المفتوحين، نقّالة تحمل زوجتي، سيارة الشرطة بضوئها الأزرق الوامض، الغطاء الأزرق حول كتفيّ، وشاحنة بضخامة صهريج تقف معاكسة لخطّ وسط الطريق الأصفر ومتجاوزة إياه. ومطر، مطر ينهمر على الأسفلت اللامع البارد، حيث كلّ شيء انعكس عليه مزدوجًا، كما ازدوجت الأشياء من حولي في عينيّ خلال الأسابيع التي تلت. ظهرت الصورة في جميع الصحف. وقد صيغت بإتقان على يد مصوّر فوتوغرافي كان في إحدى السيارات التي تجمّعت عقب نصف ساعة من الحادث. كان في طريقه إلى مهمّة مملّة، وبدلاً من ذلك ربح جائزة على الصورة التي التقطها تحت المطر؛ السماء الرمادية المنبسطة، الحاجز المهشّم، الخراف البيضاء على التلّ في الخلفية. كلّ ذلك في لقطة واحدة. «انظر هنا!» صاح بي يومها.

لكن ليس هذا ما يقصده لارس. لعلّه رأى إحدى تلك الصور، هذا محتمل جدًا، إنما ليس هذا ما يقصده. لقد عرفني كما عرفته. مضى على ذلك ما يزيد على خمسين سنة، كنا أطفالاً حينها؛ هو في العاشرة وأنا لا أتجاوز الخامسة عشرة، ولا أزال خائفًا من كلّ ما يجرى أمامي، ذاك الذي لم أفهمه على الرغم من إحساسي بأنني قريب كفاية منه. قريب ربما إلى درجة أنني لو مددت يدي بقدر ما

يسعني، لوصلت إلى آخره واستوعبته كلّه. هذا على الأقلّ ما تهيأ لي حينذاك. أتذكّر تلك الليلة الصيفية سنة 1948، لما اندفعت من غرفة النوم وملابسي بيدي، مدركًا بذعرٍ مُفاجيء أنّ ما قاله أبي، وما هي الحقيقة الفعلية للأشياء، ليسا بالضرورة متطابقين. ذلك جعل العالم مائعًا ويصعب التمسّك به، وفتح أمامي هوّة من الفراغ عجزتْ عيناي عن تجاوزها لتستشفّا الطرف الآخر. وهناك في الليل، عند ما لا يزيد على كيلومتر واحد من أسفل النهر، ربما استلقى لارس صاحيًا ووحيدًا في سريره، محاولاً التمسّك بعالمه، بينما صدى الطلقة التي لم يستطع التحكّم في مسارها واصل تردّده في كلّ متر مكعب من هواء البيت الصغير، إلى أن كفّ عن سماع أيّ شيء غيره حينما خاطبه الناس، بغضّ النظر عمّا قالوه. وبقي الشيء الوحيد الذي سمعه لوقتٍ طويل، طويل جدًا.

الآن، بعد أكثر من خمسين سنة يجلس إلى الطاولة أمامي مباشرة، ويعرف من أنا. وليس لديّ ما أجيب به. أعرف أن ما قاله ليس اتهامًا، حتى وإن شعرت أنه كذلك. وليس سؤالاً أيضًا، ما يعني أنني لست مضطرًا إلى الإجابة. لكن، إذا لم أقل شيئًا، فسيغدو كلّ شيء في غاية الصمت والثقل.

«نعم،» أقول وأنا أنظر إليه مباشرة. «أنا أيضًا أعرف من أنت.»

يهزّ رأسه إيجابًا. «هذا ما ظننته،» يجيب ويهزّ رأسه ثانية، ثم يمسك سكينه وشوكته ويتابع الأكل. ألاحظ أنه مغتبط. هذا ما أراد قوله. لا أكثر ولا أقلّ. هذا، والتأكيد الذي حصل عليه مني.

أشعر بعدم الارتياح ونحن ننهي وجبتنا، كما لو أنني علقت في

شراك فخّ لم أسع إليه. نأكل من غير أن نتبادل سوى بضع كلمات، مكتفيين بالانحناء إلى الأمام ونحن نرنو من النافذة إلى الفناء حيث الظلام يهبط بسرعة وصمت. يهزّ كل منا رأسه للآخر، متفقيْن على أن الفصل الذي نحن فيه جاء في أوانه، وأن الليل أصبح يخيّم بسرعة، نعم هو كذلك، وأشياء أخرى من هذا القبيل، كأنها أمور جديدة علينا. مع ذلك يبدو لارس راضيًا، ويأتي على كلّ ما في صحنه، ثم يقول بنبرة مرحة تقريبًا:

«شكرًا جزيلاً. من الجيّد تناول وجبة حقيقية.» وأرى أنه جاهز للذهاب. وعندما يفعل، يسلك الدرب المنحدر بخطوات خفيفة مستغنيًا عن الاستعانة بمصباح الجيب. في حين أشعر أنا بثقل أشدّ وطأة. يخبّ بوكر من ورائه نحو الجسر وكوخهما الصغير، وشيئًا فشيئًا يبتلعهما الظلام.

أقف عند الباب لبرهة. أستمع إلى وقع الخطوات على الحصى إلى أن تخبو هي الأخرى. ألازم الوقوف لفترة أخرى بعد، ثم أسمع في العتمة خبطة خافتة عندما يغلق لارس بابه. وألمح الضوء يشعّ من نافذة ذلك الكوخ عند النهر. أتلفّت وأستطلع بعينيّ جميع الجهات من حولي. لا أرى سوى ضوء لارس. ألاحظ أن هناك ريحًا تتأهّب للهبوب، مع ذلك ألازم مكاني وأحملق في العتمة. ثم تهبّ، وتقبل مندفعة من الغابة. أستشعر ملمسها البارد في قميصي فقط. ثم يقشعر جسمي وتصطكّ أسناني. أضطر في النهاية إلى الاستسلام، فأدخل وأغلق الباب.

أخلي الطاولة مما عليها في المطبخ. إنها أوّل مرّة في هذا البيت أضع صحنين على المفرش. أشعر أنني انتُهِكت، هذا بالضبط ما أشعر به،

والمنتَهِك ليس مجرّد أي شخص.

نعم، هذا بالضبط ما أشعر به. أجلب وعاء ليرا من خزانة حفظ اللحوم، أملأه بطعام الكلاب المجفّف، أعود به وأضعه على الأرض أمام موقد الحطب. تنظر إلي متسائلة، فهو ليس الطعام الذي توقّعت الحصول عليه، تتشمّم الأكل، وتشرع في تناوله ببطء، تزدرد كلّ لقمة منه بكآبة استعراضية. ثم تلتفت لتعاود النظر إليّ، ترمقني بتينك العينين بنظرة طويلة، تتنهّد وتستأنف الأكل، كما لو أنها تُفرغ في جوفها الكأس المسمومة. يا للكلبة المدلّلة.

فيما تأكل ليرا، أقصد غرفة النوم وأخلع قميصي الأبيض، أعلّقه على المشجب، وأُدخل رأسي بقميص الشغل وفوقه كنـــزة. أذهب إلى الرواق وآخذ معطف البحّارة السميك من على المشجب وألبسه أيضًا. أجد مصباح الجيب، أصفّر لليرا وأخرج إلى عتبة الباب بخفيّ حيث أتريث لأنتعل جزمتي. إن الريح تعصف بشدّة الآن. نسلك منحدر الطريق. ليرا أولاً، وأنا في إثرها على بعد بضعة أمتار. لا أكاد أستبين أكثر من فرائها الباهت. وما دمت أستطيع أن أفعل، فهذا بالنسبة لي مثل مؤشّر اتجاهات. أمتنع عن إشعال مصباح الجيب، وأترك عينيّ تتأقلمان مع العتمة فحسب، لعلي أكفّ عن إجهادهما في القبض على نور خبا منذ زمن طويل.

عندما نصل إلى الجسر، أتوقّف للحظة عند بداية الدرابزين وأجتلي كوخ لارس. الضوء يشعّ من النوافذ، ويمكنني أن أرى كتفيه في ذلك الإطار الأصفر، ومؤخّر رأسه الخالي من أي شعرة بيضاء، والتلفزيون في أقصى الغرفة. إنه يشاهد الأخبار. لا أعرف متى شاهدت الأخبار آخر مرّة. لم أجلب جهاز تلفزيون معي إلى هنا. وأحيانا يعتريني الندم

على ذلك عندما تطول أمسياتي. ما وقر في نفسي هو أنك عندما تعيش وحدك فسرعان ما تصبح أسير تلك الصور الوامضة، وأسير الكرسي الذي ستلازمه وقتًا طويلاً في الليل. وفي هذه الحالة، فيما تبقى قابعًا، وتدع الآخرين يتحرّكون عنك، يمرّ الوقت بلا معنى. وأنا لا أريد هذا. في وسعي مجالسة نفسي.

نترك الطريق وننحدر إلى النهر الضيّق لنمشي على الدرب الذي أسلكه عادة. لا أسمع صوت جريان الماء. ومن حولي تئنّ الريح وتخشّ في الأشجار والأدغال. أشعل مصباحي حتى لا أتعثّر في طريقي وأقع في النهر الذي لا أستطيع تبيّنه.

حينما أصل إلى البحيرة أتتبع تخوم القصب إلى أن أبلغ موضع مقعد صنعته بنفسي وجررته إلى هناك. فعلت ذلك حتى أجد ما يمكنني الجلوس عليه لأتفرّج على نبض الحياة عند مصبّ النهر؛ أرى السمك عندما يقفز، وأرى طيور البطّ والبجع التي تبني أعشاشها هنا في الشرم. هي بالطبع لا تفعل ذلك في هذه الفترة من السنة. لكنها تأتي في الصباح مع نسلها الربيعي الذي وإن ماثلها حجمًا لا يزال رمادي الريش وغريب المنظر كأنهما من جنسين مختلفين. وعندما تعوم في صفّ واحد، وتقوم بالحركات نفسها، تعتقد بلا ريب أنها متشابهة. بيد أن الناظر لا يراها كذلك. أو قد أكتفي بالجلوس هنا، تاركًا العنان لأفكاري لتسرح كما يحلو لها، في حين تنغمس ليرا بروتينها المعتاد.

أجد المقعد وأجلس. من البديهي أنه ليس ثـــمّة ما يمكن مراقبته الآن أو التفرّج عليه. وهكذا، أطفئ المصباح وأقبع في الظلام منصتًا إلى الريح تعصف بين القصب بزئير حادّ. أحسّ بفداحة تعبي بعد

مجهود يومي هذا. لقد اشتغلت لمدّة أطول مما هي عادتي. أغمض عينيّ وأقول لنفسي إنه ينبغي ألاّ أنام، بل أسترخي قليلاً فقط. مع ذلك أنام، وأصحو متجمّدًا تمامًا والريح المصمّة للآذان تضجّ من حولي. أول فكرة طرأت على ذهني هي ليت لارس لم يقل ما قاله. فما قاله يقيّدني بماض خِلت أنني خلّفته ورائي، وينحّي جانبًا السنوات الخمسين التالية باستخفاف مسيء.

أنهض من على المقعد بجسم متيبّس. أصفّر لليرا بصعوبة بسبب شفتيّ الخدرتين. أرى أنها مقعية قريبًا من المقعد، ولا تلبث أن تتذمّر برقّة وهي تضغط ركبتي بأنفها. أشعل المصباح. الريح من حولي تعصف بجنون، وكلّما هززت المصباح تشكّلت هالات حول ضوئه. القصب عند البحيرة منبسط مستويًا معها، وعلى الماء رغوة بيضاء، والعويل يتصاعد من رؤوس الأشجار العارية وهي تنحني جنوبًا متلاطمة. أجثم قرب ليرا وأداعب رأسها.

Good dog أقول لها بالإنجليزية، وأجد وقع العبارة سخيفًا، كأنه مُقتبس من فيلم شاهدته مرّة، ربما من فيلم لاسي في صغري، ولا يدهشني هذا إن صحّ. أو لعلي كنت أحلم بشيء نسيته الآن، وتخلّفت منه هذه الكلمات في ذهني. إنها بالطبع ليست مقتبسة من ديكنـــز، إذ لا أتذكّر أيّ كلب طيّب في كتبه. في جميع الأحوال أراها عبارة سخيفة. أعتدل ثانية أغلق سحاب سترتي إلى حدود ذقني، وأقول لليرا:

«هيا، سنعود إلى البيت.» فتقفز بارتياح خالص، وتنطلق على طول الدرب وذيلها في الهواء. وبقدر قليل من الخفّة أتبعها، رأسي غارق في طوق سترتي وقبضتي محكمة على المصباح.

٨

أستطيع أن أتذكّر بوضوح تلك الليلة في الشاليه، عندما لم أجد أبي نائمًا في السرير كما قال إنه سيفعل. غادرت غرفة النوم إلى غرفة الجلوس ولبست ثيابي على عجل أمام الموقد. لما انحنيت فوقه لاحظت أنه ما زال يحتفظ بالدفء من الأمسية السابقة. أصغيت إلى الليل من حولي، لم يتناه إليّ أيّ صوت يمكن سماعه باستثناء ترجيع أنفاسي؛ أنفاسي التي تلاحقت بسرعة كبيرة، وبحشرجة وثقل مستغربين في غرفة بدا لي أنها أرحب من أن أتفحّصها، مع أنني أعرف بالضبط كم خطوة فيها من الجدار إلى الجدار. أرغمت نفسي على إبطاء لهاثي، عببت الهواء ملء رئتي وأطلقته ثانية على مهل وأفكاري تتلاحق: حتى هذه الليلة لطالما حظيت بحياة جيدة، وما بقيت وحدي قطّ، ليس تمامًا. بل حتى عندما غاب أبي لفترات طويلة، ائتمنته وتقبّلت غيابه بثقة؛ ثقة تبخّرت في سياق يوم تـــمّوزي واحد.

كان ذاك يومًا بعيدًا جدًا، ذلك اليوم المستعر، حينما فتحت

الباب وخرجت إلى الفناء بجزمتي الطويلة. لم أجد أحدًا هناك. كان الجوّ رطبًا والليلة غير قاتمة لأننا ما زلنا في الصيف. وفي السماء أبحرت السحب التي انشطرت وتشعّبت بسرعة هائلة، مفسحة المجال لظهور ضوء شاحب مترجرج ساعدني على تمييز الطريق إلى النهر. كان الماء يندفع بسرعة بعد المطر الغزير، وجرى بمنسوب أعلى عند الصخور على طول الضفاف، فراح النهر يقبق ويتراقص ببريق فضّي باهت. لمحته من على مسافة، وهدير ذاك النهر الجاري كان الصوت الوحيد الذي سمعته.

لم أجد القارب في مرساه. خضت بضع خطوات في الجدول ووقفت أتحرّى صوت مجاديف. لم أجد هناك إلا الماء يتدافع حول رجليّ. ولم أرَ شيئًا لا في عالية النهر ولا في سافلته. كانت أكوام الخشب المقطوع في مكانها بالطبع، وأريجها يفوح نفّاذًا في الهواء الرطب، والصنوبرة المعوّجة بالصليب المسمّر على جذعها كانت في مكانها أيضًا، والحقول الممتدّة من ضفّة النهر الأخرى إلى الطريق كانت في مكانها. السحب وحدها في السماء ما فتئت تتحرّك، وذاك الضوء المرفرف. ألمّ بي شعور غريب من الوقوف في الليل وحدي وأنا أكاد أشعر بالصوت أو الضوء يتخللاني؛ ضوء قمر لطيف أو صوت جلجلة أجراس والماء يجيش على جزمتي. كلّ شيء آخر ما عدا ذلك بدا كبيرًا جدًا وساكنًا جدًا من حولي. بيد أنني لم أشعر أنني هُجرت. شعرتُ أنني استُثنيت. كنت في منتهى الهدوء، كنت مرساة العالم. إنه النهر ما فعل بي ذلك. تراءى لي أنني أستطيع أن أغمر جسمي بالماء إلى ذقني وألبث بلا حراك، والتيّار يستدرج جسمي ويدفعه، وأبقى مع ذلك الشخص نفسه، وأبقى المرساة. استدرت لأنظر إلى الشاليه؛

لمحت النوافذ المعتمة و لم أرغب في الدخول إليها ثانية. ليس ثمة وهج فيها؛ الغرفتان مهجورتان وخاليتان، واللحف رطبة والموقد خامد، ولا ريب في أن البرد هناك ازداد. شعرت أن ليس في تلك الشاليه ما يخصّني. وهكذا خضت طريقي إلى الضفّة.

سرت أولاً بين أرومات الأشجار المقطوعة حديثًا ميمّمًا الدرب الحصوي وراء أرضنا. ثم انحدرت إلى الجنوب من بين الأشجار بدلاً من الاتجاه شمالاً كما نفعل عادة لنقصد الجسر والدكّان. لم أجد عناءً في تلمّس طريقي بعد أن انقشعت السحب ووضحت معالم الليلة ثانية، كأنّ كلّ شيء ذُرّ بطحين أبيض؛ بل كأنّ هناك مصفاة أستطيع أن أرى عبرها بوضوح، وأن ألمسها لو شئت. إنما لم أستطع بالطبع، مع أنني حاولت. وفيما مشيت بين جذوع الأشجار القاتمة، مددت أصابعي أمامي كما لو أنني أنحدر في دهليز بين أعمدة، وتركت يديّ تتزلقان في الهواء ببطء، إلى الأعلى تارة، ثم إلى الأسفل في ظلّ الضوء الطحيني. بيد أنني لم أحسّ بشيء، وكلّ شيء كان على حاله المعهود دائمًا، مثله مثل أيّ ليلة أخرى. الحياة فقط غيّرت مركز ثقلها من نقطة إلى أخرى، من ساق إلى ساق، مثل عملاق صامت في الظلال العظيمة المنعكسة على التلال. وهذا جعلني أشعر أنني لست الشخص نفسه الذي كنته عندما بدأ ذلك اليوم، و لم أعرف أذاك أمر يستدعي منّي التأسّف أم لا.

لم أعرف، وكنت أصغر من أن ألتفت إلى الوراء. وهكذا تابعت طريقي على الدرب الحصوي. سمعت هدير النهر في الأسفل خلف الأشجار، ثم سمعت بعده ضجيج أقرب ملبنة إلى كوخنا من الجنوب. ضجيج الأبقار في مرابطها خلف الجدران الخشبية وهي

تجترّ أو تستريح على القش، متململة من جانب إلى جانب في العتمة، تهدأ فجأة، ثم تعود إلى الصخب من جديد. بلغتني جلجلة أجراسها المكتومة وأنا على الطريق، وتساءلت في أيّ وقت من الليل نحن، وهل يطلع الصباح قريبًا، أو هل يمكنني الانحدار إلى حظيرة الأبقار لأنسلّ إلى الداخل، وأجلس قليلاً مستطلعًا دفء المكان قبل أن أستأنف طريقي. وهذا ما فعلته. لم يكن عليّ إلا أن أنزل الدرب الذي تسلكه الأبقار صعودًا، أتجاوز الكوخ الساكن الذي تبيّن لي أن لا أحد ينظر من نوافذه، ثم أفتح باب زريبة الأبقار المعتمة وأدخل. استقبلتني هناك رائحة نفّاذة أحببتها، وكان الدفء في المكان كما تخيّلته. وجدت كرسيًّا من كراسي الحلب في الممرّ بين المزاريب، وجلست عليه قرب الباب الذي أغلقته خلفي. أغمضت عينيّ، وسمعت تردّد أنفاس الأبقار المطمَئن، وصوت اجترارها بالقدر نفسه من الاطمئنان، وجلجلة أجراسها، وطقطقة الخشب، وهمهمة الليل فوق السقف التي ليست بسبب الريح، إنما هي الدندنة المجتمعة لكل ما اشتمل عليه الليل. ونمت.

أيقظتني مداعبةٌ على الخدّ. خِلت المداعِبَ أمّي. خلتني عدت ولدًا صغيرًا. لي أمّ، قلت لنفسي، وقد نسيتها. بدأت أسترجع شكلها، جميع تقاسيمها، واحدًا تلو الآخر، إلى أن اكتملت الصورة تقريبًا وأصبحت مثل تلك التي رأيتها دومًا. لكن الوجه الذي طالعني لم يكن وجهها، وللحظة وجدتني أتأرجح هناك بين عالمين، بعين شبه نائمة في كلّ منهما. فالتي وقفت أمامي كانت العاملة في ملبنة المزرعة. ما عنى أنها الخامسة صباحًا. كنت قد رأيتها من قبل عدّة مرات، ودردشت

معها أيضًا، ولطالما استلطفتها. لديها صوت يشبه نايًا فضّيًا حينما تصعد الدرب لتنادي الأبقار، هذا ما قاله أبي وهو يرفع يديه ويدنيهما برفق من جانبي فمه ليوضح ما يعنيه مرفرفًا أصابعه وضامًّا شفتيه. بيد أنني لم أعرف كيف هو صوت الناي الفضّي، و لم يسبق لي أن سمعت أحدًا يعزف على واحد مثله. ابتسمتْ الفتاة، رمقتني وقالت:

«صباح الخير يا حملي الوديع.» وذاك بدا وقعه لطيفًا عليّ.

«لقد غفوت،» قلت، «كان الجو هنا جيدًا ودافئًا.» ثم اعتدلت مقوّما ظهري وفركت وجهي بمفاصل أصابعي. «ستحتاجين إلى الكرسي.»

هزّت رأسها نفيًا. «لا، لا، ابقَ حيث أنت، لدي واحد آخر، لا تشغل بالك.» ومشت إلى الممرّ وهي تحمل دلوًا لامعًا في كلّ يد، جلبت الكرسي الآخر، وجلست قرب أول بقرة. شرعت تنظف الضروع الوردية محرّكة يديها الماهرتين برقّة. كانت قد أزالت القاذورات من الزريبة وفرشت الأرض بنشارة الخشب، فبدا كلّ شيء نظيفًا ومبهجًا. وكانت الأبقار المرقّطة تقف مستعدّة في صفّين، أربعة منها في كلّ صفّ، مفعمات بالترقّب والحليب. أدنت العاملة الدلو من بقرتها وأمسكت حلمة الضرع بمنتهى اللطف، فتدفّق الحليب أبيض ومجلجلاً في الدلو المعدني. بدا الأمر سهلاً جدًا، لولا أنني حاولت مرارًا و لم أفلح قطّ في استخلاص قطرة واحدة.

جلستُ وظهري مستند إلى الجدار أراقبها على ضوء المصباح الذي علّقته بخطّاف قرب الكرسي؛ وشاحها المعقود يمنع شعرها من التهدّل، النور الأصفر يضيء وجهها، نظرتها الحالمة، الابتسامة الحلوة، ذراعاها العاريتان، والركبتان المكشوفتان تلمعان عند طرفي

الدلو. عجزت عن تمالك نفسي، وفي داخل بنطلوني بدأت أشعر بالصلابة فجأة، صلابة هائلة الزخم حوّلت أنفاسي إلى لهاث. لا أكاد أتذكّر أنني فكّرت فيها يومًا على هذا النحو. أحكمت تشبّثي بالكرسي بيديّ الاثنتين، وتملّكني شعور بالخيانة تجاه الشخص الذي يحتلّ أفكاري فعلاً. أدركت أن كلّ شيء سينهار من أدنى احتكاك إذا تحرّكتُ ولو سنتمترًا واحدًا، وستنتبه، وربما تسمع حشرجتي البائسة التي غالبتني لتنطلق. حينها ستعرف أي مثير للشفقة أنا، وهذا لا يسعني تحمّله. لذلك ارتأيت أن أفكّر في أشياء أخرى لأخفّف من وطأة الضغط. في البداية فكّرت في الخيول لما رأيتها تعدو عابرة طريق القرية، خيول متعددة مختلفة الألوان، سنابكها تضرب الأرض بعنف مثيرة الغبار على الطريق الصلب الخشن، دافعة ذلك الغبار بين البيوت والكنيسة كأنه ستارة صفراء. لم يساعدني هذا كثيرًا. فقد كان هناك شيء ما في حرارة تلك الخيول وأعناقها المنعطفة وتنفّسها الإيقاعي وهي تعدو، وفي بقية الأشياء المتعلّقة بالخيول التي يصعب تفسيرها ولكننا نعرف أنها موجودة. تحوّلت بأفكاري إلى خليج بونّي. خليج بونّي في مسقط رأسي، وأول سباحة لي في الماء الأخضر الباهت، في مطلع أيار بالضبط، على الرغم من الريح والجوّ. فكّرت في برودة الماء، وفي الجسم وهو يفرغ من الهواء مع الشهيق عندما نقفز من على الصخور المنحدرة في شاطئ كاتن، ونخترق السطح البلوري. وليس لواحدنا إلا أن يقفز مرة في كلّ دورة، لأن الآخر يكون واقفًا عند حافة الماء ممسكًا حبلاً ليتّخذ دور المنقذ في حال أصيب القافز بتقلّص عضلي. كنت في السابعة فقط، عندما قرّرت أنا وأختي أن نفعل هذا سنويًا. ليس لأنه ممتع، ولكن لأننا شعرنا أننا نريد القيام بعمل

يتطلّب جهدًا زائدًا؛ عمل يمكن أن يؤلمنا بما يكفي، وهذه المغامرة بدت مناسبة في تلك الأيام. قبل ثلاثة أسابيع منها، كان الجنود الألمان قد دخلوا أوسلو، وزحفوا إلى ساحة كارل يوهان بصفوف لا نهاية لها. والجوّ يومذاك بارد والشوارع ساكنة. لا شيء يُسمع سوى خبط جزماتهم المتساوق، كأنه ضربات سوط تتالى بين الأعمدة أمام مبنى الجامعة، تلسع الجدران هناك، وترتدّ عبر رصيف الحرم الجامعي. ثم تعالى الهدير المفاجئ لطائرات الميسرشميت القادمة من الخليج، من البحر المديد ومن ألمانيا، وحلّقت منخفضة فوق أسطح المدينة. والجميع واقف يراقب بصمت. لم يقل أبي شيئًا، وأنا لم أقل شيئًا، ولا أحد في الحشد كلّه قال شيئًا. رفعت عينيّ نحو أبي، وأطرق هو ينظر إلي ثم هزّ رأسه ببطء، فهززت رأسي بدوري. أمسك يدي، وقادني بعيدًا عن الحشد إلى الرصيف، ثم إلى شارع البرلمان والمحطة الشرقية، لنرى هل ثمّة حافلة إلى موسيفين، أو هل زال القطار إلى الجنوب يقوم برحلاته، أم أن كلّ شيء قد توقّف في ذلك اليوم، باستثناء الجنود الألمان الذين انتشروا في جميع الأنحاء على حين غرّة. لا أتذكّر كيف وصلنا إلى المدينة، وهل أخذنا القطار أو الحافلة أو أقلّنا أحدهم بسيارته. ما أعرفه أننا تدبّرنا أمر العودة إلى البيت، وأرجّح أننا قطعنا المسافة مشيًا.

لم يمض وقت طويل على هذا إلا ورحل أبي للمرّة الأولى، وعند ذاك بدأت أنا وأختي نسبح في الخليج البارد؛ قلوبنا تطرق بعنف، والحبل جاهز للنجدة.

استرجاع ربيع 1940 ساعد في تهدئتي، وكذلك التفكير في أبي

كما عهدته خلال تلك الأيام الباردة، والتفكير في ماء خليج بونّي المجمّد في الشواطئ التي ارتدناها؛ ابتداءً من كاتن وانتهاءً بإنغيرستراند. وما لبثت أن تمكّنت من إرخاء قبضتيّ المتشبثتين بالكرسي في زريبة الأبقار والوقوف من غير التسبّب بأيّ أذى. كانت عاملة الملبنة قد انتقلت إلى المربط التالي وجلست هناك تدندن لنفسها وجبينها مستند إلى خاصرة البقرة، لا شيء في ذهنها إلا تلك البقرة كما استطعت أن أستشفّ. وضعت الكرسي إزاء الجدار بعناية، وهممت بالانسلال من الباب لأتتبّع الدرب إلى الطريق الرئيسي. عندئذٍ سمعت صوتها خلفي:

«ما رأيك في جرعة؟»

لم أعرف لماذا احمرّ وجهي لحظتها، لكنني استدرت وقلت:

«نعم من فضلك، سيروقني هذا.» أجبت على الرغم من أنني حاولت تجنّب الحليب الطازج منذ وقت طويل. فمجرّد رؤيته في كوب أو فنجان وتخيّل سخونته ودسامته يجعلانني أصاب بالغثيان. بيد أنني نمت في حظيرتها، وفكّرت فيها بطريقة ليست واردة في حسبانها، ولا ريب في أنها لن تعجبها لو عرفت. ثم إنني لم أتصوّر كيف يمكنني رفض عرضها. تناولتُ المغرفة الطافحة التي مدّتها إليّ، ورشفت كلّ ما فيها بجرعة واحدة. مسحت فمي بقوّة، وانتظرت إلى أن تأكّدت من أن الحليب حطّ في معدتي، ثم قلت:

«شكرًا، لا بدّ لي من الذهاب الآن. سيكون أبي قد جهّز الفطور.»

«ها؟ إنه وقت مبكر جدًا،» قالت ناظرة إليّ بوداعة كما لو أنها فطنت إلى حقيقتي وما الذي يشغل ذهني؛ شيء أنا نفسي لست

متأكّدًا منه، هززت رأسي إيجابا بحيوية زائدة عن اللزوم، واستدرت على أعقابي ومشيت بين المرابط إلى الباب. نجحت في بلوغ الطريق قبل أن أتقيّأ ما تجرّعته من حليب على الأرض أمامي. اقتلعت بضع قبضات من الخلنج وغطيت بها الطحالب الغارقة بالقيء الأبيض، حتى لا تراه عندما تنتهي من حلب الأبقار وتصحبها إلى أعلى الدرب، فتشعر بالسوء حيال ذلك.

تتبّعت الطريق إلى أن ضاق إلى مساره الأصلي. انعطفت نحو النهر، ومضيت أطأ الحشيش الندىّ الطويل المتساوق المفضي إلى مربط قوارب. كان ذلك المرسى الصغير متواريًا تقريبًا بين القصب عند المياه الراكدة في الجهة الشرقية. أوغلت إلى آخر الرصيف وجلست مدلّيًا رجليّ من حافته، وجزمتي تكاد تكون في الماء. ثم طلع الضوء مع الشمس التي شقّت طريقها من وراء التلّ، فأتيح لي أن أرى الضفّة الأخرى من بين القصب، وأن أستشفّ المزرعة التي يعيش فيها جون، أو التي عاش فيها. فذاك أمر ما عدت أعرفه. هناك أيضًا كان لديهم مرسى قوارب. وسرعان ما أبصرت ثلاثة قوارب مربوطة عنده؛ القارب الذي يستعمله جون عادة، والقارب الذي استخدمته أمّه حينما شاركتنا في قطع الأشجار. الأول مطليّ بالأزرق، والثاني بالأحمر. أما القارب الثالث فأخضر. وهو في العادة يُربط بالقرب من كوخنا، إذا لم يتركه معتوه ما في الضفّة الأخرى. والمعتوه هو أنا غالبًا. كان هذا القارب هناك. وعلى ذلك الرصيف مقعد صنعه أحد ما. وعلى المقعد جلست أمّ جون وإلى جانبها أبي. جلسا متقاربين جدًا. هو حليق الذقن، وهي بفستانها الأزرق ذي الأزهار الصفراء الذي

ارتدته عندما ذهبت إلى إنبغدا. سترة أبي على كتفيها، وذراعاه تلفّان كتفيها أيضًا، مثلما لفّتهما ذراعاي قبل ما يقلّ عن أربع وعشرين ساعة. لكنه فعل شيئًا لم أفعله. قبّلها. ورأيت أنها تبكي، إنما لم تبك لأنه قبّلها. بكت فقط. واستمرّ يقبّلها وهي تبكي، واستمرّت تبكي وهو يقبّلها.

لعلّي في تلك الأيام افتقرت إلى نوع معيّن من الخيال، ومن المحتمل أنني ما زلت كذلك. ما رأيته يجري في الضفّة الأخرى من النهر أذهلني. فجلست أحملق بفم فاغر، لا أشعر بالبرد، لا أشعر بالحرارة، لا أشعر بالدفء حتى، ولكن رأسي كاد ينفجر من الفراغ، ولو ضبطني أحد حينها، لظنّ أنني هربت من دار الأطفال المتخلّفين عقليًا.

كان من الممكن أن أقنع نفسي بأنني مخطئ، بأنني في الحقيقة لا أستطيع أن أرى ما يجري في الضفّة الأخرى لأن النهر عريض جدًا، وأن ما حسبت أنني شاهدته إنما لمحته بصعوبة، وإنما هو مشهد رجل يواسي امرأة تشعر بالوحشة والقطيعة، وقد فقدت لتوّها طفلاً، ونُقل زوجها إلى مستشفى على بعد العديد والعديد من الكيلومترات. لكن، ولو صحّ هذا الافتراض، فلا ريب في أن التوقيت غريب. ثم إنني بطبيعة الحال لم أكن جالسًا على ضفّة نهر الميسيسيبي أستشفّ الطرف الآخر منه. ولا الدانوب، أو الراين، ولا حتى نهر غلوما خاصّتنا. بل كنت أحدّق عبر نهر ليس بكبير جدًا؛ نهر يلتفّ في نصف دائرة ليعبر الحدود من السويد منحدرًا خلال هذا الوادي وهذه القرية هنا، ليعود بعد ذلك إلى السويد بعد بضعة كيلومترات جنوبًا. والتساؤل عن مياهه أهي سويدية أكثر منها نرويجية، أو هل

يمكن القول إنها سويدية من مذاقها في حال تسنّى للمرء تذوّقها، إنما هو موضع جدل. أضف إلى ذلك أن عرض النهر من حدود الرصيف الذي جلست عليه إلى حيث جلسا ليس حتى في كامل اتساعه.

أنا لم أكن مخطئًا إذًا. رأيتهما يتبادلان القبلات كما لو أن ذلك آخر ما سيتسنّى لهما أن يفعلاه في هذه الحياة. لم أطق مراقبتهما، ومع ذلك راقبتهما. حاولت التفكير في أمّي، كما يجدر بالابن أن يفعل حينما تعترضه مسألة مشابهة. لكنني لم أستطع التفكير في أمّي. انسلّت منّي وذابت ولم يعد لها علاقة بكلّ ما يجري. ثم عاودني الإحساس بالفراغ، وجلست هناك أحدّق إلى أن ما عدت أستطيع البقاء بعد. فوقفت ببطء والقصب يخفيني، ومشيت على ألواح الرصيف الخشبية بقدر ما استطعت من هدوء، ثم عدت إلى الدرب وقطعت مسافة جيّدة منه. عندما التفتُّ ونظرت، رأيت أن الاثنين قاما أيضًا، ومضيا يمشيان يدًا بيد نحو المزرعة.

لم أعاود الالتفات مرة أخرى. تابعت طريقي من بين الحشيش المتطاول مجتازًا الحقل المنبسط. وانعطفت في الموضع الذي يتحوّل فيه المسار إلى طريق. سلكت طريقي صعودًا، ومررت بمزرعة الألبان وحظيرة الأبقار التي نمت فيها. تراءى لي أن ذلك حدث منذ زمن بعيد. كان الضوء مختلفًا والهواء قد تغيّر وأشعة الشمس تنساب من عند التلّ لطيفة ودافئة. شعرت بشيء في حلقي يخزني ويؤلمني على نحو غريب؛ كأنه يريد الخروج، ونجحت في إبقائه حيث هو بازدراد ريقي بقوّة. سمعت الأبقار وهي ترتقي سفح التلّ نحو جبل الصنوبر، وهو في الحقيقة ليس جبلاً، بل رابية تعلو قمّتها غابة. سمعت قطعانًا أخرى تشقّ طريقها إلى المراعي الخصبة، ورنين أجراس عن يميني وشمالي.

عندما بلغت الموضع الذي قُطعت أشجاره، والدرب المؤدّي إلى كوخنا، توقّفت وأصخت السمع. يسّر لي خلوّ المكان من الأشجار مشهدًا واضحًا تجاه النهر. أدركت أنه في وسعي أن أسمع القارب حينما يقبل. لكن ذلك الاتجاه لم يتصاعد منه أيّ صوت. بدا البيت في وضح النهار أقلّ عدوانية. عرفت أنه يمكنني بكلّ بساطة أن أدخله، وأن أقصد غرفة الجلوس وأخرج الخبز من علبة الحفظ، وأدهن شريحة منه بالزبدة لأسكت جوعي. لكنني بدلاً من ذلك سلكت طريق الجسر والدكّان. استغرقت مسيرتي عشرين دقيقة. في الطريق، استطعت أن أرى باب بيت فرانز المفتوح، لأن بيته يقع على مرتفع محاذٍ للنهر عند طرف الجسر. كانت أشعة الشمس تتوهّج في الدهليز، والموسيقى تنبعث من المذياع. يمّمت الممرّ الحصوي قاصدًا المدخل مباشرة. صعدت الدرجات الثلاث وصحت من فتحة الباب:

«مرحبًا، هل من فطور هنا؟»

«إي مرحبًا، ادخل يا شقيّ بحقّ الجحيم،» جاءني الجواب من الداخل.

مكتبة
t.me/t_pdf

٩

تدوي العاصفة طوال الليل. أستيقظ عدّة مرات وأسمع الريح تزأر على امتداد الجدران، بل تفعل أكثر من ذلك، تقبض بعنف على البيت فتئن دعائمه الخشبية. ومن شتّى الأنحاء تتصاعد الأصوات؛ أصوات حادّة وصافرة وشبه متوعّدة من الغابة. وقعقعة ألواح معدنية، وانهيار هائل في مكان ما، أخمّن أنه قريب من المستودع. يقلقني هذا فيما أنا مستلق في العتمة بعينين مفتوحتين تحملقان في السقف. لا أجد في نفسي ميلاً إلى النهوض الآن، خصوصًا أنني أشعر بالدفء تحت اللحاف. أتساءل أسيصمد القرميد كما هو مفترض منه، أو سرعان ما ينفصل عن السطح ويتطاير مدوّما عبر الفناء، وربما يخبط سيارتي ويبعجها. ينتهي بي التفكير إلى أن هذا لن يحدث وأعود إلى النوم.

عندما أستيقظ ثانية أرجّح أن الريح لا تزال تعصف بعنف، لكن صوتها على دعائم السطح وهي تصطدم بها وتنشق متفرّعة يشبه الارتشاف. لا قعقعة، ولا ارتطام؛ إنما هو أشبه بهدير في قعر سفينة

بالقرب من محرّكها؛ فكلّ شيء يتأرجح الآن في العتمة ويتدافع إلى الأمام، وفي البيت صوار وفوانيس، ومخلّفات رغوة، وزينة كاملة. وذاك يروقني. يروقني أنّ أكون على متن سفينة، ولعلّي في النهاية لست صاحيًا تمامًا.

السابعة والنصف حينما أفتح عيني آخر مرّة. هذا وقت متأخّر بالنسبة إلى معاييري، متأخر جدًا. ليس في النافذة سوى ضوء رمادي طفيف، وكلّ شيء غريب الهدوء في الناحية الأخرى من الزجاج. أبقى مستلقيًا بلا حراك وأستمع. لا يأتيني من العالم الخارجي ولا حتى وقع صرير، فقط دبدبة قوائم ليرا وحفيف مخالبها على أرض المطبخ وهي تقصد وعاء الماء. كاد الكون يتفجّر بالأصوات، وها قد خمدت كلّها الآن غير مخلّفة وراءها سوى كلبة صبور. أسمعها تلعق الماء بصوت عالٍ، ثم تطلق زفيرًا مكتومًا معلنة به أنها تريد الخروج لتفعل ما لا يمكنها فعله في الداخل، إذا لم يكن لديّ مانع.

أشعر أن ظهري ليس على ما يرام، فأستدير وأنبطح على بطني، وأدفع جسمي فوق طرف السرير مُنْزِلاً ركبتيّ على الأرض أولاً، ثم أحاول النهوض على قدميّ. أنجح في ذلك، ولكنني متيبّس فعلاً ومرهق بعد مجهود البارحة. أمضي حافيًا إلى المطبخ، أتجاوز ليرا وأقصد الرواق.

«ليرا، تعالي!» فتأتي بخطى وئيدة. أفتح الباب وأدعها تخرج إلى العتمة الجزئية. أعود لأرتدي ملابسي، أفتح صندوق الحطب العامر لحسن حظي. أحرص على إشعال الموقد بطريقة نظامية قدر المستطاع. أنا لا أوفّق أبدًا في إشعاله من المحاولة الأولى، الأمر الذي نجح فيه أبي

دائمًا. لكن، ما دام لديّ متّسع من الوقت فهو في النهاية سيشتعل. أختي، ما أفلحت في ذلك قطّ. قد يتوافر لديها حطب جافّ، وشرائح صحف، وموقد جيّد التهوية، ولا شيء يحترق معها مطلقًا غير الورق. «كيف تبدأ الحرائق في البيوت؟ هل لك أن تشرح لي؟» اعتادت أن تقول. أفتقد أختي. هي أيضًا ماتت قبل ثلاث سنوات. ماتت بالسرطان. لم يكن باليد حيلة، لأن تشخيص مرضها جاء في مرحلة متقدّمة جدًا. كانت قد غدت مع مرور الوقت صديقة حميمة لزوجتي. درجتا على التحادث هاتفيًا في المساء لتعلّقا على شؤون العالم. وأحيانًا كنت أنا موضوع نقاشهما، وكثيرًا ما تسمعهما تضحكان بملء شدقيهما على «الصبي صاحب السروال الذهبي»، كما سمّيتاني. كنتَ دائمًا الصبي صاحب السروال الذهبي، لا يمكنك أن تنكر، تقولان وهما تضحكان. أظنّ أن أختي هي من اخترعت هذا اللقب أولاً. لم أنزعج منهما، فضحكهما لم يتضمّن قطّ أيّ سوء نيّة، فقط روح الدعابة والرغبة في إثارتي. أما أنا فلطالما كنت مفرطًا في الجدّية. بيد أن المرء قد يبالغ في هذا أيضًا. وقد أصابتا في الحقيقة بما لقّبتاني به؛ لأنني كنت محظوظًا بالفعل، وسبق لي أن أقررت بهذا.

في غضون شهر واحد توفّيتا. ومنذ رحيلهما فقدت رغبتي في التحدّث مع الناس. بل أنا في الحقيقة لا أعرف حتى ما الموضوع الذي أتحدّث عنه معهم. إنه أحد أسباب استقراري هنا. العيش بالقرب من الغابة هو سبب آخر. كانت الغابة جزءًا من حياتي قبل أعوام كثيرة بطريقة لم يماثلها أيّ شيء آخر بعدها. ثم غابت من حياتي لفترة طويلة.. طويلة. وعندما سكت كلّ شيء من حولي فجأة، عرفت إلى أيّ حدّ افتقدتها. وسرعان ما سيطرت على جماع تفكيري. وأدركت أنه ما دام

ليس من المقدّر لي أن أموت في تلك المرحلة من الزمن، فعليّ اللجوء إلى الغابة لأستمرّ. ذاك ما شعرت به، بكلّ هذه البساطة، ولا أزال.

أشغّلُ الراديو. أخبار الصباح من محطّة بي تو في منتصفها. القنابل الروسية تتساقط على غروزني. ها هم يعاودون الكرّة، لكنهم لن ينتصروا أبدًا. تولستوي عرف هذا في رواية الحاج مراد، وتلك الرواية كُتبت قبل مئة سنة. إنه من غير المفهوم حقًا أن لا تستوعب القوى الكبرى الدرس، وألاّ تفطن إلى أنها في النهاية هي التي ستنهار. إنما، يمكن بالطبع تدمير الشيشان بمنتهى البساطة. وهذا أكثر سهولة في الحاضر مما كان عليه قبل مئة سنة.

نار الموقد تطقطق كما ينبغي. أفتح صندوق الخبز وأقتطع شريحتين، أضع الماء ليغلي كي أعدّ القهوة. ثم أسمع ليرا تطلق نباحها القصير الحادّ عند العتبة. إنها طريقتها في قرع الجرس، ومن السهل تمييزها عن بقية الأصوات التي تصدرها. أُدخلها. تذهب وترقد قرب الموقد حيث الدفء يتدرّج في الانتشار. أجهّز طاولة فطوري، وأجهّز فطور ليرا في وعائها، إنما عليها انتظار دورها. أنا المعلّم هنا. وأنا من يأكل أولاً.

يطلع ضوء النهار من وراء الغابة. أنحني قدمًا وأنظر من النافذة. يعتريني ما هو أكثر من الانشداه مما أراه في نور الصباح. شجرتي التي في الفناء؛ البتولة المعمّرة الضخمة، أطاحت بها العاصفة وأسقطتها بحجمها الهائل شبه الأسطوري بين المستودع وسيارتي. أغصانها العليا تمتدّ إلى نافذة المطبخ، وأغصان أخرى تحطّ على قفص الأمتعة فوق سيارتي. وغيرها كسر مزراب مستودع الحطب ولواه على شكل V كبيرة، فتدلّى في الهواء وسدّ باب المستودع. لقد أحسنتُ صُنعًا بملء صندوق الحطب.

هذا يفسر صوت الارتطام في الليلة الفائتة. أهبّ واقفًا بطريقة آلية، أهمّ بالخروج، لكن بالطبع لا فائدة من ذلك. تلك البتولة لن تذهب إلى أي مكان. أعاود الجلوس وأكمل فطوري. بينما آكل، أحاول التفكير في حلٍّ ما لتنحية تلك العملاقة التي استلقت لتستريح في فنائي. لا بدّ أن أنقذ السيّارة أولاً، هذا بديهي، ينبغي أن أنقلها من هناك. وبعد ذلك يأتي دور الأغصان، بما فيها التي تسدّ مستودع الحطب لأرى هل من الممكن دخوله. الحطب ضروري بالنسبة لي، ولا يسعني الاستغناء عن السيّارة. هذه مسألة أساسية. سيحتاج منشار الزنجير إلى الشحذ من جديد، لا مفرّ من ذلك بعد أشغال الأمس. وقد أحتاج إلى مزيد من الوقود وزيت المحرّكات. عليّ أن أتحقّق من الأمر. وفي الحالتين سأضطرّ إلى السيّارة لأجلب المزيد منهما. ولا ريب في أن السيارة عالقة الآن. تصيبني لوثة ذعر أعجز عن فهم سببها. هذه ليست ضائقة. أنا هنا بمحض إرادتي. لديّ طعام كاف في الثلاجة وماء في الحنفية، ويمكنني أن أمشي بقدر ما يحلو لي. أنا سليم ومعافىً، ووقت العالم كلّه ملكي. أم تراني أتخيّل هذا؟ إنه لا يبدو لي كذلك. لا يبدو لي كذلك على الإطلاق. فجأة يجتاحني رُهاب الأماكن المغلقة. قد أموت في أي لحظة. إنها سنّة الحياة. ولكن هذا شيء أدركته في السنوات الثلاث الأخيرة، ولم أعبأ به وما زلت لا أعبأ. أنظر إلى البتولة. إنها تكاد تحجب الفناء كلّه، وضخامتها الهائلة تهيمن بظلالها على كلّ شيء. أغادر الطاولة بسرعة وأقصد غرفة النوم، أستلقي بملابسي على السرير، مخالفًا جميع قواعدي. أحدّق في السقف ورأسي يخضخض كأنه عجلة روليت، والكرة تنطّ من الأحمر إلى الأسود إلى الأحمر ثانية، لتحطّ أخيرًا في إحدى

الخانات. والخانة هي بالطبع صيف 1948، أو على وجه أكثر دقّة اليوم الذي انتهى فيه ذلك الصيف. يوم وقفتُ تحت شجرة البلّوط أمام الدكّان، ونظرت عاليًا ورأيت الضوء يشعشع من بين الأوراق المهتزّة مع الريح في مجيئها وذهابها. أعمتني تلك الومضات، وجعلتني أطرف بعيني بقوّة حتى بدأت دموعي تنهمر. فأغمضتهما وشعرت بسخونة حمراء على جفنيّ، سمعت النهر من ورائي، كما سمعته يوميًا لما يقارب الشهرين. وساءلت نفسي عما سيكون عليه حالي ما دمت سأكفّ عن سماعه.

كان الجو حارًا تحت شجرة البلّوط. وكنت متعبًا. ففي ذلك الصباح استيقظت أنا وأبي باكرًا، وأفطرنا بدون أن نتبادل الحديث تقريبًا. ثم مشينا من الشاليه على الطريق الحصوي إلى الجسر، مررنا ببيت فرانز الذي تسلّلت إليه الشمس من فرجة الباب المفتوح، وألقت أشعتها الساطعة على ممسحة الأرجل، ثم مالت ممتدّة على طول أحد الجدران. بيد أنني لم ألمح فرانز في أيّ مكان، وأحزنني تفويت وداعه.

كانت الحافلة تنتظر تحت أشعة الشمس، ومحرّك الديزل الدائر يرجّها. وكنت مغادرًا بها القرية في رحلة عودتي الطويلة إلى البيت في أوسلو، لأنتقل منها إلى القطار في إلفيرُم. يومها، وقف أبي خلفي مباشرة، هناك أمام الدكّان في الساحة ويده على رأسي. وما لبث أن شعّث شعري بلطف ومال نحوي قائلاً:

«ستكون بخير. تعرف أين تنـــزل في محطة إلفيرُم، ومن أي رصيف يقلع القطار، وفي أي وقت،» وتابع الحديث على هذا النحو بمزيد من التفاصيل، مضيفًا كلّ تلك الأشياء التي لا طائل منها، كما

لو أنني وأنا في الخامسة عشرة من العمر لن أستطيع القيام بهذه الرحلة وحدي بلا تعليمات. أنا الذي لطالما شعرت أنني أكبر من عمري، إنما لم أهتد إلى وسيلة تتيح لي إظهار هذا، ولو فعلت فمن المستبعد أن ألاقي منه قبولاً.

«كان هذا الصيف مميّزًا. نحن بالتأكيد متّفقان على ذلك،» قال وهو مازال واقفًا خلفي ويده على رأسي. لكنه كفّ عن العبث بشعري آنذاك، وانبرى يشدّه بقوة آلمتني قليلاً. ولم أقل شيئًا ليفلته. مال نحوي ثانية وقال:

«لكنها الحياة. هذا ما تتعلّمه منها عندما تطرأ الأحداث. لا سيّما في سنّك. وليس أمامك إلا أن تلاحظها وتتذكّر أن تسترجعها في ذهنك لاحقًا، وأن لا تنسى، ولا تشعر بالمرارة. أتفهم؟»

«نعم،» أجبتُ بصوت عالٍ.

«أتفهم؟» قال، وأجبت بنعم مرّة أخرى وهززت رأسي. عندئذ لاحظ أنه يقبض على شعري، فأفلته مطلقًا ضحكة قصيرة لم أفهمها لأنني لم أر وجهه. ومع أنني سمعت ما قاله لم أعرف إن كنت قد فهمت حقًا. وكيف لي ذلك؟ ثم إنني لم أدرك لماذا استعمل تلك الكلمات بالتحديد. لكنني لاحقًا فكّرت في الأمر أكثر من ألف مرّة، لأنه في اللحظة التي تلت أمسك كتفي برفق وأدارني، مرّر يده على شعري من جديد، تأمّلني بعينين نصف مغمضتين وبشبه ابتسامة لطالما أحببتها منه وقال:

«ستركب الحافلة، وتنتقل منها في إلفيرُم إلى القطار الذي سيأخذك إلى أوسلو، وسأنهي أشغالي هنا، وعندما يتمّ لي ذلك سأوافيك. أهذا جيّد؟»

«نعم، جيّد،» قلت وشعور جليديّ يستقرّ في رأس معدتي، لأن ذاك لم يكن جيّدًا. فتلك الكلمة سمعتها من قبل. والسؤال الجوهري الذي طرحته على نفسي مرّة تلو مرّة في الفترة التي تلت؛ أتراه قد حدث شيء خارج عن سيطرته، أم تراه كان يعرف آنذاك أنه لن يوافيني أبدًا. وأن تلك هي المرّة الأخيرة التي يرى فيها أحدنا الآخر.

ركبت الحافلة بالطبع. جلست وحقيبة الظهر في حضني، والتفتّ لأحدّق من النافذة في الدكّان والجسر فوق النهر، وفي أبي الواقف هناك طويلاً أسمر ونحيلاً في ظلّ شجرة البلّوط المتمايل، وفي السماء التي لم أرها قطّ أكثر اتساعًا وأشدّ زرقة من صيف 1948 فوق تلك القرية بالتحديد. أقلعت الحافلة منعطفة بنصف دائرة تجاه الطريق. ضغطت أنفي على الزجاج وحملقت في غمامة الغبار المتصاعدة ببطء في الخارج، مخفية أبي وسط دوّامة رمادية وبنيّة. فعلت حينها كلّ ما يفترض بالمرء أن يفعله في حالة كتلك، بطريقة مسرحية؛ قمت بسرعة وجريت على طول الممرّ بين المقاعد إلى الصفّ الأخير منها، وقفزت على أحدها بركبتي أولاً واضعًا يدي على النافذة وحدّقت في الطريق. حدّقت إلى أن غيّب منعطفٌ الدكّانَ وشجرةَ البلّوط وأبي. فعلت ذلك كلّه كما لو أنني تدرّبت عليه جيّدًا في الفيلم الذي لا ريب أننا شاهدناه مرارًا، حيث الوداع الفاجع هو الحدث الحاسم، وبه تتغيّر حياة الأبطال إلى الأبد، وتتخذ اتجاهات غير متوقّعة وليست دائمًا مستحبّة. وجميع الحضور في صالة السينما يعرفون

كيف ستنتهي. بعضهم يكمّون أفواههم بأيديهم، وبعضهم يلوكون مناديلهم والدموع تسيل على وجناتهم، وبعضهم يزدردون ريقهم بصعوبة لعلهم يتخلّصون من الغصّة في حلوقهم، وعيونهم تطرف أمام شاشة تحولت إلى مزيج من الألوان المنحلّة. وآخرون تراهم في هياج شديد يكاد يدفعهم إلى النهوض والمغادرة، لأنهم عاشوا تجربة مماثلة في حياتهم و لم يصفحوا عنها قطّ. ولا يلبث أحد هؤلاء أن يهبّ من مقعده في الظلام ويصيح:

«أيها الوغد اللعين،» مخاطبًا الشخص الواقف تحت شجرة البلّوط وقد ظهر مؤخّر رأسه في المشهد. يفعل ذلك بالأصالة عن نفسه، وبالأصالة عنّي. فأشكره على مساندته لي. لكن النقطة الأساسية في كلّ ذلك هي أنني لم أعلم آنذاك كيف ستنتهي الأمور. لا أحد أخبرني! و لم أملك سبيلاً لأعرف ماذا يقبع وراء المشهد الذي عشته. لم أملك إلا أن أواصل اندفاعي ذهابًا وإيابًا من مقعدي إلى النافذة الخلفية والشعور بخطر داهم ومبهم يجتاحني. جلست ونهضت ثانية. ذرعت ممرّ الحافلة رواحًا ومجيئًا، جلست في مقعد آخر، ثم تركته. استمرّ بي الحال هكذا طوال وجودي وحدي في الحافلة. رأيت عيني السائق في المرآة الأمامية تراقبانني وهو في الوقت نفسه يناور بالحافلة على الطريق الترابي المتعرّج. لا ريب في أنني أزعجته. ومع أنه لم يقل أيّ شيء على الإطلاق، لم يستطع الكفّ عن مراقبتي. وفي موقف منتصف الطريق إلى إنبغدا، حيث تلوّى النهر واختفى في الغابة متجهًا إلى السويد، ركبت معنا عائلتان لديهما أطفال وكلاب وحقائب بمقطورات، ولدى

إحدى النسوة دجاجة في قفص راحت تقوقئ وتقوقئ طوال الطريق. أرغمت نفسي على الاستكانة في مقعدي، ونمت أخيرًا والنافذة المهتزّة ترجرج رأسي وهدير محرّك الديزل يطنّ في أذني.

أفتح عينيّ. أشعر بثقل رأسي على الوسادة. كنت نائمًا. أرفع يدي وأنظر إلى ساعتي. نمت نصف ساعة. هذا ليس بالأمر العادي. فأنا نهضت للتوّ، ومتأخرًا جدًا. أتراني منهكًا إلى هذا الحدّ؟

يعمّ ضوء النهار في الخارج. أنتفض قاعدًا، وأدلّي ساقيّ من فوق حافة السرير. فجأة ينتابني دوار شديد، فأخرّ إلى الأمام بلا حول ولا قوة. يشعّ وميض في عينيّ وأنا أتخبّط هاويًا على الأرض التي تصطدم بها كتفي أولاً. أطلق أنينًا عاليًا وغريبًا ما إن أحطّ أرضًا. ها أنا منبطح هنا، والألم يعتصرني. سأهلك. أتنفّس بحذر حريصًا على عدم بذل جهد كبير. هذا ليس سهلاً. لا يزال الوقت مبكرًا على موتي. لست إلا في السابعة والستين من العمر، وأنا صحيح البنية. أمشي مع ليرا ثلاث مرات يوميًا، آكل طعامًا صحيًا، وتوقّفت عن التدخين منذ عشرين سنة. يفترض أن هذا كافٍ. ثم إنني في جميع الأحوال لا أريد أن أموت هكذا. حريّ بي أن أقوم بحركة ما، لكنني لا أجرؤ على المحاولة، فقد أفشل. وما العمل في هذه الحالة؟ ليس عندي هاتف. أرجأت اتخاذ القرار بشأنه، لأنني لا أريد أن يتصل بي أحد. والآن، من الواضح أنني أنا أيضًا لا أستطيع الاتصال بأحد. أعترف بهذا، خصوصًا في هذه اللحظة.

أغمض عينيّ وأبقى بلا حراك. الأرض تحت وجنتي باردة، وتفوح منها رائحة الغبار. أسمع ليرا تتنفّس قرب الموقد في المطبخ. موعد نزهتها فات منذ وقت طويل. لكنها صبورة ولا تتذمّر. أشعر بشيء من الغثيان. يُفترض أن ينبئني هذا بشيء. لكنه لا ينبئني بأيّ شيء. إنه غثيان فقط. ثم يتملّكني الغضب، فأغمض عيني وأعصرهما بقوّة لأثبّت نظري الزائغ، أنطوي حتى تصبح ركبتاي تحتي، ثم وبإحدى يديّ على إطار الباب أنشل جسمي بحذر. أنجح في ذلك على الرغم من ركبتيّ المصطكّتين. أبقي عينيّ مغمضتين إلى أن لا يتبقّى أيّ أثر للدوار. أفتحهما بعد ذلك وأتطلّع مباشرة إلى ليرا التي تقف أمامي على أرض المطبخ وعيناها الذكيّتان تنظران في عيني بيقظة.

«كلبة طيّبة،» أقول ولا يعتريني أيّ شعور بالحمق، «سنخرج الآن.»

وهذا ما نفعله. أذهب إلى الرواق بساقين مرتعشتين قليلاً، أضع سترتي وأزرّرها بلا مشقّة تُذكر، وأخرج إلى العتبة وليرا في أعقابي حيث أنتعل جزمتي. أعير جسمي أذنًا صاغية بتركيز عظيم، لأرى ما إذا قد تأذّى شيء في نظامه الآلي المضبوط بدقّة حتى وإن شاخ الجسم. إنما ليس من السهل التأكّد. وبمعزل عن شعور طفيف بالغثيان وكتف متألمة، يبدو كلّ شيء طبيعيًا. ربما بقايا دوار طفيف يتجاوز حدود المعتاد. وهذا بالطبع ليس مستغربًا وقد وقفت بعد أن غبت عن الوعي.

أحاول ألا أنظر إلى البتولة، وهذا صعب، لعدم وجود مواضع

كثيرة أثبّت عليها نظري أينما توجّهت. أضيّق عينيّ وأمشي قريبًا من جدار البيت متحاشيًا الأغصان الطويلة، وأضطرّ إلى تنحية أحدها عن طريقي، ثم تنحية آخر. أنسلّ من بينها إلى الطريق، أستدبر الفناء وأحثّ الخطى نحو الدرب إلى النهر وكوخ لارس، وليرا تطفر أمامي بخطى راقصة. أنعطف إلى الطريق المجاور للجسر وأمشي بإزاء الجدول لأقف أخيرًا عند الضفّة القريبة من مصبّ النهر. إنه تشرين الثاني، من موضعي أرى المقعد الذي جلست عليه مساء أمس في الظلمة العاصفة، وأرى بجعتين باهتتين في الماء الرمادي، وأشجارًا جرداء تحتضنها شمس الصباح الفاترة، والغابة الكامدة الخضرة في طرف البحيرة الآخر يغشاها من الجنوب ضباب حليبي اللون. إنها سكينة خارجة عن المألوف. مثل صباح أيّام الأحد في صغري، أو أيّام الجمعة العظيمة، حينما يصبح وقع تفقيع الأصابع مثل طلقات عيار ناريّ. أسمع لهاث ليرا من ورائي، وأشعّة الشمس الواهنة تخترق عينيّ. فجأة أشعر بغثيان شديد، فأنحني إلى الأمام وأتقيّأ على العشب الذابل. أغمض عينيّ، يدور رأسي. اللعنة، لست على ما يرام، أفتح عينيّ ثانية، أرى ليرا واقفة تراقبني، ثم تتقدّم لتشمّ ما أخرجته من جوفي.

«لا،» أصيح بحدّة استثنائية، «كفّي عن ذلك،» فتستدير بسرعة وتجري على طول الدرب، تقف، وتنظر إليّ ولسانها متدلٍّ من فمها.

«لا بأس، لا بأس، سنواصل نزهتنا،» أقول وأشرع في المشي مجدّدًا. فترت حدّة غثياني. ولو سرت الهوينى فسأنجح في الالتفاف حول البحيرة، أم تراني لن أستطيع؟ لا أدري. أمسح فمي بمنديل،

وأمسح العرق من على جبيني. أمضي مباشرة إلى تخوم القصب وأتهالك على المقعد. ها أنا ذا أجلس هنا ثانية. توغل بجعة في اليابسة، نعم، سرعان ما ستتجلّد البحيرة.

أغمض عينيّ. أتذكّر فجأة حلمًا أبصرته الليلة الماضية. هذا غريب، فهو لم يكن في رأسي لما استيقظت، لكنه الآن واضح جدًا. رأيتني في غرفة النوم مع زوجتي الأولى، لم تكن غرفة نومنا، وكنا في الثلاثينات من العمر. أنا متأكّد، لأن جسمي بدا كذلك. كنا قد انتهينا من ممارسة الجنس، وقد بذلت فيه ما وسعني من طاقتي، وهي في العادة أكثر من جيّدة. أو على الأقلّ هكذا درجت على الاعتقاد. هي مستلقية على السرير، وأنا واقف عند منضدة الزينة والمرآة تعكس جسمي بأكمله باستثناء رأسي. بدوت وسيمًا في الحلم، أفضل مما أنا عليه في الواقع. نحّت اللحاف جانبًا ورأيت أنها هي أيضًا عارية وحسناء، جميلة على نحو مثير للاستغراب فعلاً، ولا تشبه كثيرًا المرأة التي ضاجعتها للتوّ. رمتني بنظرة لطالما خشيتها وقالت:

«أنت مجرّد واحد من كثيرين بالطبع.» وقعدت، عارية ومتثاقلة كعهدي بها، فملأتني بالتقزّز حتى حلقي، وبالذعر في الوقت نفسه، فصحت:

«مستحيل. لا، أنا لست كذلك.» وشرعت في البكاء، لأنني علمت أن هذا اليوم سيأتي، وعرفت لحظتها أن جلّ ما أخشاه في هذا العالم أن أكون ذاك الرجل في لوحة رينيه ماغريت الذي ينظر إلى نفسه في المرآة ويرى فيها فقط مؤخّر رأسه هو مرارًا وتكرارًا.

II

١٠

كنت أنا وفرانز في مطبخ بيته الصغير القائم على الصخر قرب النهر. والشمس التي دخلت من النافذة تشعّ ساطعة على الطاولة. جلس كلّ منا هناك وأمامه صحن أبيض وفنجان أبيض فيه قهوة بُنيّة. قهوة صُبّت من إبريق لامع مصقول وُضِع على موقدٍ يبقيه فرانز مشتعلاً صيفًا وشتاءً، كما قال. وفي الصيف يكتفي بفتح النوافذ. المطبخ، كما هو متّبع في القرية، مطليّ باللون الأزرق، وذلك لطرد الذباب حسب ما يقولون. وهذا على الأرجح صحيح. أما الأثاث فقد صنعه فرانز كلّه بنفسه. شعرتُ بالارتياح هناك. تناولت الإبريق وسكبت بعض الحليب في فنجاني ما جعل القهوة أسلس، وأقرب إلى لون الضوء وأخفّ نوعًا ما. أغمضت عينيّ نصف إغماضة ورنوت إلى الماء يجري مارًّا من تحت النافذة، رقراقًا ومتلألئًا مثل آلاف النجوم؛ مثل درب التبّانة في الخريف عندما تندفع المجرّة أحيانًا متماوجة وملتوية في سريان لا نهائي عبر الليل. وبإمكانك أن تستلقي قرب ممرّ

أوسلو البحري في قلب الظلمة الهائلة وظهرك على الصخور الصلبة المنحدرة، تحملق في السماء إلى أن تؤلمك عيناك. وتشعر بثقل الكون يطبق على صدرك إلى أن تكاد تعجز عن التنفّس. أو على عكس ذلك، يرقى بك، فتطفو ببساطة كأنّك لست إلا بقعة جسم بشري في فراغ لا متناه لا عودة لك منه مطلقًا. مجرّد التفكير في الأمر قد يجعلك تتلاشى قليلاً.

استدرتُ ونظرت إلى وشم النجمة الحمراء على ساعد فرانز. رأيتها متوهّجة في ضوء الشمس ومتموّجة كالعلم كلّما حرّك أصابعه أو شدّ قبضته. وغالبًا ما يفعل هذا. لا ريب في أنه كان شيوعيًا، مثل الكثير من عمّال الغابات، وذلك بسبب حجج منطقية، كما قال أبي.

هذا ما رواه لي فرانز.

في سنة 1942 جاء أبي من الشمال عن طريق الغابة، بحثًا عن مكان قريب من الحدود، ليحتمي فيه كلّما اضطر إلى قصد السويد ومعه رسائل ووثائق وأحيانًا أفلام للمقاومة. وبعد أن ينجز مهمّته ويطمس معالم آثاره يعود إليه. مكان يستطيع استخدامه مرّات كثيرة. لم يكن في عجلة من أمره آنذاك، لأنه لم يجد ما يدفعه إلى الفرار. أو لم يتصرّف كأنه كذلك. لم يحاول الاختفاء عن الأنظار، وبدا منفتحًا وودودًا مع جميع من التقاهم. ما يبتغيه هو موضع يستطيع التفكّر فيه، هكذا قال لهم، ولسبب ما، لا أحد شكّ في هذا التبرير. فهو بالنسبة إليهم قد جاء من الداخل. هل كنت في الداخل؟ اعتادوا أن يقولوا حينما يرجع شخص ما تسنّى له في مناسبات قليلة الذهاب إلى

العاصمة. كان الناس مختلفين هناك. الجميع عرف هذا. ولذلك بدا لهم ما قاله منطقيًا. أراد مقرًّا يستطيع التفكير فيه. وبقدر ما يعنيهم الأمر في وسع الآخرين أن يستكينوا للتفكير وقتما يشاؤون حيثما يصدف وجودهم. لا شيء في هذا يستدعي إثارة بلبلة.

فرانز وحده عرف سبب رغبته الحقيقي في الحصول على مكان ما. فكلّ منهما كان على دراية بحقيقة الآخر من قبل، بيد أنهما لم يلتقيا وجهًا لوجه إلا يوم ارتقى أبي درج بيت فرانز وطرق بابه ناطقًا بكلمة السرّ:

«لنخرج ونسرق الخيول. ما رأيك؟»

أشحتُ بوجهي عن النافذة وحدّقت في فرانز.

«ماذا؟ ماذا قال لك؟»

«قال لنخرج ونسرق الخيول. لا أعلم من اخترع هذه الجملة. لعلّه أبوك بنفسه. ليست فكرتي على أيّ حال، لكنني عرفت مسبقًا ما سيقول من رسالة جاءت من إنبغدا في الحافلة.»

«آهاه.»

«أحببته للفور. هذه حقيقة،» قال فرانز. ومن قد لا يفعل؟ فالرجال لطالما أعجبوا بأبي، واستلطفته النساء. ولا أعرف أحدًا لم يفعل، ما عدا والد جون ربما، إنما هذا يتعلّق بأسباب أخرى. وخطر لي أن أحدهما لن يحمل أيّ ضغينة للآخر لو تسنّى لهما اللقاء في ظروف أخرى، وربما تنشأ بينهما صداقة. ما أستغربه هو أن هذا مخالف لما لاحظته مرّات كثيرة في فترات لاحقة من حياتي؛ أعني أن شخصًا محبوبًا جدًا من أناس كُثر غالبًا ما يكون هامشيًا وساذجًا ويتحاشى الصدام معهم. وأبي لم يكن هكذا على الإطلاق. صحيح

أنه درج على الضحك والابتسام كثيرًا، بيد أنه فعل ذلك لأنه من صميم طبعه، وليس شيئًا مفتعلاً ليرضي حاجة الناس إلى الانسجام، ليس ليرضيني في جميع الأحوال. وقد أحببته كثيرًا، مع أنه أحيانًا جعلني أشعر بالحرج، ولا ريب في أن السبب يعود إلى أنني لم أعرفه كما يجدر بالابن أن يعرف أباه. فهو غالبًا ما غاب عنّا في سنوات سابقة. وفي أثناء وجود الألمان في بلادنا، كثيرًا ما مرّت شهور من غير أن أراه. وحينما عاد أخيرًا ووطئت قدماه الشوارع مثل أيّ شخص آخر، وجدت أنه قد تغيّر بطريقة صعب عليّ تحديدها بدقّة. كان كلّما عاد إلى البيت اكتشفت أنه مختلف قليلاً. ولطالما اضطررت إلى التركيز بعمق لأواكبه.

مع ذلك، لم يداخلني الشكّ قطّ بما لي من مكانة خاصّة في قلبه، ولا بما لأختي من مكانة. لولا أن مكانتي أكثر تميّزًا، ربما لأنني ولد وهو رجل. ولم يطرأ على ذهني مطلقًا أنني لا أحتلّ تفكيره عندما لا يجمعنا مكان واحد، سواء في فترات غيابه القصيرة أو الطويلة. كالفترة التي جاء فيها إلى هذه القرية سنة 1942، وبقيت أنا في مسقط رأسي، في بيتنا المجاور لخليج أوسلو، أقصد المدرسة يوميًا، وأقبع هناك أحلم برحلات نقوم بها معًا ما بعد أن يُهزم الألمان ويغادروا إلى الأبد. وهو في تلك الأثناء يبحث عن مكان يستطيع التفكّر فيه، كما قال، ويستخدمه مخبأً وقاعدة انطلاقٍ للعبور إلى السويد ومعه وثائق للمقاومة وأفلام أحيانًا.

فرانز بنفسه هو من دلّ أبي على الشاليه الصيفية، بعد أن شغرت في إثر إغلاق رهنها قبل الحرب. ومنذاك بقيت خالية لأربع سنوات. ثم تدخّل باركالد واشترى الأرض الزراعية الصغيرة التي تقع فيها،

بثمنٍ بخس طبعًا. أي إنه كان في الحقيقة صاحب تلك الملكية. لكنه لم يستخدمها لشيء، وتركها تتداعى. وقبلها تداعى الإسطبل، لأنه لم يكن يمتلك ماشية ليستخدمه. أحبّ أبي المكان في الحال، خصوصًا لأنه يقع على ضفّة النهر الشرقية، وعلى مسافة ما يقارب عشرين دقيقة مشيًا إلى أقرب جسر. وكذلك لعدم وجود أي بناء آخر وراء تخوم تلك الملكية، ولا حتى مجرّد كوخ إلا بعد تجاوز الجهة السويدية من الحدود بمسافة جيّدة. إنما هذا ليس كلّ شيء. فحسب رأي فرانز طابت لأبي الإقامة هناك. طاب له إنجاز تلك الأعمال الضرورية لجعل كلّ ما يفعله يبدو مبرّرًا، وأنه لا بدّ منه؛ مثل جزّ العشب، وجرد مخلّفات الإسطبل وحرقها، وتثبيت قرميد السطح، وإزالة العلّيق من على ضفّة النهر، أو إصلاح السقف وتجديد جملون البيت، وتبديل زجاج النوافذ المكسور. وهكذا، ملّط الموقد، ونظّف المدخنة، وصنع كرسيين جديدين، وقام بجميع تلك الأمور التي برع فيها بالسليقة، والتي لم يجد لها الوقت ولا الفرصة في أوسلو. فهناك كنّا قد استأجرنا بالقرب من محطة ليان بيتًا في الطابق الثاني من بناء سويسري كبير بثلاثة طوابق؛ بيتًا يتألف من ثلاث غرف ومطبخ، ويطلّ على منظر داخلي لخليج أوسلو وخليج بونّي.

لم يقصد أن تطول إقاماته هناك، أراد فقط وقتًا كافيًا ليألف الناس رؤيته في الطرف الآخر من النهر؛ سواء وهو يصعد إلى السقف، أو وهو يقتعد إحدى الصخور عند النهر يتأمّل، كما زعم، لأن عليه البقاء قريبًا من الماء ليتسنّى له ذلك. ومع أن هذا أيضًا بدا للناس غريبًا نوعًا ما، إلا أنه لم يستدع منهم التساؤل. وكثيرًا ما رأوه يجتاز مرج باركالد بالحقيبة الفارغة على كتفه، قاصدًا الدكّان في موعد

وصول الحافلة من إنبغدا وإلفيرُم، أو رأوه في طريق عودته حاملاً مؤونته وأشياء أخرى ربما. لكنه كلّما ذهب إلى السويد ليسلّم ما لديه للشخص الذي ينتظره، وعاد مجتازًا الحدود تحت ستر الظلام، تبدّى له أنه ما زال لديه الكثير من الأعمال التي تتطلّب الإصلاح أو التحسين قبل العودة إلى أوسلو ثانية. وبهذه الطريقة ما انفكّ يطيل مدّة مكوثه، ليجزّ العشب مرّة أخرى، أو ليصلح عمود المدخنة الحجري قبل المغادرة، لأنه انفلق من الأعلى إلى الأسفل، وقد ينهار فيتطاير القرميد ويصيب رأس أحدهم. وهكذا أسّس لنفسه في غضون سنتين حياة بديلة، لم نعرف عنها شيئًا، نحن أسرته في أوسلو. ولا أعني أنني فكّرت في الأمر على هذا النحو عندما جلست أنا وفرانز في مطبخه وحدّثني عن أبي. أبي الذي استقرّ في مزرعة باركالد الخربة قبل ما يزيد عن خمس سنوات، ليؤمّن لنفسه الغطاء بصفته آخر رسول اتصال مع السويد، والحرب في النرويج في سنتها الثانية. وبدأ هناك ما أسموه «التهريب». لم أدرك إلا بعد الكثير من السنوات لاحقًا أن هذه هي الحياة التي يريدها. فقد أمضى من الوقت في القرية عند النهر، بقدر ما أمضى من وقت معنا على مقربة من خليج بونّي. لكننا لم نعرف عن الأمر شيئًا، ولم يُفترض بنا أن نعرف؛ لم يفترض بنا أن نعرف أنه يذهب إلى مكان واحد فقط، ولا أن نعرف أين هو ذلك المكان. لم نعرف قطّ أين هو. اعتاد أن يرحل، ثم يعود إلى البيت ثانية. ربما بعد أسبوع، أو بعد شهر. وما لبثنا أن ألفنا فكرة العيش من دونه، من يوم إلى يوم، ومن أسبوع إلى أسبوع. ومع ذلك لم أكفّ مطلقًا عن التفكير فيه.

**

كلّ ما رواه لي فرانز كان أخبارًا جديدة بالنسبة لي، ولم أجد مبرّرًا لأشكّك في أيّ شيء قاله. إنما ما الداعي لأن يحدّثني عن تلك الأيّام بينما لم يفعل أبي ذلك قطّ. كان هذا تساؤلاً قبعت أفكّر فيه وهو يتابع الكلام. ولم أدر ما إذا كنت سأحصل منه على إجابة تقنعني في حال طرحت السؤال عليه. إذ لا بدّ من أنه اعتقد أنني مطلّع على كلّ شيء، وأنني استأنست فقط بسماع رواية أخرى للأحداث. تساءلت أيضًا لِمَ لم يذكر لي لا صديقي جون ولا أمّه ولا أبوه ولا صاحب الدكّان الذي لطالما دردشت معه، ولا باركالد ولا أيّ مخلوق فان آخر شيئًا عن هذا؛ عن أن أبي غالبًا ما تردّد على القرية قبل أربع سنوات فقط، وأنه على الرغم من استقراره على ضفّة النهر الأخرى، حيث الشاليهات الصيفية، اعتُبِر تقريبًا من المقيمين. لكنني لم أطرح هذا السؤال.

كانت ثمّة دورية ألمانية تتمركز بشكل دائم في أقرب مزرعة إلى الكنيسة والدكّان. وكان الألمان قد صادروا تلك المزرعة بعد طَرد أهلها منها ودفعهم إلى الإقامة في مأوى عجزة اكتظّ بما يكفي من الناس. وعند المسار الحصوي المؤدي إلى الجسر فوق النهر، يقف حارس أحيانًا وليس دائمًا وهو يحمل رشّاشًا بحزام معلّق على كتفه، وسيجارة في فمه إذا نأى عن أنظار قادته. في بعض الأوقات، يقتعد صخرة ورشّاشه على الأرض أمامه، ثم يخلع خوذته لينهمك مطوّلاً في حكّ شعره الملبّد، يدخّن ويحدّق في جزمته اللامعة وفي الفراغ ما بين ركبتيه إلى أن تحترق السيجارة بين أصابعه، ولا يكاد بعد ذلك يستطيع معاودة الوقوف ثانية. والنهر من ورائه يندفع نحو المنحدر،

بنغمة رتيبة، حسب ما يتراءى له. كان وضع أولئك الجنود هناك أفضل من الجبهة الشرقية. لكنهم شعروا بالضجر لأنّ شيئًا لم يحدث في بقعتهم، على الرغم من احتدام المعارك في أماكن أخرى.

كان أبي كلّما قرّر اتخاذ ذلك المسار، حيث يقطع الجسر مارًّا ببيت فرانز، ثم منحدرًا على الدرب الحصوي الضيّق شرقي النهر، توقّف أولاً ليدردش مع الحارس الألماني. وعلى غرار كثير من الناس في تلك الأيام كان يتقن اللغة الألمانية. فحتى السبعينات اعتُبرت الألمانية لغة إجبارية في المدرسة سواء شئت ذلك أم أبيت. لم يلتق أبي بالحارس نفسه في كلّ مرة، مع أن أولئك الجنود جميعًا بدوا متشابهين، وقليل من الناس فقط استطاع التمييز بينهم. لكن معظم أولئك الناس لم يشغلوا بالهم بهم، ولا بتمييزهم، وفضّلوا بدلاً من ذلك التظاهر بأن أولئك الجنود غير موجودين، بل وفجأة نسوا ما سبق لهم أن تعلّموه من الألمانية. أما أبي فسرعان ما عرف مسقط رأس كلّ واحد منهم في ألمانيا، وهل لهم زوجات هناك. هل يفضّلون كرة القدم أو ألعاب القوى أو ربما السباحة. وهل تراهم يفتقدون أمهاتهم. كانوا أصغر منه بعشر أو بخمس عشرة سنة وأحيانًا أكثر. ومع ذلك حادثهم بأسلوب دمث، شيء لم يفعله الكثير غيره. ولطالما لمح فرانز من نافذته أبي واقفًا أمام الرجل ذي البزّة الخضراء والرمادية، أو بالأحرى الفتى، وأحدهما يضيّف الآخر سيجارة، والآخر يشعلها له، حسب مَن قام بدور المضيف. وحتى عندما لا توجد أي ريح، يحمي صاحب الثقاب الشعلةَ بباطن يده، ويميل جسما الرجلين بمودّة فوق تلك الشعلة الصغيرة. وفي أويقات المساء، تضيء الشعلة وجهيهما ببريق أصفر. وبعد ذلك يبقيان هناك عند الدرب الحصوي في الهواء

الساكن يدردشان ويدخّنان إلى أن تحترق سيجارتاهما حتى العقبين، فيسحقانهما بجزمتيهما. عندئذ يرفع أبي يده ويقول بالألمانية «gute Nacht» ويسمع مقابلها «gute Nacht» مفعمة بالامتنان. ولا يلبث أن يقطع الجسر مبتسمًا، ثم ينحدر إلى طريق الشاليه وحقيبة الظهر الرثّة وما تحتويه على ظهره. لم يغب عنه قطّ أنه إذا قام بأيّ حركة مفاجئة، كأن يستدير بغتة ويشرع في الجري، سينتزع الفتى الألماني رشّاشه من على كتفه بسرعة البرق ويصيح: «قف!»، وإذا لم يتوقّف من فوره سينهال عليه وابل من الرصاص، قد يرديه قتيلاً.

في أحيان أخرى، سلك أبي الطريق الرئيسي بحقيبة أكثر اكتنازًا واستدار نحو المروج على طول سياج باركالد وعبر النهر بالقارب. وفي طريقه يلوّح بيده للناس الذين يراهم، سواء من الألمان أو النرويجيين، ولا أحد منهم استوقفه. فالجميع عرف من هو؛ إنه الرجل الذي يرمّم شاليه باركالد. سبق لهم أن تقصّوا أمره من باركالد، وأكّد لهم بدوره ذلك. ثم إنهم قصدوا المكان ثلاث مرّات، ووجدوا مجموعة من الأدوات، وكتابين للمؤلف النرويجي هامسن لاقيا منهم قبولاً، وهما ''بان'' و ''الجوع''. ولم يعثروا مطلقًا على أيّ شيء مشبوه. كان بالنسبة إليهم الرجل الذي يغادر القرية في فترات منتظمة بالحافلة، ويغيب لمدة غير قصيرة، بسبب انشغاله بمشاريع أخرى مماثلة. ولا شيء غير سليم في مستندات إقامته، ولا في أوراقه الثبوتية الأخرى.

أبقى أبي العملية مستمرّة لسنتين على امتداد الصيف والشتاء. وإذا لم يكن في الشاليه، ناب عنه في المرحلة الأخيرة من الرحلة عبر الحدود شخص آخر من القرية. قام فرانز بذلك مرّة أو مرّتين، وأمّ جون

عندما تواتيها الظروف، لأن الجميع في المقاطعة يعرفون روتين كلّ فرد هناك، وأيّ شيء خارج المألوف يُلاحظ فورًا، وسرعان ما يُدوّن في السجلّ الذي نحفظ فيه مآخذنا على حياة الآخرين، ليُستعمل لاحقًا. لكن أبي عاد دومًا، وأولئك الذين لا يُفترض بهم أن يطّلعوا على عملية «التهريب» بقوا كذلك. مثلي أنا من بين آخرين، وأمّي وأختي أيضًا. كان أحيانًا يجلب البريد بنفسه من الحافلة، أو من الدكّان سواء قبل موعد إغلاقه أو بعده. في أحيان أخرى تكفّلت أمّ جون بالمهمّة، وجلبته معها كلّما عبرت النهر ومعها طعام طلب منها باركالد إعداده، لأنه ينبغي إطعام العامل، أو هذا ما زعموه، كما لو أنه عاجز عن تدبّر أمر موقد الطهي بنفسه ويحتاج إلى عون امرأة. إنه شيء غريب، فكّرت بيني وبين نفسي، أن يسعى إلى طلب المساعدة في ذلك، بينما لديه القدرة على معالجة معظم الأمور. بل كان في الحقيقة، كلما استدعت الحاجة، يبرع في الطبخ بقدر براعة أمّي. أنا أعرف هذا، رأيت طعامه وتذوقّته مرّات عديدة. المأخذ الوحيد عليه هو كسله في مثل تلك المهامّ. لذلك اعتدت أنا وهو، في أثناء بقائنا وحدنا، أن نأكل ما سمّيناه « أطعمة بسيطة». وهي في أغلب الأحيان بيض مقلي. وليس لدي أيّ اعتراض عليه. وعندما يتوافر لدينا المال، الأمر الذي لم يحصل دائمًا، وتتسلّم أمّي المطبخ، كنا نستمتع كثيرًا بما تسمّيه «وجبات كاملة».

مع ذلك، دأبت أمّ جون على تجديف قاربها إلى الشاليه مرّة أو مرّتين في الأسبوع، بطعام أو بلا طعام، ببريد أو بلا بريد، مؤدّية دور طاهية لأبي لينعم ببعض الوجبات الجيّدة، ولا يقع أسير المرض والإعياء بسبب غذاء غير متوازن. غذاء يحلف به عمومًا الرجال

الذين يعيشون وحدهم، ولكنه غير مناسب بما يكفي ليجعل أبي ينجز العمل المطلوب منه. على الأقلّ هكذا برّر باركالد الأمر كلّما قصد الدكّان.

لم يشاركهم والد جون في أيّ من ذلك. لم يكن ضدّ ما يفعلونه، ولم يسمعه أحد يعلّق مطلقًا، فرانز في أدنى الأحوال لم يسمعه. كلّ ما في الأمر أنه فضّل ألاّ يكون له دور في «التهريب». درج على الإشاحة بوجهه بعيدًا عندما يحدث شيء. أشاح بوجهه كلّما قصدت زوجته النهر بسلّتها، وركبت القارب الأحمر واتجهت به إلى أبي. وأشاح بوجهه عندما أحضروا رجلاً غريبًا يعتمر قبّعة رسمية وذراعاه تحتضنان حقيبة محزومة بإحكام، وأدخلوه إلى مستودعه بلا ضجيج ساعة الغروب. وبقي الغريب هناك وحده يجلس على عجلة عربة نقل، بملابسه غير الملائمة، مرتبكًا وصامتًا ينتظر حلول الظلام. وعندما أُخذ الغريب بالقارب في الليل إلى عالية النهر، بلا أيّ جلبة، واقتيد أولاً عبر الفناء، ثم نحو مربط القوارب، ولم تُنطق كلمة واحدة، ولم يُشعل أي ضوء، لم يعلّق على ذلك أيضًا. لا يومذاك ولا لاحقًا، حتى بعد أن فطن إلى أنه الأول من عدّة رجال آخرين سيأتون بعده، لأن ما مرّ بالقرية في طريقه إلى عبور الحدود إلى السويد لم يعد يقتصر في تلك الآونة على البريد فقط.

ثم وقع حدث. كان الوقت في أواخر الخريف. وعلى الرغم من سقوط الثلج لم يتشكّل الجليد على الماء في أي مكان، ما جعل من السهل على المرء التجديف في النهر. كان ذاك أمرًا جيدًا، لأنه باكرًا في ذات صباح، قبل أن يفيق الديك، كما قال فرانز، أوصِل رجل

يرتدي بذلة خفيفة إلى الطريق الرئيسي تحت جنح الظلام، فخاض في الثلج وحقيبته على ظهره ميمّمًا درب المزرعة، وقصد مباشرة فناء دار جون وأهله. كان الرجل ينتعل حذاءً صيفيًا خفيفًا. وعندما خرجت أمّ جون إلى عتبة الباب مدثّرة كتفيها بوشاح ومتأبّطة بطانية، رأت أن الرجل يكاد يموت بردًا ببنطلونه الفضفاض. كانت ساقاه ترتجفان ومعهما رفرفت رجلا بنطلونه وتماوجتا من وركيه إلى حذائه الخفيف. كان المنظر غريبًا، قالت لفرانز بعدما عادت من السويد في أيار سنة 1945، كأنه مشهد في سيرك. أعطته البطانية وأرشدته إلى مخزن الحبوب، حيث عليه أن يتوارى بين القشّ طوال ساعات النهار إلى أن يحلّ المساء، مدة اثنتي عشرة ساعة تقريبًا، لأن ضوء النهار يغيب في الخامسة مساءً، وهو قد وصل في الخامسة صباحًا. لم يستطع الرجل تقبّل ذلك. فقَدَ صوابه هناك، قالت أمّ جون. في الساعة الثانية انهار وعجز عن السيطرة على نفسه. راح يزعق بكلام مبهم، أمسك قضيب حديد وضرب وخبط به من حوله، حتى تساقطت نشارة الخشب من أعمدة السقف، وتكسّرت بعض مخاريط عجلة نقل العلف. تعالى صياحه وضجّ في الفناء، وربما وصل إلى عالية النهر، أو حتى إلى الطريق المنحدر حيث يقوم الألمان يوميًا بدوريتين أو ثلاث دوريات على الأقلّ، ليبقوا دائمًا على أهبة الاستعداد. ما لبثت البهائم في الحظيرة المجاورة أن هاجت. حمحمت براميلنا ورفست جدار مربضها، وخارت الأبقار في مرابطها كما لو أن الربيع قد أقبل والتوق إلى المرعى يمضّها. وهذا كلّه استلزم التصرّف بسرعة.

كان ينبغي إخراجه من المستودع. ينبغي إرساله إلى عالية النهر بلا أدنى تأخير. لكن ضوء النهار كان لا يزال سائدًا، ومن السهل

فيه استجلاء الأفق عبر الحقول ومن خلال الأشجار الجرداء، والثلج يغطي الأرض ويجعل كلّ شيء واضحًا وبَيِّـن الظلال، ويمكن من الطريق رؤية النهر على امتداد الأرض المنبسطة. مع ذلك، كان ينبغي أن يذهب. لم يكن جون قد عاد من المدرسة بعد، وعرفت أمّ جون أن توأميها في المطبخ، لما سمعتهما يضحكان ويتمرّغان على الأرض في عراك مفتعل كالمعتاد. فبادرت بهدوء إلى ارتداء ملابس سميكة وطاقية وقفازين، ثم نزلت درج العتبة إلى الفناء والمستودع. في اللحظة نفسها استيقظ زوجها على الأريكة وهبّ واقفًا. ولعلي هنا أبالغ قليلاً في افتراضاتي، إلا أنني مع ذلك مقتنع من أن كائنًا غريبًا كالشبح دخل البيت وجرّه من مكانه، وقذف به إلى الرواق حيث تتدلّى اللمبة المضاءة دوما أمام النافذة الصغيرة ليبصر الناس طريقهم في الظلام، وحيث عُلّقت فوق المشجب صورة أبيه ذي اللحية الطويلة بإطارها الذهبي. قُذف إلى الرواق ليقف مذهولاً بقدميه الحافيتين، هناك عند الباب الذي يفتح إلى الخارج ليمنع دخول الثلج حينما يسوء الطقس. وفي تلك اللحظة لم يشأ أن يشيح بوجهه. بل واصل التحديق في زوجته. أحسّت به من وراء ظهرها وقد تسمّر في مكانه، فاعتراها ذهول ألقى في قلبها الذعر. بيد أنها لم تلتفت، تقدّمت ورفعت الرتاج وفتحت باب المستودع الكبير. دخلت ومكثت هناك دهرًا. بقي زوجها حيث هو يحدّق. أخيرًا خرجت والغريب بين أذيالها. كانت تنتعل جزمتها المبطّنة، وتلبس سترتها، وهو ببذلته الرقيقة وحذائه الصيفي والحقيبة الرمادية على ظهره. وبدا مفتقرًا إلى الأناقة بسترته التي انتفخت وضاقت بعد أن ارتدى كنـــزة تحتها. كان قد تخلّى عن سلاحه لما خرج معها، فمضت كأنها تقتاده من يده تقريبًا، وهو

يتبعها مذعنًا ومتخاذلاً ومفكّك الأوصال، وربما منهكًا بعد ثوران خارج عن إرادته. لما مرّت بالبيت في منتصف طريقها من الفناء إلى رصيف القوارب التفتت فجأة ونظرت وراءها. رأت آثار قدميهما واضحة على الثلج، آثار قدمي الغريب على طول مسار المزرعة، ثم آثار قدميها من البيت إلى المستودع، وأخيرا آثارهما معًا انطلاقًا من المستودع إلى حيث وقفا في تلك اللحظة. كانت علامات الحذاء المدني الخفيف مميّزة ولا تشبه غيرها مما قد يراه المرء في المنطقة في ذلك الوقت من السنة. أطرقت تنظر إلى الأرض، مستحثّة أفكارها وهي تعضّ شفتها، في حين راح الغريب الذي انتابه القلق يشدّ كمّها.

«هيا،» قال بصوت خافت متوتّر «علينا أن نمضي،» وبدا وقع صوته كصوت طفل مدلّل. رفعت عينيها إلى زوجها الذي لا يزال واقفًا عند مدخل الباب، وجسمه الضخم يسدّ الفرجة بأكملها حائلاً دون تسرّب أي بصيص ضوء إلى الداخل.

«عليك أن تمشي فوق آثار قدميه لتطمسها. لا خيار لديك.» وعندما نطقت بتلك الكلمات تقبّض شيء ما في قسمات وجهه. لكنها لم تلاحظ، لأن صبر الغريب نفد فأفلت ذراعها ومضى تجاه رصيف القوارب. فأسرعت في إثره، وما لبثا أن انعطفا وراء البيت واختفيا عن الأنظار.

وقف هناك بجوربيه، يحملق في الفناء. وفي وسط السكون سمعهما يصعدان إلى القارب، وسمع صوت المجاديف وهي تُدخل في مساندها، وصوت الماء المكتوم لما لامس القارب الماء، وصرير الحديد الإيقاعي على الخشب وزوجته تجدّف بذراعيها القويتين؛ الذراعين اللتين يعرفهما جيدًا من معانقات لا تُحصى على مرّ الليالي والسنين

التي ولّت. إنما، ها هي مجدّدًا تقصد عالية النهر لتزور الرجل القادم من أوسلو الذي يعيش في تلك الشاليه. كلما ساءت الأمور اضطرّت إلى الذهاب إليه. كلّما أوشك شيء مهم يحدث اضطرّت إلى الذهاب إلى هناك. وها هي ذي تصحب في القارب معتوهًا خائفًا لا ريب في أنه من المدينة نفسها. تفعل ذلك في وضح النهار، والضوء الباهر ينعكس بقسوة على الثلج. ألقى نظرة أخيرة على الفناء واتخذ قرارًا لن يلبث أن يندم عليه. أغلق الباب ومضى إلى غرفة الجلوس وقعد. تناهى إليه من الجدار صوت التوأمين اللذين واصلا لهوهما في المطبخ، لأن كلّ شيء كان بالنسبة إليهما لا يزال على حاله.

١١

أجلس على المقعد فترة طويلة أسرّح نظري في البحيرة. ليرا تثب في شتّى الأنحاء. لا أعرف ما الذي يحدث. شيء ما ينـــزاح عنّي. اختفى غثياني، وأفكاري صافية. أشعر بالخفّة، كما لو أنني أنقذت. أُنقذت من حطام سفينة غارقة، من الهواجس، من الأرواح الشريرة. لقد جاء رقّاءٌ إلى هنا ثم غادر آخذًا معه الفوضى كلّها. أتنفّس بحرية. لا يزال المستقبل أمامي. أفكّر في الموسيقى. في الغالب سأشتري جهاز سي دي.

أبلغ الدرب المنحدر من ناحية الجسر وليرا في أعقابي. ألمح لارس واقفًا في فناء بيتي. يحمل بإحدى يديه منشار زنجير، ويده الأخرى تقبض على غصن من أغصان شجرة البتولا. يهزّ الشجرة، ولا تتزحزح بقدر ما أستطيع أن أرى. الغصن فقط تحرّك قليلاً. الشمس الآن أكثر صفرة، وضوؤها يبهر عينيّ. يعتمر لارس قبّعة مدبّبة مرخيّة

حتى حدود عينيه. عندما يحسّ بقدومي يلتفت، ويضطرّ تقريبًا إلى إمالة رأسه إلى الوراء لتتمكّن عيناه من مبادلة عينيّ النظر من تحت طرف القبّعة. يحاول بوكر وليرا أن يلعبا لعبة المطاردة حول البيت بقدر ما تسمح لهما الشجرة التي تسدّ الفناء. ثم يهاجم أحدهما الآخر في عراك مصطنع، يزمجران وينبحان ويتدحرجان على العشب وراء السقيفة مستمتعين بوقتهما.

يكشّر لارس ويهزّ الغص ثانية.

«هل نتصرّف؟»

«نعم، رجاءً،» أقول مسفرًا عن ابتسامة مفعمة بالحماسة. وأنا أعنيها بالتأكيد. فهذا شيء مريح بالنسبة لي. ولعلي في النهاية أستلطف لارس. لست واثقًا من هذا تمامًا بعد، ولكن قد ينتهي الأمر على هذا النحو. ولن أدهش.

«في هذه الحالة يُستحسن أن تقطع ذاك،» أقول مشيرًا إلى الغصن الذي هشّم المزراب وسدّ باب السقيفة. «لأن منشاري هناك.»

«سنعالج هذا سريعًا،» يقول وهو يسحب شرّاقة منشاره من نوع هوشكفارنا وليس جونسيريد. وهذا أيضًا يريحني بطريقة مضحكة، كما لو أننا نفعل شيئًا محظورًا علينا، إنما فيه متعة حقيقية. يسحب السلك مرّة أو مرّتين، يغلق الشرّاقة بعنف. ثم وهو يحكم قبضة متينة على السلك ويسحبه، يدع المنشار يغور في الغصن، فيدور ملعلعًا. في طرفة عين يُنتزع الغصن ويُقطع إلى أربعة أجزاء. وبهذا يصبح الطريق إلى الباب سالكًا. إنه منظر مشجّع. أنحّي جانبًا المزراب المتدلّي، وأدخل لأجلب منشاري الذي لا يزال على المقعد حيث تركته. آخذ صفيحة البنزين أيضًا. أعرف أن ليس فيها

الكثير. أضع المنشار أرضًا على أحد جانبيه، أجلس القرفصاء لأفكّ سدّادة خزّان الوقود وأصبّ البنزين. يمتلئ الخزّان وتفرغ الصفيحة. لا أهرق قطرة واحدة. يدي ثابتة. وهذا حسن حينما يوجد من يراقبنا.

«عندي صفيحتا بنـــزين في المستودع،» يقول لارس. «هكذا، يمكننا الاستمرار إلى أن ننتهي. لا مغزى من التوقّف للذهاب إلى القرية في حين لدينا عمل ينبغي إنجازه.»

«لا، لا مغزى على الإطلاق،» أجيب متيقّنًا من أن لا رغبة لي في ذلك؛ أعني الذهاب إلى القرية الآن. لا أريد شيئًا من الدكّان، وهذا ليس يومًا مناسبًا لإضاعة الوقت في المهاترات الاجتماعية. أشغّل محرّك الجونسيريد، وأنجح لحسن حظّي من المحاولة الأولى. وسرعان ما أنقضّ أنا ولارس على الشجرة من زاويتين مختلفتين؛ رجلان في الستّينات إلى السبعينات من العمر، فيهما رمق من قوّة، يضعان كاتمات صوت على أذنيهما لاتقاء الدويّ المُصِم لآلتي التقطيع وهما تنخران الخشب. نقف منحنيين فوق منشارينا، أذرعنا بعيدة عن جسمينا لنتحقّق من أن الآلة الخطرة خاضعة لإرادتنا وليس العكس. نتولّى أمر الأغصان أولاً، نقطعها من عند الجذع ونجزّئها إلى أطوال مناسبة، وننـــزع كلّ ما لن يفيدني في التدفئة. ثم نجمع ذاك كلّه في كومة، يمكنني لاحقًا أن أضرم فيها النار لأحصل على مشعلة تضيء عتمة تشرين الثاني.

يروق لي مراقبة لارس وهو يعمل. لا أقول إنه رشيق، لكنه منهجي، وحركته حول جذع البتولة والمنشار الثقيل في قبضته أكثر كياسة من حركته وهو في الطريق مع بوكر. تنتقل عدوى طريقته إلى طريقتي. وهذا هو حالي عادة؛ الحركة أولاً ثم استيعابها. شيئًا فشيئًا

أدرك أن طريقته في الانحناء والتحرّك أو الالتواء والاتكاء أحيانًا هي طريقة منطقية، لأنها تخلق توازنًا في المسافة المطواعة بين وزن الجسم وقوّة اهتزاز المنشار عندما يعلق بالجذع. والهدف من كلّ ذلك تسهيل وصول المنشار إلى الهدف بأقلّ خطر محتمل على الجسم البشري. هذا الجسم المكشوف الذي تراه في لحظة قويًّا ومنيعًا، وفي لحظة تواجهه صدمة ما، فيتمزّق بلا سابق إنذار إلى أشلاء كما تُمزق الدمى. ولا يلبث أن ينتهي كلّ شيء ويُدمّر إلى الأبد. لا أدري إن كان لارس يفكّر هكذا وهو يسيطر على منشار الزنجير برباطة الجأش هذه. لا ريب في أنه لا يفعل، أما أنا فنعم، دائمًا وأبدًا. ولا أستطيع طرد تلك الأفكار عندما تبدأ في مراودتي، الأمر الذي لا يحسّن معنوياتي كثيرًا. لكنها مع ذلك ليست بذات جسامة لأنني اعتدتها. من ناحية أخرى، أنا على يقين من أن مثل هذه الأفكار اصطخبت في رأس أمّه يوم جدفت قاربها نحو عالية النهر طلبًا للنجاة، في أواخر خريف 1944، ولارس يتمرّغ على أرض المطبخ جذلاً ومستغرقًا في عراك تمثيلي مع توأمه أود. غير عارف ماذا يجري من حوله، وما سيؤدي إليه. غير عارف أنه بعد ثلاث سنوات سينتزع الحياة من توأمه أود، ويمزّق جسمه إلى أشلاء ببندقية شقيقه الكبير جون. في الخارج، في ذلك اليوم كان النهار لا يزال طالعًا، والضوء الرمادي كلون الفولاذ منتشرًا فوق الحقول المجلّلة بالثلج، وأمّه في الماء تبذل جهدها لتجعل رحلتها تبدو مماثلة لباقي رحلاتها العديدة إلى الشاليه الصيفية.

يمكنني أن أتصوّر المشهد بوضوح.

قفازاها الأزرقان يقبضان على المجدافين، جزمتها تستند إلى ألواح قعر القارب، وبخار نفسها الأبيض يتصاعد بلهاث مبحوح،

والغريب بحذائه الصيفي بين رجليها في قاع القارب. الغريب بذراعيه تطوّقان الحقيبة التي يأبى التخلّي عنها، وبنطلونه الرقيق الذي لم يصدّ عنه قرص البرد أكثر من قبل. كان لا يكفّ عن الارتعاش بعنف، مرجرجًا القارب مثل ماكينة بمحرّكين من طراز غير معروف. وهي التي لم يسبق لها قطّ أن شاهدت شيئًا مماثلاً، خشيت أن يسمع أحد على اليابسة صوت ماكينتها الجديدة تلك.

يمكنني أن أتصوّر المشهد بوضوح.

الدرّاجة النارية الألمانية ذات العربة الجانبية تمضي بتمهّل على الطريق الرئيسي الذي جُرف منه الثلج للتوّ، ثم تستدير ميمّمة فناء تلك المزرعة بالتحديد، بلا دافع ظاهر. لا أحد عرف ما كان يبحث عنه صاحب الدرّاجة. لعلّه شعر بالوحدة فحسب وتاق إلى الدردشة مع أحد، أو أمضّته رغبة قويّة في تدخين سيجارة، ثم اكتشف لما همّ بإشعال آخر عود ثقاب لديه أنه غير صالح، فجاء طلبًا لعلبة كبريت. ولعله أراد أيضًا أن يدردش مع شخص آخر وهما يتأمّلان الطبيعة والنهر. ليس في ذهنه شيء سوى أن يتصرّفا على أساس أنهما رجلان من بلدين مختلفين تؤاخيهما سيجارة بريئة، بعيدًا عن شرور الحرب. أو ربما كان لديه سبب آخر لا أحد استطاع تخمينه، لا يومها ولا في ما بعد. على أيّ حال، أوقف الدرّاجة النارية في الفناء، ترجّل ومشى بتؤدة نحو باب البيت إلا أنه لم يبلغه قطّ. فجأة تسمّر مكانه وحملق في الأرض. مشى ذهابًا وإيابًا، مشى في حركة دائرية، ثم جثا أرضًا. وأخيرًا مرّ من أمام البيت ميمّمًا درب النهر، وإلى رصيف القوارب مباشرة. ما حدث له هناك هو أن ضوءًا سطع في عتمة ذهنه الهائلة. سقطت قطعة النقود المعدنية في الآلة حيث ينبغي أن تسقط، وسمع

رنينها. غدا كلّ شيء واضحًا له. أدرك أن الوقت يداهمه. عاد جريًا، رمى نفسه على درّاجته، دفع فورًا دوّاستها لينطلق. لسوء حظّه لم يشتغل المحرّك، حاول ثانية وثالثة ومرّة أخرى، إلى أن بُعثت الحياة في الآلة أخيرًا كما يُبعث النبض، فمال على المقود، وزأرت الدرّاجة فوق درب المزرعة، وانحرفت نحو الطريق الرئيسي وعربتها الجانبية ترجرج وسط رشاش رقاقات الثلج. من ذلك المنعطف نفسه أقبل جون متأبّطًا حقيبته في طريقه إلى البيت من المدرسة. سمع صوت الدرّاجة، وتمكّن في اللحظة الأخيرة من الارتماء في قناة لئلا تدهسه، أو ربما تصيبه بعاهة مستديمة. في أثناء سقوطه انكسر قفل حقيبته، وتطايرت كتبه في شتّى الاتجاهات. لم يلق له الجندي بالاً مطلقًا، بل زاد من سرعة محرّكه واختفى عند مفترق الطرق، حيث الدكّان والكنيسة والجسر الذي يقطع النهر.

يمكنني أن أتصوّر المشهد بوضوح.

يقف جون في القناة، يلمّ كتبه من على الثلج، وأمّه لا تزال في النهر مع الرجل «ذي البذلة» والمنبطح في قاع القارب. لا ريب في أن التجديف بعكس التيّار مجهد، لا سيّما مع وجود شخصين في القارب، حتى وإن كانت قوة اندفاع ذلك التيّار خفيفة في تلك الفترة من السنة. ولذلك يتقدّمان ببطء. المسافة إلى الشاليه لا تزال طويلة، حيث أبي هناك في المستودع منحنٍ فوق طاولة وعاكف على أعمال النجارة، ولا فكرة لديه على الإطلاق أنها في طريقها إليه. يرتعش الرجل الذي في القارب، ويهذر بينه وبين نفسه، يبكي قليلاً ثم يهذر ثانية. والمرأة التي تمسك المجدافين تستعطفه ليصمت. فيشدّد قبضته على أحزمة حقيبته ويضيع في عالمه.

في تلك الأثناء كان فرانز يقف في مطبخه بنافذته المفتوحة، لأنه أضرم نار الموقد حالما عاد إلى البيت من العمل في الغابة. وإذ أصبح الجوّ في المطبخ شديد الحرارة، اضطرّ إلى تهويته. كان الوقت نهارًا، ووقف هناك يدخّن مسرّحًا أفكاره في سبب عدم إقدامه على الزواج. ذاك شيء كثيرًا ما أطال التأمّل فيه كلّ سنة عندما يبدأ البرد بالزحف. ويبقى على هذا الحال إلى عيد الميلاد وما بعده، ثم يتناساه مع مطلع السنة الجديدة. يعرف أن السبب لا يكمن في عدم توافر الفرص. لكن، إذ وقف يومذاك يدخّن عند النافذة المفتوحة، عجز عن تذكّر السبب. وبدا له العيش وحده وضعًا منافيًا للمنطق. فجأة، سمع صوت درّاجة تقترب بسرعة هائلة في الجهة الأخرى من النهر. كان الجسر على بعد خمسين مترًا من بيته. وعلى بعد عشرين مترًا أخرى في الطرف المقابل من ذلك البيت، وقف الحارس ضجرًا ومقرورًا بمعطفه الطويل الأخضر والرمادي ورشّاشه بارز من وراء كتفه. هو أيضًا سمع صوت الدرّاجة، فالتفت نحو مصدر الصوت وتقدّم بضع خطوات في اتجاهه. ما لبث فرانز أن رأى خوذة سائق الدرّاجة تظهر من وراء أيكة، ثم ظهرت الدرّاجة بسائقها المنحني على المقود ليخفّف من ضغط الهواء. لم يكن قد بقي أمامه سوى بضع مئات من الأمتار قبل بلوغ مفترق الطرق. كان الطقس منذ الصباح ضبابيًا وكامدًا، وفي لحظة انحدار الشمس نحو المغيب تمامًا، ترامى بريق شعاعها الذهبي على السهل، فألقت بنورها على النهر وكلّ ما عليه، وومضت في وجه فرانز مبهرة عينيه، فانتزعته من أفكاره عن الزواج المحتمل بإحدى مرشحات الطابور الطويل؛ من شقراوات وسمراوات تهيّأ له أنهن يتزاحمن عليه. سرعان ما أدرك مغزى ما وقف ينظر إليه في الطريق. ألقى سيجارته

من النافذة، استدار على عجل واندفع إلى الرواق وهو ينتزع سكينًا من حزامه. خرّ على ركبتيه وطوى البساط. غرز سكينه جيدًا في شقّ بين ألواح الأرض وأعملها محرّرا أربعة ألواح ثُبِّتت معًا. وضع الألواح جانبًا وأدخل يده في الفتحة الأرضية. عرف دائمًا أن هذا اليوم آتٍ لا محالة. وهو جاهز. ليس ثمّة وقت للتردّد، وبالفعل لم يتردّد ولًا حتى لثانية. من الفتحة الصغيرة أخرج صاعقًا. تأكّد من أن أسلاك التوصيل في مكانها وغير متشابكة. وضع الصاعق على مستوى ثابت بين ركبتيه، سحب نفسًا عميقًا وهو يقبض بقوّة على ذراع الجهاز، ثم أنزله بعنف. ارتجّ بيته وقعقعت النوافذ. زفر وأرجع الصاعق إلى فتحته الصغيرة. أعاد الألواح، سدّ الفجوة المربعة بالألواح الخشبية، مهّدها بقبضته، ثم فرش البساط فوق تلك البقعة فعاد كلّ شيء كما كان عليه من قبل. نهض، وأسرع لينظر من النافذة. كان الجسر قد نُسف، وأجزاؤه الخشبية ما زالت تتطاير في الهواء ببطء، قبل أن تستقرّ على الأرض في وسط السكون المفاجئ بعد الانفجار. اصطدمت بعض الأخشاب بصخور الضفّة، ولكن بطريقة صامتة غير مألوفة. وبعضها سقط في الماء وجرى مع التيّار. تهيّأ لفرانز أنه أبصر كلّ ذلك من وراء الزجاج على الرغم من النافذة المفتوحة.

في الناحية الأخرى من الجسر المدمّر، وعلى مسافة أبعد من المكان الذي رأى فيه فرانز الحارس، كان الأخير منبطحًا على وجهه فوق الثلج وأنفه غارق فيه. أمّا الدرّاجة فلم تصل في الوقت الملائم. وما لبثت أن خفّفت سرعتها وتقدّمت متردّدة نحو الجسم المنبطح على الثلج وتوقّفت. ترجّل راكبها، نزع خوذته وتأبّطها كما لو أنه ذاهب إلى جنازة. قطع الأمتار المتبقية إلى الحارس ووقف قبالته مطأطئ الرأس.

بعثرت هبّة ريح شعره. كان مجرّد فتى. خرّ على ركبتيه قرب الطريح الذي ربما هو من أعزّ رفاقه. وفي تلك اللحظة راح الطريح يجاهد لينهض متّكئًا على يديه، ما يعني أنه لم يمت. لبث على تلك الوضعية، وبدا واضحًا للعيان أنه كان يتقيأ. ثم قام متعكّزًا على رشاشه، فقام سائق الدرّاجة أيضًا ومال نحو رفيقه ليقول له شيئًا. هزّ الحارس رأسه وأشار إلى أذنيه. لم يستطع سماعه. التفتا معًا ونظرا إلى الجسر الذي ما عاد له أثر. عندئذ أسرعا إلى الدرّاجة. جلس الحارس في العربة الجانبية والسائق في مكانه. شغّل المحرّك وانطلق بعيدًا عن الميدان، ليس صوب المزرعة حيث يقيمان مع بقية الدورية، بل صوب الطريق الذي أقبل منه. أعطى الدرّاجة النارية أقوى دفع تجرأ عليه، لأن الآلة احتاجت إلى مضاعفة دورانها مع وجود راكب آخر، ولكنها سرعان ما بدأت تتجاوب. وعندما مرّا بمزرعة باركالد بعد بضع دقائق كانت سرعتها قد بلغت أقصاها. انحرفا عن الطريق بعد مسافة قليلة، وكلّ منهما منحن إلى الأمام، كما لو أنهما في مركب شراعي يصارعان ريحًا عاتية، ليديرا دفّة المركب من غير أن يفقدا التوازن. ارتفعت العربة الجانبية عن الأرض للحظة، بينما واصلت الدرّاجة هديرها وهي تشقّ طريقها في الحقل المكلّل بالثلج، وتوجّهت مباشرة إلى السياج. لم يكترثا بفتح البوابة بل قادا عبرها مباشرة وحطّماها بخبطة جعلت القضبان تتطاير في شتى الاتجاهات وتسقط على خوذتيهما. لكنهما لم يتوقّفا، وأتاحت لهما الفرجة الضيّقة التي أحدثاها بين أعمدة البوابة متابعة التقدّم. ثم نهبا أرض الحقل على مقربة من سياج الأسلاك الشائكة، ودعامات السياج تتكتك خلفهما، والدراجة ترتجّ وتميل من جانب إلى جانب فوق العشب النامي على طول الدرب

إلى النهر. الدرب الذي يرتاده أبي كلما ذهب إلى الدكّان ليحضر «البريد». الدرب نفسه الذي درجت على ارتياده مع صديقي جون، ولكن بعد أربع سنوات. جون الذي اختفى في أحد الأيام من حياتي، لأن أحد أشقائه قتل توأمه ببندقية نسي جون أن يفرغ ذخيرتها. حدث هذا في أوج فصل الصيف، وكان المسؤول عن رعاية أخويه، وفي لحظة واحدة تغيّر كلّ شيء وانهار.

في الضفّة الأخرى من النهر، كانت أمّ جون قد أرست للتوّ قاربها إلى جانب القارب الذي يستخدمه أبي. وقفزت إلى اليابسة لتجذبه، حتى لا يدفعه التيّار ويعيده إلى الضفّة المعاكسة حيث لا يُستحسن أن يكون. فوقف الرجل المدني بصبر نافد، وحاول ببلاهة أن يقفز خارجه قبل أن تنهي ما تفعله. لم ينجح بالطبع. ترنّح مائلاً إلى الأمام وهي تحرّك مقدّمة القارب. ولأنه أبقى يديه متشبثتين بالحقيبة وقع، وارتطم رأسه بمقعد المجاديف. كادت دموعها تنهمر آنذاك.

«اللعنة. ألا يسعك إتقان أيّ شيء؟» صاحت المرأة. هي التي لم تنطق بكلمة نابية في حياتها. وعلى الرغم من إدراكها أنه من الخطأ الصياح، عجزت عن تمالك نفسها. أمسكته من سترته، وبحركة عنيفة جذبته خارج القارب مثل كيس مهلهل. عندما استقامت سمعت هدير الدرّاجة ورأتها تنهب الحقل في الطرف المقابل. من ناحيتها أقبل أبي كالإعصار من المستودع المجاور للشاليه، فهو أيضًا سمع الصوت، وأدرك فورًا أن هناك خطبًا. لمحهما في أسفل الدرب عند الماء؛ أمّ جون بقبّعتها وقفازيها، والغريب صاحب البذلة جاثم على يديه ورجليه قرب القارب. لمح أيضًا الدرّاجة النارية التي توقّفت عند

المنحدر الأخير المغطّى بالحصى والصخور على تخوم الضّفة.

«قُمْ!» صاحت أمّ جون في أذن الغريب وهي تشدّ سترته. ومن الجهة الأخرى اندفع الفتى صاحب اللباس العسكري الألماني نازلاً المنحدر والحارس في أعقابه:

«قفا!» صاح عليهما. هل صحيح أنه ناشدهما قائلاً «من فضلكما» بالألمانية؟ هكذا زعم فرانز، بل كان متأكّدًا من أن الجندي الشاب صاح: «Bitte, Bitte» . على أيّ حال بقي الألمانيان عند الضفّة غير راغبين في القفز. كان الماء باردًا جدًا والنهر عميقًا جدًا. ورأيا أنهما إذا اجتازاه سباحة سيصبحان هدفين بائسين، ولا ريب في أن التيّار سيدفعهما بعيدًا عن الموقع الذي يريدانه. فالتيّار على الرغم من أنه في تلك الفترة من السنة أضعف من المعتاد، إلا أنه قويّ بما يكفي لجرفهما. عند قمّة المنحدر ما انفكت الدرّاجة تدمدم مثل بهيمة انقطعت أنفاسها. انتزع الجنديان رشّاشيهما من على كتفيهما. وما كاد أبي يبصر هذا حتى زعق:

«انجوا بجلدكما!» وشرع هو بنفسه ينهب الأرض نحو النهر من بين الأشجار التي لم يُضحّ بها أحد بعد لمصلحة صنع الأخشاب. تقدّم بخطّ متعرّج محتميًا بالجذوع الكبيرة. في تلك اللحظة بدأ الجندي في الضفّة الأخرى يطلق النار، طلقات إنذار في البداية فوق رأسي اللذين جاهدا بمشقّة وعسر ليبتعدا عن القارب. سمعا الرصاص يخترق جذوع الأشجار ويشظّيها بعنف وبدويّ شنيع، قالت أمّ جون لاحقًا إنها ستتذكّره دائمًا. لا شيء على الإطلاق أرعبها إلى هذا الحدّ مثل ذلك الدويّ، وخالت أن أشجار الصنوبر طفقت تئن من فظاعته. بعد ذلك استهدفهما الجنديان بالرصاص، وعلى الفور أصابا الغريب صاحب

البذلة. كان انعكاس سترته الداكنة على الضفّة البيضاء هدفًا سهلاً. أوقع الغريب حقيبته، وهوى بوجهه على الأرض. حينذاك قال لنفسه بصوت هادئ جدًا لم تكد أمّ جون تسمعه:

«آآآه،، عرفت هذا.»

ثم انحدر متدحرجًا نحو القارب. وتجاوز الصنوبرة المعوجّة المتدلّية فوق النهر. و لم يتوقّف جسمه عن الانحدار إلا بعد أن لامست فردة من فردتي حذائه الصيفي الماء. استهدفه الجنديان مرّة أخرى. وآنذاك ما عاد لديه ما يقوله.

وقف أبي عند رأس المنحدر تمامًا محتميًا بشجرة تنّوب وصاح:

«احملي حقيبته واركضي إلى هنا!» فأسرعت أمّ جون إلى الحقيبة بقفازها الأزرق وجرت منحنية في خطّ متعرّج. وربما لأن الجنديين لم يسبق لهما أن قتلا أحدًا من قبل، كفّا فجأة عن إطلاق النار بكثافة. ولعلّهما خفّفا نيرانهما لأن الهارب امرأة. وفيما أصبحت طلقاتهما أقرب إلى الترهيب، تابعت أمّ جون جريها إلى أعلى الدرب سالمة، وبصحبة أبي يمّمت الشاليه. هناك، اندفعا إلى الداخل وجمعا أهمّ أشيائهما والوثائق التي يخفيها أبي. لمحا من النافذة سيارتين مقبلتين على الطريق تجتازان الحقل بسرعة هائلة، وجنودًا يقفزون ويجرون إلى النهر. وضع أبي كلّ ما يحتاجه في حقيبة الغريب «ذي البذلة» ولفّها بملاءة. ثم تسلّق هو وأمّ جون إلى الخارج من النافذة الخلفية، وبسروالي أبي الداخليين الأبيضين فوق ثيابهما فرّا يدًا بيد إلى السويد.

كانت الشمس قد بدّلت موضعها، فغدا مطبخ فرانز ظليلاً. وفي تلك الأثناء كانت القهوة في فنجاني قد بردت.

«لماذا تقصّ عليّ كلّ هذا، وأنت تعلم أن أبي لن يتطرّق إلى الحديث عنه؟» قلت لفرانز.

«لأنه طلب مني أن أفعل عندما يحين الوقت،» أجاب فرانز، «وقد حان الآن.»

١٢

ينحو البرد إلى الازدياد بالتدريج بينما أنا ولارس منهمكان في تقطيع البتولة. تختفي الشمس وتلوح بوادر عاصفة. في السماء تطفو سحب رمادية كأنها اللحاف، مُقصية آخر شريط من الزرقة نحو التلال الشرقية حيث يختفي هناك نهائيًا. نأخذ فترة راحة، نقوّم ظهرينا المتصلّبين ونتظاهر بأنهما لا يؤلماننا. لا أنجح كثيرًا في ذلك. أضطر إلى دعم عمودي الفقري بإحدى يدي لأبقى شبه منتصب. وللحظة نتحاشى تبادل النظرات. يلفّ لارس سيجارة ويشعلها، يتكئ على باب المستودع ويدخّن بتؤدة. أتذكّر متعة التدخين بعد فترة من العمل المضني بصحبة الشريك الذي كدحت معه. ولأول مرّة منذ سنوات طويلة أشتاق إلى سيجارة. أنظر إلى كومة الأخشاب المتراكمة حيث استقرّ قبل قليل جزء كبير من الشجرة. ينظر لارس إليها أيضًا.

«لا بأس بهذا،» يقول بهدوء وهو يبتسم. «أنهينا نصف العمل تقريبًا.»

يبدو التعب على كلّ من ليرا وبوكر أيضًا، فهما يجثمان لاهثين جنبًا إلى جنب على العتبة. والسكينة تعمّ الأجواء بعد إيقاف المنشارين عن العمل. ثم يبدأ الثلج بالتساقط. إنها الواحدة بعد الظهر. أنظرُ إلى السماء.

«تبـًّا،» أقول بصوت عالٍ.

يحذو لارس حذوي في النظر. «لن يستقرّ على الأرض،» يقول، «فالأرض ليست باردة كفاية بعد.»

«لعلّك مصيب،» أجيب. «لكن الأمر يقلقني في جميع الأحوال. ولا أعرف السبب حقًا.»

«هل تخاف من أن يحاصرك الثلج؟»

«أجل،» أقول وأشعر أن وجهي يتورّد خجلاً، «وهذا أيضًا.»

«يجدر بك إذًا أن تحضر شخصًا ليجرفه لك. هذا ما أفعله. أسليان مزارع يسكن قريبًا من هنا. وهو يلبيني دائمًا في أيّ وقت. جرف لي الثلج من طريقي لسنوات كثيرة. لا يأخذ منه الأمر وقتًا. القضية لا تتعدّى صعود الطريق ونزوله بمحراث الثلج، ولا تستغرق أكثر من ربع ساعة.»

«صحيح،» أقول وأنا أتنحنح ثم أردف:

«إنه الشخص نفسه الذي اتصلت به أمس من كشك الهاتف المجاور للتعاونية. قال لا مشكلة في هذا، وأنه يتقاضى 75 كرونر في المرّة الواحدة. أهذا ما تدفعه له؟»

«نعم،» يقول لارس. «إذًا ليس لديك ما تخشاه. سيكون هذا الشتاء جيدًا. ولينـــزل علينا كلّ ما هو فوقنا،» يتابع بنبرة متوعّدة وهو يميل برأسه إلى الوراء ويرنو إلى السماء، ثم يبتسم باستخفاف.

«والآن ما رأيك، هل نكمل العمل؟»

موقفه معد، أشعر أنني أرغب في المتابعة. وأُدهش من ذلك أيضًا. في الوقت نفسه يقلقني أن أعتمد على شخص آخر ليشجّعني على إنجاز مثل هذا العمل البسيط والضروري. شيء ما في داخلي يتغيّر. أنا أتغيّر. أتغيّر من شخص عرفته جيّدًا ووثقت به ثقة عمياء، شخص لقّبه أولئك الذين أحبّوه الفتى صاحب السروال الذهبي، لأنه لطالما وجد ذخيرة لا نهائية من النقود الرنّانة كلما وضع يديه في جيبيه، إلى شخص غير مألوف كثيرًا لي، ولا يملك أيّ فكرة عما لديه في جيبه من نفايات. أتساءل متى بدأ هذا التغيّر يأخذ مجراه. قبل ثلاث سنوات ربما.

«نعم بالتأكيد،» أقول، «لنكمل.»

أدعوه بعد ذلك إلى البيت. الواجب يقتضي منّي أن أفعل وقد قام بكلّ ما قام به. الثلج يسقط بغزارة، لكنه لا يستقرّ على الأرض فعلاً. ليس الآن في أدنى الأحوال. كنّا في تلك الآونة قد كدّسنا كومات خشب هائلة إزاء جدار المستودع إلى جانب خشب شجرة التنّوب الميتة. وأخلينا الفناء إلا من الجذر الضخم الذي تقرّر أن نجرّه بسلاسل وسيارة في الصباح. السلاسل لدى لارس في مرآبه، ولا بأس في بقاء الجذر هنا اليوم. نحن منهكان ونتضوّر جوعًا ومتلهّفان إلى فنجان قهوة. وباعتبار البداية التي استهللتُ بها يومي، أتساءل هل كان بذلي لهذا الجهد الكبير تصرفًا حكيمًا. يبدو جسمي على أحسن حال، هو بالفعل كذلك، وأنا منهك على نحو محبّب، بمعزل عن ظهري الذي لا تختلف حالته عن أيّ يوم آخر. وبالطبع ليس من

المعقول أن أدع لارس ينظّف فنائي وحده.

أكيل القهوة في مصفاة الإبريق وأضيف ماءً باردًا وأشغّل المقطّر. ثم أقطع بعض شرائح الخبز وأضعها في سلّة. أحضر الزبدة واللحم والجبنة من الثلاجة وأرتّبها في صحون. وبعد أن أملأ إبريقًا أصفر صغيرًا بالحليب من أجل القهوة، أضع كلّ شيء على الطاولة مع أكواب وسكاكين لشخصين.

يقتعد لارس صندوق الحطب قرب الموقد. يبدو أصغر سنًّا وهو جالس هناك بجوربيه الطويلين، كما قد يبدو أيّ شخص آخر حينما لا تكاد قدماه تلامسان الأرض. شعره، على خلاف شعري، جافّ، لأنه لم يخلع طاقيته. لم يتفوّه بكلمة منذ أن دخلنا، بقي طوال الوقت مطرقًا يمعن النظر في الأرض. أنا أيضًا لم أقل شيئًا وناسبني هذا، خصوصًا أنني ما عدت آلف المحادثات العَرَضية.

«هل أشعل الموقد؟» يقول فجأة.

«نعم، افعل،» أجيب موافقًا لأن الجوّ بارد هنا في الحقيقة. إلا أنني أفاجأ قليلاً من سماحي له بتولّي ذلك في بيتي، حيث إنه على هذا النحو قد يبدي رأيه في أساليب قيامي بالأعمال. وهو شيء من المستحيل أن أفعله مع غيري. لكنه استأذنني أولاً، لذا أظنّ أن لا بأس في ذلك. ينـــزلق لارس من على صندوق الحطب، يرفع غطاءه، ويأخذ منه ثلاث حطبات، وورقتين من صحيفة «داغبلاديت» للأسبوع الماضي من كدسة الصحف التي أحتفظ بها في الصندوق لهذا الغرض. وفي لمح البصر يضرم النار، أسرع بكثير من الوقت الذي أحتاجه أنا. ولا عجب، فقد قام بذلك طوال حياته. يبقبق مقطّر القهوة على الرفّ ويطقطق. إبريق قهوتي العزيز الذي لازمني منذ زمن بعيد.

ولا ألبث أن أتفقّده وأسكب القهوة في الترمس. أقف هناك لبرهة وأنا أمسكه بيدي محاولاً استرجاع صورة المخلوقة التي اعتدت تناول قهوتي الصباحية معها لسنوات وسنوات. تراوغني الصورة وأعجز عن رؤية وجهها. ألتفتُ وأنظر من النافذة إلى الفناء الذي أُخليَ من العقبات، حيث لم يبق شيء سوى أكوام صغيرة من نشارة ذهبية تكوّمت حول الجذر الضخم، ورقاقات الثلج الثقيلة تسقط بصمت وتبقى لثوانٍ معدودات على الأرض قبل أن تختفي بطريقة غامضة. إذا استمرّ الحال على هذا المنوال طوال الليل، فلا ريب أنها سترسخ في الصباح.

هل تناولتُ فطوري هذا الصباح؟ لا أتذكّر. يبدو ذلك حدثًا مغرقًا في القدم. وقد جرت مختلف أنواع الأشياء منذاك. إنما من المؤكّد أنني أتضوّر جوعًا الآن. ألتفت من النافذة إلى لارس، أباعد ما بين ذراعيّ مستقبلاً الطاولة وأقول:

«شمّر عن ساعديك وأقبل.»

«شكرًا جزيلاً،» يجيب وهو يغلق صندوق الحطب. ثم نجلس بشيء من الاحتشام ونشرع في الأكل.

لا نتبادل أيّ حديث في الدقائق الأولى. أدهشني مذاق الطعام الطيّب. بل دفعني إلى أن أذهب وأتفقّد صندوق الخبز، لأرى هل يختلف الرغيف الذي اشتريته عن النوع الذي أحضره عادة من الدكّان. أكتشف أنه النوع نفسه. أعود إلى الجلوس وأتابع الأكل. لا مفرّ لي من الاعتراف بأنني استمتعت به. أحاول التباطؤ حتى لا ينتهي ذلك بسرعة. ولارس أيضًا يواصل الأكل وعيناه على صحنه. لا يزعجني الأمر، لا حاجة لي للمحادثات. فجأة يرفع رأسه ويقول:

«بالطبع كان من المفترض أن أتولّى شؤون المزرعة.»

«أيّ مزرعة تعني؟» أسأله، مع أنني أعرف أن الموضوع لا يتعلّق إلا بمزرعة واحدة. بيد أنني لم أكن أتابعه بأفكاري. وأتساءل هل هذا ما يحلّ بنا بعد أن نعيش وحدنا لفترة طويلة، أن نبدأ فجأة بالتحدّث بصوت عالٍ ونحن في خضم قطار أفكارنا. وأن الفرق بين الكلام أو عدم الكلام بالنسبة إلينا يمّحي ببطء، أن الحوار الداخلي اللانهائي الذي نجريه بيننا وبين أنفسنا يختلط مع الحوار الذي نجريه مع القلّة التي نلتقيها من الناس، وأن المرء عندما يعيش وحده لفترة طويلة جدًا، يصبح الخطّ الفاصل لديه بين الحوار الجوّاني والحوار البرّاني مبهمًا، وإذا تجاوز هذا الخطّ لا يلاحظ أنه فعل. أهذه هي معالم المستقبل الذي ينتظرني؟

«عنيتُ مزرعتنا في القرية.»

لا ريب في أن هناك بضع مئات الآلاف من القُرى في النرويج، ونحن في إحداها الآن، إنما أعرف بالطبع أيّ قرية يعني.

«لعلك تساءلت لِمَ أعيش هنا بدلاً من قريتي حيث ولدت؟»

في الحقيقة لا، لم أفعل، ليس بالمعنى الذي يلمح إليه، ولكن ربما كان يجدر بي ذلك. ما تساءلت عنه هو كيف يمكن أن ينتهي بنا المطاف في المكان نفسه بعد كلّ تلك السنين. كيف يمكن أن يصبح أمر كهذا محتمل الحدوث.

«نعم، تستطيع القول أنني فعلت.»

«كان الحصول عليها من حقّي. فأنا الوحيد الذي بقي هناك. غادر جون إلى البحر، ومات أود. اشتغلت في تلك المزرعة طوال حياتي، في كلّ يوم منها. لم أذهب قطّ في أيّ عطلة كما يفعل الناس

الآن. وأبي لم يعد. وقع صريع المرض ولا أحد عرف مِمّ يشكو. كسر رجله وكسر شيئًا في كتفه، وأُخذ إلى مستشفى إمبغدا. حدث هذا سنة 1948، لعلّك تذكر. كنتُ مجرّد صبي. ولم يرجع منذ ذلك الوقت. ثم مضت السنين. عاد جون من البحر. لم أعرفه. كان الأمر بالنسبة لي كما لو أنه ما عاد لهم وجود، لم أفكّر فيهم قطّ، ولا في أيّ فرد من أهلي. وفي ذات يوم ترجّل جون من الحافلة وأقبل من ناصية الطريق إلى باب البيت وقال إنه جاهز لتسلّم المزرعة. كان في الرابعة والعشرين من العمر. وقال إن إدارة المزرعة من حقّه. لم تعترض أمّي، ولم تتدخّل لمصلحتي. ما زلت أتذكّر تعابير وجهها، وكيف تحاشت النظر إليّ نهائيًا. لم أعرف في حياتي أيّ عمل أو أيّ شيء آخر سوى تلك المزرعة. كان جون قد سئم ركوب البحر بعد أن رأى كلّ شيء، كما قال. ولعل هذا صحيح. فقد أرسل لنا على مدار السنين بعض البطاقات من بور سعيد وأماكن أخرى مثل عدن وكراتشي ومدراس. أماكن لا تعرف أيّ شيء عنها أو أين تقع إلا بعد أن تبحث عنها في الأطلس المدرسي. كان اسم إحدى البواخر M5/Tijuka ، أتذكّر أغلفة البطاقات جيّدًا، واسم المركب وختمه عليها. وهو اسم لم أسمع بمثله من قبل قطّ. لم أجد جون بصحّة جيّدة، إذا أردت رأيي. بدا لي هزيلاً ومحدودبًا وأعجز من أن يدير مزرعة. خِلت أنه يشبه الذين يتعاطون المخدّرات، أولئك الذين تراهم في شوارع أوسلو هذه الأيام. عصبي المزاج وسريع الانفعال. لكنني لم أستطع فعل أيّ شيء، فذاك حقّه.»

ويسكت لارس عند هذا الحدّ. ما قاله كان بالنسبة إليه خطابًا طويلاً. يعود إلى الأكل من جديد. لا يزال متأخّرًا عني، ولكنه هو

أيضًا يستمتع بالطعام. أسكب له مزيدًا من القهوة وأعرض عليه الحليب. يتناول الإبريق الصغير الأصفر ويصبّ بضع قطرات حليب في فنجانه وينهي وجبته صامتًا. عندما يفرغ صحنه يسألني عن إمكانية تدخين سيجارة في الداخل، وأقول:

«نعم، بالطبع.» فيلفّ سيجارة بتبغ ريد ميكس ويشعلها، ثم يسحب نفسًا ويجلس محدّقًا في السيجارة المتوهّجة. حينها أسأله:

«ماذا فعلت إذًا بعد ذلك؟» يرفع لارس عينيه من على سيجارته ويضعها في فمه ليأخذ نفسًا طويلاً منها، وبينما ينفث الدخان ببطء يرسم على وجهه تكشيرة كما لو أنه يسعى إلى الاختباء وراء قناع أبله. أخذتني تكشيرته تلك على حين غرّة لأنني لم أتوقّعها، فقبعت هناك أحملق فيه. لم أره قطّ هكذا. إنه مشهد هزلي بالفعل، مثل مهرّج السيرك الذي يستطيع أن يجعل الجميع يبكون في لحظة بعد أن كادوا يموتون من الضحك قبلها. أو مثل تشارلي شابلن في إحدى ورطاته المروعة. أو مثل أيّ واحد من نجوم السينما الصامتة القدامى، كذاك الذي يطرف بعينيه دائمًا ولديه وجه مطّاطي مِطواع. إنما مع لارس لا أجد شيئًا يستدعي منّي الضحك. يضغط شفتيه إلى أن تصبحا مجرّد خطّ نحيل، يعصر عينيه الاثنتين بشدّة، ثم يلفّ رأسه بالكامل خمسة وأربعين درجة نحو اليمين، ويميله تجاه أذنه. أو هذا على الأقلّ ما تبدّى لي. تنكمش الملامح التي لم آلفها بعد إلى مجموعة من التجاعيد، يجمد وجهه على هذه الوضعية لفترة قبل أن يفتح عينيه تاركًا كلّ جزء من وجهه يعود ثانية إلى حالته الطبيعية بينما الدخان يتسرّب من شفتيه. يراودني شعور بأنني لا أملك أدنى فكرة عن نوعية هذا الأداء الذي شهدته للتوّ. يزفر ويشهق بثقل، وحينما ينظر إليّ مباشرة أرى أن عينيه نديّتان.

«رحلتُ. يوم عيد ميلادي العشرين. و لم أعد إلى البيت منذ ذلك الوقت، ولا لخمس دقائق.»

يخيّم الصمت في مطبخي. لارس صامت وأنا صامت.

«اللعنة!» أقول أخيرًا.

«لم أرَ أمّي منذ أن كنت في العشرين،» يقول.

«أما زالت على قيد الحياة؟»

«لا أعرف. لم أحاول قطّ أن أعرف.»

أنظر إلى الخارج من النافذة. لا أدري حقًا، هل أريد أن أطّلع على شيء من هذا أم لا. يجتاحني إعياء رهيب، يشملني ويُثقلني. لم أسأله إلا لأنه يُفترض بي أن أفعل. لأنه من المهمّ للارس أن يساررني بهذه الأمور، وهي بالطبع تهمّني بطريقة ما، لو أدركَ ذلك فقط. مع ذلك لست واثقًا من أنني أريد الاطّلاع عليها أو لا أريد. إنها تحتلّ مساحة كبيرة من التفكير، وأصبح من الصعب عليّ التركيز. لقائي بلارس خلخل توازني، جعل مخطّطي في البقاء هنا يبدو مبهمًا، غير مهمٍّ تقريبًا عندما لا أعمل فيه ذهني. يجب أن أقرّ بهذا. أن أقرّ بأن مزاجي يتقلّب طلوعًا ونزولاً، كما لو أنني في مصعد أتنقّل من العلّية إلى القبو على مرّ الساعات، وأن أيامي تأخذ الآن منحىً يختلف عما تخيّلتها عليه. وإن اعترضتني أدنى عقبة أضخّمها إلى أبعاد كوارثية. لا أعني أن شجرة البتولا كانت مشكلة صغيرة، لا، ليس هذا ما أعنيه. ولا أعني أيضًا أن هذه المشكلة لم تنته على خير، بفضل مساعدة لارس في الواقع. لكنني رغبت فعلاً في أن أبقى وحدي. أن أحلّ مشاكلي وحدي، مشكلة تلو مشكلة، مستعينًا بالصفاء الذهني والأدوات المناسبة. كما درج أبي أن يفعل في الشاليه في تلك

الأيام. كان يباشر المهمة تلو المهمة، مقدّرًا حجم مخاطرها ومحضّرًا الأدوات التي يحتاج إليها وفقًا لمنهجية مدروسة. يبدأ من طرف ما، ليمهّد طريقه إلى الطرف الآخر، مستخدمًا فكره ويديه ومستمتعًا بما ينجزه. وأنا أريد الاستمتاع بما أعمله بالطريقة نفسها لأعالج التحدّيات اليومية. تحدّيات قد تكون مضلّلة بما فيه الكفاية، ولكنها تبقى ضمن حدود واضحة، ولها بدايات ونهايات أستطيع التنبؤ بها. ثم ينال مني التعب في المساء من غير إعياء. وأستيقظ في الصباح مرتاحًا تمامًا. فأجهّز قهوتي وأشعل الموقد، وأتأمّل الضوء الوردي في الخارج يشقّ طريقه فوق الغابة متجهًا إلى البحيرة. ثم أرتدي ملابسي وأخرج لأمشي مع ليرا، وأعود بعد ذلك لأباشر المهامّ التي قرّرتها مسبقًا لذلك اليوم. هذا ما أريده، وأعلم أنني قادر على تحقيقه، أنني أمتلك في داخلي موهبة البقاء وحدي، وأن لا شيء يستدعي منّي الخوف. رأيت في حياتي أشياءً كثيرة جدًا، وشكّلتُ بنفسي جزءًا كبيرًا منها، بيد أنني لن أدخل في التفاصيل الآن، لأنني كنت محظوظًا في الحقيقة، فأنا الصبيّ صاحب السروال الذهبي، ومن الجيّد أن أنال قسطًا من الراحة أخيرًا.

لكن هناك لارس. لارس الذي أعتقد أنني لن أستطيع الامتناع عن استلطافه. لارس، الذي يغادر الطاولة الآن ويجذب قبّعته إلى الوراء والأمام فوق رأسه حتى تستقرّ في مكانها المناسب. في الخارج تنتشر حمرة الغروب وليس ثمّة شمس بالتأكيد. يشكرني على الطعام بأسلوب رسمي أخرق، كأننا أهينا للتوّ عشاء الميلاد وكان الضيف الذي يتمنّى لو أنه على بعد عشرة أميال من هنا. أتفهّم موقفه، لأنني بلا ريب سأشعر مثله في حال كنت ضيفًا في بيته.

أمضي إلى الرواق وأفتح الباب للارس وأتبعه إلى العتبة حيث يقبع بوكر منتظرًا. أتمنّى له ليلة هانئة وأشكره على المساعدة. ويجيب بأننا أحسنّا التعامل مع البتولة، وسنتدبر أمر الجذر صباحًا بالسلاسل. في هذه الأثناء، يحشر الكلب نفسه بيننا ويقعي ممعنًا التحديق في سيّده ويبدأ في الهرير. يستدير لارس من غير أن يعيره التفاتًا ويتجاوزه نازلاً الدرجتين المتبقيتين ويعبر الفناء، ثم يسلك منحدر التلّ نحو كوخه. يلازم بوكر مكانه مربكًا ومتدلّي اللسان. ينظر عاليًا إليّ وأنا واقف أستند إلى الباب منتظرًا، ولا أنبس بأيّ كلمة تحثّه على الانطلاق. بعد هنيهة، يخفض رأسه فجأة وينسلّ ليلحق بلارس على مضض وبخطوات متثاقلة تقريبًا. ولو كنت مكانه لحاولت تحسين سلوكي بسرعة مضاعفة.

ثمّة طبقة رقيقة من الثلج تكسو الفناء. لم ألاحظ متى بدأ يستقرّ، لكن الحرارة انخفضت، لا يزال الثلج يتساقط، ولا يبدو لي أنه سيتوقّف. أدخل وأغلق الباب من ورائي وأطفئ المصباح الخارجي. أرى أن لارس نسي قفاز الشغل الذي استقرّ حيث وضعه. أفتح الباب وأهمّ بمناداته، ثم أدرك أن لا مغزى من هذا، يمكنه استرجاعه غدًا، فهو لن يشرع الآن في أيّ عمل يتطلّب منه استخدامه.

لارس؛ لارس الذي يقول إنه لم يفكّر في أخيه جون خلال السنوات التي قضاها في البحر. وفي الوقت نفسه يتذكّر تفاصيل المدن والمرافئ التي زارها، وماذا كُتب على أغلفة البطاقات التي أرسلها لهم، وأسماء السفن التي التحق بها والسفن التي غادرها. لارس الذي تتبّع بإصبعه على الأطلس الطرق التي سلكتها السفن. وجون الهزيل والمحدودب، يقف على ظهر الباخرة M/S Tijuka، محكمًا قبضتيه على

الدرابزين، ينعم النظر بعينين مضيقتين جسورتين في الساحل الذي يدنون منه. إنهم قادمون من مرسيليا، وقد تتبّع إصبع لارس المركب إلى ما بعد صقّلية وطرف جزمة إيطاليا، ثم مال مرورًا بالجزر اليونانية، إلى جنوب شرق كريت حيث يطرأ شيء جديد على الجوّ، ويصبح ذا قِوام مختلف عن اليوم السابق. ولا يدرك جون بعد أن ذلك العنصر الطارئ في الجوّ إنما هو أفريقيا. يواصل لارس تعقّب المركب إلى بور سعيد، في قلب المتوسط حيث سيفرغون البضاعة ويحملون غيرها، لتأخذهم الرحلة بعد ذلك ببطء عبر قناة السويس بصحرائها الممتدّة لمسافات شاسعة على جانبيها. صحراء تنشر وميضًا ذهبيًا غريبًا يشعّ من الرمال البرّاقة تحت الشمس المشرقة. ثم على طول الطريق عبر البحر الأحمر إلى جيبوتي أولاً تحت حرارة مستعرة. ثم إلى عدن على الجانب الآخر من المضيق الذي يفصل ما بين عالمين، ولا يزال، منذ أيام الشاعر الشاب آرثر رامبو. الشاعر الذي أبحر إلى هناك قبل سبعين سنة تقريبًا ليكون شخصًا مختلفًا عمّا كانه من قبل، مخلّفًا كلّ شيء وراءه مثل غوّاص يخوض الصحراء في طريقه إلى العدم والموت الأخير. أعرف هذا لأنني قرأت عنه في كتاب. لكن لارس الجالس وأطلسه أمامه على طاولة المطبخ في ذلك البيت عند النهر لا يعرف. وجون لا يعرف أيضًا مع أنه في بور سعيد يرى النخيل الأفريقي لأول مرّة تحت السماء الواطئة ذات الزرقة الحادّة. يرى الأسطح المستوية لبيوت المدينة، يرى البازارات والأسواق تعمّ جميع الطرقات وتمتدّ إلى المرافئ على طول الرصيف حيث ترسو M/S Tijuka. لا شيء في تلك المدينة سوى البازارات، وأصوات تصيح بجميع لغات العالم تريد أن تبيع الناس أيّ شيء. وتدعوهم لأن يغادروا الجسر الخشبي

حيث يقفون وأيديهم متشبّثة بالدرابزين وعيونهم مثل شقوق ضيّقة. تدعوهم لينـــزلوا ويبتاعوا شيئًا هم في أمسّ الحاجة إليه، لأنه سيُضفي على حياتهم سعادة جمّة ستدهشهم حتمًا. ويُقال لهم إنهم سيحصلون على تسعيرة خاصة بهم وحدهم. ويقف جون وكلّ شيء من حوله مُصمّم ومُربك. هناك صنّاجات وطبول وروائح تكاد تفقده وعيه؛ مزيج من خضر متفسّخة ولحوم لا يمكن تحديد نوعها، ولا فكرة لديه ما إذا هي موجودة في العالم. وهناك توابل وأعشاب عطرية وشيء ما يلمحه يشتعل في آخر الرصيف، لا يعرف ما ذاك الذي يحرقونه هناك، ذاك الذي تنبعث منه رائحة نفّاذة. ويقرّر ألاّ يغادر الباخرة. ينهمك في عمله بقسم الشحن، يُفرغ فيه طاقته الشابّة، ولا يترك الجسر. لا في أوقات مناوبته ولا في أوقات مناوبة غيره. وحينما يهبط الظلام فجأة يبقى على ظهر الباخرة، ويتفرّج على الحياة تمضي بوتيرة أقلّ نشاطًا تحت أنوار كهربائية وغير كهربائية. يبدو له المشهد برمّته أكثر إغراءً مما بدا عليه في ضوء النهار المبهرج، وأكثر فسادًا أيضًا بظلاله الخافقة وأزقّته الضيّقة. لكنه ليس إلا في الخامسة عشرة من العمر، ولا يغادر السفينة لا في بور سعيد ولا في عدن ولا جيبوتي.

أستيقظُ في الليل. أعتدل في سريري وأنظر إلى العتمة من النافذة. إن السماء لا تزال تُثلج، وهناك ريح قويّة تدوّم وترشق زجاج النافذة بالثلج. على الدرب المؤدّي إلى النهر لا شيء إلا بساط أبيض هائل لا تتخلّله أيّ نتوءات ظاهرة. أدِبّ خارج السرير، أقصد المطبخ وأشعل المصباح الصغير فوق الفرن. ترفع ليرا رأسها من مرقدها قرب الموقد الأسود، لكن ساعتها الداخلية سليمة لأنها تدرك في الحال أننا لن

نخرج الآن، فالوقت لا يتجاوز الثانية بعد منتصف الليل. أذهب إلى الحمّام، أو على الأصحّ إلى التجويف في آخر الرواق، حيث أضع حوض غسيل وإبريق ماء ودلوًا على الأرض، حتى لا أضطرّ إلى الخروج إلى ما وراء البيت عندما يسوء الطقس. أقضي حاجتي هناك، ثم ألبس كنـــزتي الصوفية وجواربي وأجلس إلى طاولة المطبخ مع قدح مشروب صغير والصفحات الأخيرة من رواية «قصة مدينتين». حياة «سيدني كارتون» تقترب من نهايتها، الدم يجري من حوله، ومن خلال نقاب أحمر يرى المقصلة تعمل بإيقاع منتظم، والرؤوس تسقط في السلّة إلى أن تمتلئ وتُبدل بأخرى. والنساء الجالسات على المقاعد يغزلن الصوف ويحسبن: تسعة عشر، عشرون، واحد وعشرون، اثنان وعشرون. فيقبّل المرأة التي تقف أمامه في الصفّ ويقول لها وداعًا إلى أن نلتقي ثانية في عالم بلا زمان ولا أحزان كعالمنا هذا. وما إن يرى أنه لم يبق غيره، يقول لنفسه وللعالم: «هذا أفضل بكثير من أيّ شيء آخر فعلته...» ليس من السهل مخالفته الرأي في مثل هذه الحالة. يا لـــ «سيدني كارتون» المسكين. أقرّ أنه كتاب ممتع بالفعل. أبتسم لنفسي، آخذ الكتاب إلى غرفة الجلوس وأضعه في مكانه على الرفّ بين كتب ديكنـــز الأخرى، وأعود إلى المطبخ. أرشف المتبقي من شرابي دفعة واحدة، أطفئ المصباح فوق الموقد وأقصد غرفة النوم. أغفو قبل أن تلامس رأسي الوسادة.

يوقظني في الخامسة صباحًا هدير جرّار وضجيج محراث الثلج وهو يجلي الأرض من أعلى الدرب تجاه بيتي. أرى أضواءه من النافذة وأدرك في الحال ما هو، فأستدير وأغرق في النوم رأسًا من غير أن يتاح لي الوقت لتراودني فكرة سلبية واحدة.

مكتبة
t.me/t_pdf

١٣

بعد صباحي مع فرانز، بدا السهل مختلفًا. والغابة بدت مختلفة، وكذلك الحقول. ربما بقي النهر على حاله، بيد أنه على نحو ما تبدّل. وهكذا أيضًا بدا أبي عندما فكّرت في القصص التي رواها لي فرانز عنه، لا سيّما أنه أخبرني بها بعد فترة لا تكاد تُذكر من رؤيتي له في المرسى يفعل ما يفعله أمام بيت جون. لم أعرف هل جعله ذلك أكثر بعدًا عني أم أقرب، وهل أصبح فهمه أسهل عليّ أم أصعب، إنما بالتأكيد بدا لي مختلفًا. وما تجاسرت على محادثته في الأمر، لأنه ليس هو من فتح الباب، ما يعني أنني لا أملك أيّ حقّ في الدخول. بل لم أعرف حتى إن كنت راغبًا في ذلك.

فهمت حينئذ سبب نفاد صبره. ولا أقصد أنه في أيّ حال من الأحوال قد تصرّف بفظاظة أو بانفعال، فهو لم يتغيّر عما كان عليه منذ أن ترجّلنا من الحافلة. وعلى الرغم من أنني في داخلي شعرت بوجود اختلاف كبير وأنا أفكّر فيه، لم أستطع تلمّس أيّ اختلاف

ظاهر. فقط ضجره من الانتظار، ورغبته في ترحيل الخشب. وكيفما أمضينا الوقت لم يبارحه هذا الهاجس؛ سواء قصدنا الدكّان، أو جدّفنا إلى عالية النهر قرب الجسر لنصطاد السمك من القارب في طريق عودتنا، أو اشتغلنا بالنجارة في الفناء، أو جُلنا بين بقايا الخشب بالقفازات لنـــزيل الأغصان المتشابكة، ثم جررناها وجهّزناها في كومة لنعدّ منها مشعلة عندما يسمح الجوّ. لم يشأ أن يخلّف وراءه أيّ فوضى للمستقبل. ودرج على الذهاب مرّتين على الأقلّ كلّ مساء إلى أكوام الخشب ليتفقّدها ويتفحّصها، ويحسب الزوايا والمسافة إلى الماء ليرى هل ستهبط الجذوع بسلامة عندما يحين الوقت. ثم يعاود الكرّة من جديد. ولو سُئلت رأيي لقلت إن ذاك كلّه غير مجد، فالجميع يعرف أن الجذوع ستنـــزلق مباشرة إلى النهر ولن يعيقها عائق في أثناء انحدارها، ولا ريب أنه هو أيضًا عرف، لكنه لم يستطع البقاء بعيدًا. أحيانًا، يمكث هناك مدّة طويلة؛ يتشمّم الخشب، ويضغط بأنفه الجذوعَ التي نُزِع لحاؤها وما زال صمغها يلمع، ويستنشق رائحتها بعمق. ولم أكتشف ما إذا فعل ذلك لأنه شيء يمتعه، كما هو الحال معي، أو أن أنفه استطاع استشفاف معلومات من صميم الخشب؛ معلومات ليست متاحة لبقية البشر. ولو صحّ هذا، فأنا لم أكتشف أيضًا أهي معلومات جيّدة أم سيّئة. ما عرفته هو أنها في جميع الأحوال لم توهن من عزيمته. بعد ذلك هطل المطرُ غزيراً ليومين كاملين. وفي مساء اليوم الثالث، سلك الطريق إلى بيت فرانز ليتكلّم معه، وبقي هناك وقتًا طويلاً. لما عاد كنت جالسًا على سرير المبيت الأعلى أقرأ على ضوء مصباح بارافين صغير، لأن النهار صار يعتم باكرًا. دخل الغرفة، اتكأ على سريري وقال: «سنحاول تجربة حظّنا غدًا. سنرسل

الخشب إلى النهر.»

أدركت على الفور من صوت أبي أن فرانز لم يشاركه وجهة نظره. وضعت مؤشّر الصفحات في طيات كتابي، وانحنيت من فوق حافة السرير، ثم دلّيت يدي وأسقطت الكتاب على الكرسي المجاور للسرير وقلت:

«عظيم، أنا أتطلّع بشوق إلى هذا العمل.» وما قلته صحيح. كنت بالفعل كذلك. كنت أتطلّع بشوق إلى الجانب الجسدي منه؛ إحساسي بضغط الجذوع على ذراعيّ، مقاومتها لي، ثم الإحساس بها تنصاع في النهاية.

«جيّد،» أجاب أبي. «سيأتي فرانز لمساعدتنا. من الأفضل أن تخلد إلى النوم لتستجمع طاقتك ليوم غد. إنه ليس لهو أطفال حتمًا، ولن يكون هناك إلا ثلاثتنا، ولدينا خشب كثير. سأذهب الآن في نزهة قصيرة لأفكّر قليلاً، وسأعود في غضون ساعة.»

«لا بأس،» قلت.

كان سيقصد النهر ليقتعد صخرة ويحدّق في الأفق، وهذا شيء اعتدته منه، ولم أشكّ في صدق كلامه لأنه غالبًا ما ذهب إلى تلك الصخرة.

«هل أطفئ الضوء؟» سألني، وأجبت بنعم، فانحنى ووضع يده وراء رأس المصباح ونفخ في الأنبوب الزجاجي. وسرعان ما خمدت الشعلة وتحوّلت إلى خيط أحمر صغير، ثم اختفى الوهج أيضًا وخيّم الظلام، إنما ليس ظلامًا تامًّا. واستطعت أن أرى من النافذة تخوم الغابة الرمادية والسماء الرمادية من فوقها. ثم قال أبي «تصبح على خير يا تروند، إلى الغد،» وأنا أيضًا قلت «تصبح على خير وإلى الغد.»

وبعدما خرج استدرت واستقبلت الجدار. قبل أن أستغرق في النوم أسندت جبيني إلى الحائط الخشبي الخشن واستنشقت أريج الغابة الذي ما زال ينبعث منه.

قمت مرّة واحدة في تلك الليلة. نزلت بحذر من سرير المبيت العلوي ولم ألتفت لا يمنة ولا يسرة لئلا يفوتني موضع الباب. خرجت وقضيتُ حاجتي في المرحاض وراء الشاليه. ثم وقفت هناك حافي القدمين وبسروالي الداخلي فقط؛ الريح من فوقي تئنّ بين الأشجار، والسحب مكفهرّة كما لو أنها حبلى بالمطر وتكاد تنفجر. أغمضت عينيّ واستقبلت السماء بوجهي، بيد أن شيئًا لم ينـــزل عليّ. لا شيء سوى هواء بارد على جلدي، وأريج صمغ الخشب، ورائحة الأرض، وطائر أجهل اسمه كان يحجل في إحدى الخمائل وهو يخشخش ويقرقع. وانبرى وهو بين الخضرة القاتمة على بعد خطوات مني، يرسل صوتًا رقيقًا وثاقبًا بتتابع متواصل. كان ذلك الصوت غريبًا ومستوحدًا هناك في قلب الليل. ولم أدر أخطرَ لي حينها أن الطير هو من كان يشعر بالوحدة، أم أنا.

لما عدت إلى البيت رأيت أبي نائمًا في سريره، كما قال إنه سيفعل. وقفت هناك في الظلمة غير الدامسة أتأمّل رأسه على الوسادة: شعره الداكن، لحيته القصيرة، العينان المغمضتان، والوجه السارح في حلم ما بعيدًا عن الشاليه وعني. وبالتأكيد لم أكن أملك أيّ وسيلة تمكّنني من الالتحاق به حيث هو. بدا وقع أنفاسه مسالـــمًا وراضيًا، كما لو أنه خلي البال من هموم العالم، ولعلّه كان كذلك. ولا ريب في أن هذا ما يُفترض أن أكون عليه أنا أيضًا، لولا اضطرابي وعدم تمكّني من

الحكم على أيّ شيء. وفيما تواصل تصاعد أنفاسه بسهولة، خذلتني أنفاسي. ففتحت فمي على وسعه وعببتُ الهواء بقوة ثلاث أو أربع مرات قبل أن يتجاوب معه صدري. لا بدّ من أن منظري آنذاك كان غريبًا وأنا واقف ألهث في الغرفة شبه المعتمة. ثم صعدتُ إلى سريري الذي يعلو سرير أبي وكمرت نفسي باللحاف. لم أنم فورًا، بل اضطجعت أحملق في السقف، متأمّلاً ألواحه التي استطعت تمييزها، ومتفرّسًا في جميع عُقد الخشب التي تخيّلتها تتحرّك جيئة وذهابًا مثل مخلوقات منمنمة بأرجل غير مرئية. كنت في البداية متشنّج الأوصال، ثم بدأت أسترخي مع مرور الدقائق، أو لعلّها الساعات. لم أستطع التخمين، لأنني فقدت إحساسي بالزمن وبالغرفة التي تضمّني. كان كلّ شيء من حولي يدوّم، كما لو أنني موثق إلى شعاع دولاب ضخم، وعنقي مربوط بمحوره، وقدماي مربوطتان بحافّة إطاره الخارجي. جعلني هذا أشعر بالدوار، ففتحت عينيّ على مداهما حتى لا يصيبني الغثيان.

عندما قمت في المرّة الثانية كان الوقت صباحًا والضوء يغمر قاعدة النافذة. أدركت أنني استغرقت في النوم أكثر مما ينبغي، ووجدتني أشعر بالإعياء والتراخي ولا رغبة لدي في النهوض.

كان الباب المؤدّي إلى غرفة الجلوس مفتوحًا، وكذلك باب البيت. ولو ارتفعت واتكأت على مرفقي لتمكّنت من رؤية أشعة الشمس على الأرض اللامعة المجلية. شممتُ رائحة الفطور المنتشرة في الشاليه، وسمعت أبي وفرانز يتحدّثان في الفناء. استطعت استشفاف نبرة شبه متراخية وهادئة ومكبوتة في ما بين كلماتهما. وأدركت أنهما

حتى لو اختلفا في الرأي أمس، فلا شكّ في أنهما تجاوزا ذلك. ولعلهما أيضًا تفاهما بخصوص الخشب ومدى أهمية نقله بالنسبة إلى أبي، وقرّرا المجازفة. متفقين على أن هذا ما يبرعان فيه؛ المجازفة. أما أنا فرأيت أنه من الأنسب ترك الخشب ينتظر شهرًا أو شهرين أو حتى إلى الربيع القادم. على أيّ حال، انبريا وهما يقفان في الفناء تحت الشمس، يرسمان بدقّة مخطّطهما الخاصّ لما يريدان إنجازه في ذلك اليوم. مثلما فعلا مرّات عديدة سابقًا في فترات لم أعرف شيئًا عنها.

استرخيت على وسادتي وحاولت التفكير في سبب إحساسي بالتثاقل والإعياء، ولم يخطر على بالي أيّ شيء؛ لم أجد في ذهني لا كلمات ولا صورًا، لا شيء إلا لون بنفسجي تحت جفنيّ وألم حارق في حلقي. ثم فكّرت في الخشب المكوّم قرب النهر، والذي سيُنقل في أيّ لحظة من اليوم، وفي أنني أردت أن أكون طرفًا مساهمًا في العملية. أردت مشاهدة جبل الخشب يصطدم بالماء، ومراقبة ضفّة النهر وهي تُخلى منه. وما لبثت رائحة الطعام من المطبخ أن بعثت في معدتي إحساسًا مفاجئًا بالجوع، فصحت قائلاً:

«هل أكلتما؟»

شرع الاثنان يضحكان، ثم جاءني الجواب من فرانز:

«لا، إننا نتسكّع هنا في انتظارك.»

«يا للعجوزين المسكينين،» صحت. «سأنضمّ إليكما حالاً إذا كان هناك ما يمكن أكله،» وبهذا حسمت أمري مقرّرًا أنني على ما يرام وبخفّة الريشة. استجمعت شتات نفسي في لمح البصر، وقفزت من السرير كما أفعل عادة؛ يداي تقبضان على حافته، وأنا أرفع عجيزتي وأدع ساقيّ تتأرجحان في قفزة رياضية مثلما يفعل المتزلّجون

على الثلج. في هذه المرّة أعلن فخذاي العصيان، فتحمّلت بطّتا ساقيّ السقطة، واصطدمت ركبتي اليمنى بالأرض، ووقعت على جانبي. آلمتني ركبتي كثيرًا حتى كدت أصرخ. ومن المؤكّد أن الرجلين في الخارج سمعا وقع الخبطة لأن أبي نادى قائلاً:

«أنت بخير هناك؟» ولحسن حظّي أنه بقي حيث هو مع فرانز. فأطبقتُ عينيّ بقوّة وصحت:

«إيه طبعًا، كلّ شيء على ما يرام هنا،» مع أن الحقيقة خلاف ذلك. نجحت في النهوض والجلوس على الكرسي المجاور للسرير، وقبعت هناك ويداي تطوّقان ركبتي. لم يبد لي أنها أصيبت بأيّ كسر عندما لمستها، لكنّ الألم فاق قدرتي على التحمّل وأحبط عزيمتي وأصابني بالدوار وشتّت ذهني إلى حدّ ما. وجدتُ صعوبة في ارتداء بنطلوني، لأنني اضطررت إلى إبقاء رجلي اليمنى مستقيمة. وقرّرت في حال فشلت أن أستسلم وأعاود الصعود إلى السرير. لكنني تمكّنت في النهاية من ارتداء بنطلوني، ثم بقية ملابسي، وقصدت غرفة الجلوس مترنّحًا. جلست إلى الطاولة ومددت رجلي من تحتها قبل أن ينهي أبي وفرانز حديثهما ويدخلا.

•

بعد أن أنهينا فطورنا المتأخّر تولّى الرجلان مهمّة الجلي فورًا. قال أبي إنه يريد العودة إلى مطبخ نظيف بعد يوم مرهق، لا أن يدخل ليجد الفوضى والمخلّفات في انتظاره. ولم أفهم لماذا تركاني أجلس هناك مرتاحًا، علمًا أن المساعدة في الجلي جزء من مهامّي، لأن أختي لم تأت معنا من أوسلو. على العموم، لم أمانع مطلقًا تركي وشأني يومها.

وقفا وهما يوليان الطاولة ظهريهما، يثرثران ويعبثان ويقعقعان

بالفناجين والأكواب. وما لبث فرانز أن بدأ يدندن أغنية تعلّمها من أبيه عن حيوان متدلٍّ من أعلى الشجرة، اسمه «الشَّره» ويشبه ابن عُرس. وتبيّن أن أبي يعرف تلك الأغنية أيضًا وأنه تعلّمها من أبيه. وهكذا، راحا ينشدانها معًا في تناغم وهما يلوّحان مع الإيقاع بخرق الجلي وفراشي التنظيف. تخيّلت ذلك «الشَّره» يتدلّى بلا حول ولا قوة من رأس شجرة تنّوب، وثقل رأسي حتى عجزت عن حمله، فاغتنمت فرصة انشغالهما لأريحه على يديّ المستندتين إلى الطاولة أمامي. ولعلي سهوت للحظات وأنا في تلك الوضعية. لكن، عندما قال أبي:

«يجدر بنا الآن ألاّ نعبث هنا أكثر مما فعلنا. علينا أن نمضي، أليس كذلك يا تروند؟» سمعته بوضوح وأجبت وفمي ينضح باللعاب:

«نعم، معك حقّ.» وبادرت إلى رفع رأسي، ومسحت فمي شاعرًا فجأة أنني في أحسن حال.

مشيت خلفهما ونحن نقطع الفناء إلى المستودع، محاولاً التستّر على عرجي قدر الإمكان. من بين كلّ الأدوات هناك، اخترت منخسًا ولفّة حبل علّقتها على كتفي. وأخذ أبي هو الآخر منخسًا وفأسين ومدية. أما فرانز فانتقى عتلة ومنشارًا سُنّ مؤخرًا. كنا نحتفظ بجميع هذه الأدوات وكثيرٍ غيرها في المستودع؛ مناشير ومطارق ومنجلين وكلاّبات ومسحجتين وأزاميل مختلفة الأحجام، ومبارد متنوعة معلّقة على مسامير مصفوفة على الحائط. وهناك أيضًا أقواس حديدية ومجموعة كبيرة من أدوات أجهل طرق استعمالها. كانت ورشة أبي في ذلك المستودع كاملة التجهيز، ولطالما أحبّ تلك الأدوات، وحرص على شحذها وصقلها ونقعها في زيوت مختلفة

لتبقى رائحتها جيدة وتعمّر مدّة طويلة. وكلّ شيء هناك له مكانه المخصّص له حيث يعلّق أو يُنصب جاهزًا للاستعمال.

أغلق أبي باب المستودع وأعاد الرتاج. ثم مشينا نحن الثلاثة في صفّ وقد تأبّطنا أدواتنا أو حملناها على أكتافنا، ويـــمّمنا درب النهر حيث كومتا الخشب. يتقدّمنا أبي وأنا في المؤخرة. كانت الشمس تشعّ وتلمع على النهر الذي ارتفع منسوبه بعد عدّة أيام من المطر. ولا شيء بدا أنه يعبّر بامتياز عن ذلك الصيف وما فعلناه معًا مثل ذلك المشهد؛ لولا قدمي التي رحت أجرّها بمشقّة، ولأن في داخلي، في مكان ليس ببعيد عن روحي، كما رأيت الأمر، كان ثمّة شيء مُتعَب ومكدود إلى درجة أنه آنذاك جعل كاحليّ وفخذيّ أوهن من أن يتحمّلا وزني كالمعتاد.

عندما بلغنا الضفّة وضعنا أدواتنا على الصخور، وحام أبي وفرانز حول كومة الخشب الأولى. ثم وقفًا جنبًا إلى جنب مستدبرين النهر الفيّاض المتلألئ. وبرأسين مائلين وأيدٍ تستند إلى الوركين، أمعنا النظر في الخشب الثقيل المكدّس والمدعّم بعارضتين عموديتين متينتين. كانت العارضتان مثبتتين جيدًا بأوتاد خشبية مائلة مغروزة في الأرض. والمغزى من ذلك أنه عندما تُسحب هذه الأوتاد ستسقط العارضتان أرضًا، وستتزعزع كدسة الخشب في الحال، وتتدحرج الجذوع فوق العارضتين، كما لو أنهما سكّة قطار، ومنهما إلى الماء. هذا في حال صحّ قياس المسافة ومستوى الانحدار. ووفقًا لأبي وفرانز فإن كلّ شيء قد حُسب بدقّة. بعد ذلك، جثما على الأرض، وانهمكا ينحيّان الحصى والحجارة من حول نهايات الأوتاد المائلة حتى يسهل سحبها. عندما انتهيا، أمسك كلّ منهما حبله وربطه حول وتد، ثم

تراجع جانبًا ممسكًا طرف الحبل بيده، لأن أحدهما لا يريد الوقوف في درب الخشب وهو يهوي. ثمّة طرق مختلفة للقيام بذلك. وتعود براءة اختراع تلك الطريقة إلى فرانز. بيد أنه قال إنه لم ينجح قطّ في إرسال الخشب إلى الماء دفعة واحدة، ولم يظنّ أنه سينجح هذه المرة أيضًا؛ لأن الأمر يحتاج إلى درجة انحدار معيّنة، وكذلك إلى ثقل كبير مناسب. ويستلزم، إلى جانب الحظّ الوافر، عارضات ودعائم قوية جدًا. وهي في النهاية طريقة تتّسم بخطورة كبيرة. ولكن بالطبع، حسب رأي فرانز، إذا رُمت حياة رَخيّة، عليك أن تجازف من وقت إلى آخر.

بعدئذ شدّ كلّ منهما حبله من نهايته، وأحكما تثبيت أعقاب أقدامهما بالأرض، ثم عدّا بصوت عالٍ: خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد، الآن! وجذبا بقوّة كبيرة. طقطقت الحبال، ونتأت العروق في جبينيهما وامتقع وجهاهما، ولم يحدث شيء. بقيت الأوتاد ثابتة في مكانها. بدأ فرانز العدّ العكسي ثانية وصاح: الآن! ثم جذبا مرة أخرى وهما يئنّان بالتناوب. لكن شيئًا لم يتحرّك سوى تقاسيم الرجلين اللذين أطبقا شفاههما وضيّقا عيونهما إلى ما يشبه الثقوب. وأي من تلك التكشيرات لم تساعدهما. وبقيت الأوتاد ثابتة حتى عندما شدّا بكلّ ما أوتيا من قوة.

«تبًّا،» قال أبي.

«جهنّم وبئس المصير،» قال فرانز.

«سنضطرّ إلى قطعها بالفأس،» أعلن أبي.

«هذا خطر،» أجاب فرانز. «قد يسقط تلّ الخشب على رؤوسنا.»

«أعرف،» همهم أبي. ومع ذلك مضيا وجلبا فأسيهما من كدسة الأدوات، وعادا إلى كومة الخشب. وقفا هناك مستندين بأيديهما إلى الدعامات المائلة، والغيظ يكاد يفجّر جسميهما لأن خطّتهما لم تنجح من المحاولة الأولى، وهو شيء لم يعتاداه. وسرعان ما صاح فرانز ثانية «جهنّم وبئس المصير»، ثم قال لأبي:

«فلنضرب معًا في وقت واحد.»

«نعم، بالتأكيد،» أجاب أبي. ودوزن كلّ منهما إيقاعه مع الآخر، وزامنا ضرباتهما. فدوّى قرع فأسيهما كأنه طرقة واحدة في كلّ مرّة. رأيت أنهما استمتعا بذلك، فقد ابتسم فرانز فجأة ثم ضحك، وابتسم أبي أيضًا. وتمنّيت لو أنني مثلهما، لو أن لديّ صديقًا مثل فرانز أستطيع التلويح بفأسي معه، وأرسم وإيّاه الخطط، نتشارك بذل المجهود البدني، ونضحك ونقطع الأوتاد عند نهر مثل ذاك، نهر هو نفسه دائمًا، ومع ذلك متجدّد أبدًا، كحاله في ذلك اليوم. لكن الصديق الوحيد المحتمل اختفى، ولا أحد بات يأتي على ذكره. هناك أبي بالطبع، إنما هذا شيء مختلف. فأبي رجل بالغ لديه حياة خفيّة وراء الحياة التي أعرفها، وربما لديه حياة ثالثة وراء تلك الخفيّة، وما عدت متيقّنًا من أن في وسعي الوثوق به.

أسرع أبي في وتيرة ضربات فأسه، وحاكاه فرانز. ثم بدأ أبي يضحك وهو يهوي بفأسه بمزيد من العزم. وما لبثت أن سمعت صريرًا من الموضع الذي ما انفكّت الفأس تحطّ عليه. وصاح أبي:

«انجوا بجلدكم،» واستدار على عقبيه وارتمى جانبًا. ضحك فرانز بصوت عالٍ وفعل مثله. تحطّم الوتدان في الوقت نفسه تقريبًا، ثم انحرفا، فسقطت العارضتان إلى الأمام كما هو مرسوم لهما، وبدأت

كومة الخشب تتزلق بضجيج يشبه رنين مئة جرس ضخم امتدّ صداه من الماء إلى الغابة. وسرعان ما تدحرج ما يعادل نصف الجذوع على الأقلّ، وتقريبًا طفرت وهي تهوي إلى النهر، مثيرة رشاشًا من الماء. كان منظر تلك الفوضى في النهر مدهشًا. وقد سررت لأنني كنت هناك لأشهده.

تبقّى الكثير من الخشب الذي ينبغي دحرجته إلى النهر. وانبرينا إلى العمل، كلّ بمنخسه. شددنا وجذبنا وجررنا، وأحيانا استخدمنا العتلات لنباعد ما بين الجذوع المتلاصقة بقوّة. وفي أحيان أخرى استعملنا الحبال لنحرّر ما تشابك منها، حتى استسلمت لنا واحدة تلو أخرى. ثم دحرجها، اثنان منا في كلّ مرة، نحو النهر بالمنخس. وهناك كان رشاش الماء يتصاعد، وبعد ذلك تطفو الجذوع فجأة، ثم تمضي بتؤدة مهيبة مع التيّار، لتجتاز الوادي في طريقها إلى السويد.

سرعان ما شعرت بالتعب يجتاحني. لكن الشعور المميّز الذي ارتقبته ليرقى بي ويُثملني ويمنحني طاقة إضافية للعمل، ويؤرجحني بسهولة بين قبضتيه، لم يستحوذ قطّ على عضلات ساقيّ أو عضلات ذراعيّ أو أيّ عضلات أخرى كما أَمَلت. بدلاً من ذلك شعرت بالضغط والاستتراف، وسعيت إلى التركيز بعناية على كلّ مهمّة على حدة، لئلا يرى الرجلان في أيّ حالة أنا. آلمتني ركبتي، وتنفّست الصعداء لما أعلن أبي أخيرًا أن وقت الاستراحة حان. كان معظم الخشب قد أُرسِل إلى النهر، ولم يتبقّ سوى جذوع قليلة، بمعزل عن الكومة الأخرى التي ما زالت في انتظارنا. تسلّلت إلى شجرة الصنوبر الموسومة بعلامة الصليب. ذاك الصليب الذي سمّره فرانز على جذعها في ذات ليلة شتوية من سنة 1944، لأن رجلاً من أوسلو يلبس

بنطلونًا فضفاضًا خفيفًا قُتل هناك برصاص الألمان. استلقيت بين نبات الخلنج تحت الصليب، مريحًا رأسي على أحد الجذور الكبيرة ونمت فورًا.

لما أفقتُ، وجدت أمّ جون راكعة عند رأسي؛ يدها تداعب شعري والشمس تشعّ من ورائها. كانت بفستانها القطني الأزرق المنقوش بالزهور الصفراء، وعلى محيّاها يرتسم تعبير رزين. سألتني هل أنت جائع؟ وللحظة هناك، خلتني الرجلَ ذا البنطلون الفضفاض، مع فارق أنه لم يمت من فوره، بل استعاد وعيه ورفع عينيه ناظرًا إليها حيث لبثت واقفة إلى جانبه، ثم عاد وانسلّ بعيدًا وتلاشى. طرفت بعينيّ وشعرت بوجهي يتضرّج بالحمرة. أدركت في الحال أن السبب يعود إلى أنني كنت أحلم بها. لم أتذكّر الحلم، فقط تذكّرت مشاعر الدفء والعاطفة الغريبة فيه؛ مشاعر لم أستطع الإقرار بها وعيناها في عيني. هززت رأسي إيجابًا، وحاولت، وأنا أبتسم، النهوضَ مستعينًا بإحدى ذراعي.

«أنا قادم،» قلت، وأجابت:

«حسنًا، هيّا، الطعام جاهز،» ثم فاجأتني بابتسامة لم أتوقّعها جعلتني أشيح بوجهي، وأمدّ نظري إلى النهر الفيّاض من ورائها، وأتجاوزه إلى الضفّة الأخرى. وهناك ظهر فرَسان من خيول باركالد فجأة، ووقفا عند السياج في أعلى الحقل يحدّقان فينا وقد انتصبت آذانهما وسنابكهما تضرب الأرض. وخطر لي أنهما شبحا فرسين أُرسِلا إلى تلك البقعة ليُحذّرا من كارثة وشيكة.

نهضتْ أمّ جون بحركة انسيابية واحدة، كأنّ ذلك أسهل شيء في العالم. ثم قصدت النار المطقطقة التي أشعلها أبي أو فرانز. أقيمت

تلك النار في البقعة التي شغلتها سابقًا كومة الخشب الأولى، ومنها انبعثت رائحة لحم مشوي وقهوة، ورائحة تبغ، ورائحة خشب وخلنج وصخور كوّنها الشمس، وأريج مميّز لم ألاحظ وجوده في أيّ مكان آخر غير هناك عند ذلك النهر. أريج لا علم لي بمصدره في حال لم يكن مزيجًا من كلّ ما هو هناك؛ كأنه قاسم مشترك بينها، أو حاصل جمع. أريج، لم أعرف ما إذا كان سيتسنّى لي أن أختبره ثانية إذا رحلت عن ذلك المكان و لم أعد ثانية إليه.

على مسافة غير بعيدة عن النار، كان لارس يقتعد صخرة قريبة من الماء. بيده حزمة أغصان غليظة، ما لبث أن أخذ يقطعها إلى أطوال متساوية، ويكوّمها عند ضفّة النهر على أرض مائلة معشوشبة قرب صخرته. ثبّت أمام الكومة غصنين داعمين وأسند جميع الأغصان إليهما. بدا ذلك نموذجًا مصغّرًا جيدًا بالفعل، كأنه كومة خشب حقيقية. ذهبت إليه وجلست القرفصاء. شعرت أن رجلي تحسّنت كثيرًا بعد الاستراحة، ما عنى أنني لن أصبح ذا عاهة في النهاية.

«تلك كومة جميلة،» قلت.

«إنها بضعة أغصان فقط،» أجاب، وجاءني صوته خافتًا وجدّيًا، و لم يلتفت نحوي.

«حـــ.. ســـ.. نًا،» قلت، «صحيح ربما، لكنها مع ذلك عظيمة. تشبه كومة حقيقية، إنما مصغّرة.»

«لا أعرف ما معنى موصيغرة،» قال لارس بنبرة رقيقة.

استحثثت ذهني، فأنا أيضًا لم أعرف، ومع ذلك قلت:

«هذا عندما يشبه شيء صغير جدًا شيئًا آخر كبيرًا. هو مثله لكنه صغير. هذا كل شيء. هل تفهم ما أعني؟»

«تؤ.. إنها بضعة أغصان فقط.»

«طيّب، لا بأس. إنها بضعة أغصان فقط. ألن تتناول شيئًا من الطعام؟»

هزّ رأسه نافيًا. «لا،» قال بصوت لا يكاد يُسمع. «لن أتناول شيئًا من الطعام،» كرّر مستعملاً عبارتي، و لم يكتف بأن يقول «لن آكل»، حسب ما قد يُتوقّع منه.

«آ، حسنًا،» قلت. «لا بأس. افعل ما يناسبك!» ثم نهضت بحذر ملقيًا ثقلي على رجلي اليسرى.

«أما أنا فجائع،» أردفت وأنا أستدير متقدّمًا بضع خطوات، وإذا بي أسمعه يقول:

«قتلت أخي. أنا قتلته.»

التفتّ، وعدت إليه. شعرت بجفاف في فمي. وقلت بصوت خرج كالهمس:

«أعرف. هذا ليس خطأك. لم تعلم أن البندقية محشّوة.»

«لا، لم أعلم.»

«كان ذلك حادثًا.»

«نعم، كان حادثًا.»

«أأنت متأكّد من أنك لا تريد أن تأكل شيئًا.»

«نعم، سأبقى هنا.»

«لا بأس،» قلت. «يمكنك المجيء لاحقًا إذا جعت.» ثم أخذت أنظر إلى شعره، وإلى ما استطعت تبيّنه من وجهه. كان في العاشرة من العمر فقط بحقّ الله. لم يحرّك ساكنًا، و لم يعد لديه ما يضيفه.

يـــمّمت النار حيث قعد أبي باسترخاء كبير وظهره إلى النهر.

كان هو وأمّ جون يجلسان على جذع واحد ما زال هناك. لم يجلسا متلاصقين كما لمحتهما على رصيف القوارب في ذلك الصباح. لكنني في جميع الأحوال رأيت أنهما متقاربان جدًا، وأن ظهريهما ينمّان عن الشعور بالطمأنينة والرضا. فجأة تملّكني غضب عظيم عليهما. كان فرانز جالسًا وحده على أرومة شجرة أمامهما وبيده صحن قصدير. لمحت وجهه الملتحي من خلال النار والدخان الشفّاف. وكانوا قد بدأوا يأكلون للتوّ.

«تعال يا تروند واجلس،» صاح فرانز بطريقة خرقاء نوعًا ما، وربّت أرومة شجرة قربه. «تحتاج إلى القوت الآن. ما زال لدينا عمل كثير. علينا أن نأكل لنجدّد قوانا.»

لم أجلس على تلك الأرومة التي أشار إليها. بل فعلت شيئًا اعتقدت أن أحدًا لم يسبقني إليه، وما زلت أعتقد ذلك. شققت طريقي من وراء أبي وأمّ جون، وقذفت ساقًا فوق الجذع الذي يجلسان عليه، ثم حشرت نفسي بينهما. وبسبب عدم وجود متّسع كافٍ لي هناك طفقت أدفع جسميهما بجسمي بقوّة، جسمها على وجه الخصوص. وجاءت حركتي العدائية جلفة بالمقارنة مع ليونتها، وأحزنني ما فعلته، إنما لم يوقفني عند حدّي. فأفسحت لي، أما أبي فجلس متخشّبًا كاللوح.

«ها، هذا مكان جيّد للجلوس،» قلت.

«أوتظنّ حقًا؟» غمغم أبي.

«بالطبع، ما دمت في رفقتكم،» أجبت وأنا أتفرّس مباشرة في عيني فرانز مسمّرًا نظري عليهما. فبدأت عيناه تراوغان، وفيما انبرى يمضغ بصعوبة ثبّتهما على صحنه وعلى وجهه يرتسم تعبير غريب.

تناولت صحنًا وشوكة وانحنيت لآخذ حاجتي من المقلاة الموضوعة بأناقة على صخرة عند طرف النار.

«إن الطعام يبدو مشهيًا بالفعل،» قلت، وسمعت في صوتي نبرة حادّة جاءت أعلى بكثير مما قصدت.

١٤

أتخبّط وأنا أشقّ طريقي صاعدًا من الحلم نحو النور، وأراه، أرى النور من فوقي. إن هذا مثل وجود المرء تحت الماء؛ السطح الأزرق الوامض في الأعلى قريب جدًا، وفي الوقت نفسه مُغرق في البعد، لأن لا شيء في الأعماق القرمزية، هنا في الأسفل، يتحرّك بخفّة. وأنا قد زرت هذا المكان من قبل، بيد أنني لا أعرف الآن أسأهض في الوقت المناسب. أمطّ ذراعيّ بقدر ما أستطيع، والإنهاك يعوقني، ثم فجأة أحسّ بملمس الهواء البارد على راحتيّ، فأستعين برجليّ لتسرّعا من صعودي. لا يلبث وجهي أن يخترق الطبقة العليا الشفّافة، فأفتح فمي لأعبّ الهواء، ولحظتها أفتح عيني. حسنًا، ما من أثر للنور. فقط عتمة مخيّمة كعتمة تلك الأعماق، ومذاق يشبه مذاق الرماد في فمي من خيبة الأمل. إنه ليس المكان الذي أريد أن أكون فيه. أتنفّس بعمق، وأطبق فمي بإحكام وأهمّ بالغوص ثانية، ثم أدرك أنني في سريري، تحت اللحاف، في هذه الغرفة المجاورة للمطبخ، وأن الوقت مبكّر ولا تزال الدنيا

غارقة في ظلام حالك، وأنني لست مضطرًا إلى الاستمرار في حبس أنفاسي. أفرغ رئتي من الهواء وأضحك ضحكة ارتياح في ثنايا مخدتي. ثم أجهش بالبكاء، أبكي قبل أن أتمكّن من فهم السبب وراء بكائي. هذا شيء جديد عليّ. لا أستطيع أن أتذكّر متى بكيت آخر مرة. أواصل البكاء لفترة قصيرة، ثم يصعقني سؤال: إذا عجزت عن بلوغ السطح في ذات صباح، هل يعني ذلك أنني أحتضر؟

ذاك ليس سبب بكائي. إذ في وسعي الخروج والاستلقاء على الثلج إلى أن يخدّرني البرد ويدنيني أقرب ما يمكن من الموت، حتى أكتشف أيّ شعور يكتنف تلك الحالة. ليس أسهل من أن أهيئ نفسي لذلك، لولا أن الموت ليس في الحقيقة ما أخشاه. ألتفت نحو طاولة السرير الصغيرة وأنظر إلى لوحة المنبّه المضيئة. إنها السادسة. هذا وقتي. عليّ أن أبدأ يومي. أنـــحّي اللحاف جانبًا وأستحثّ نفسي على النهوض. أحسّ هذه المرة أن ظهري على ما يرام. أجلس على طرف السرير وقدماي على سجادة وضعتها على الأرض، حتى أجعل صدمة البرد في فصل الشتاء أخفّ وطأة عليهما. يجدر بي أن أرصف أرضية جديدة فيها مادة عازلة. قد أفعل هذا في الربيع، إن لم أفلس، وبالطبع لن أفلس، فمتى يا ترى سأتوقّف عن القلق بخصوص هذا الشأن؟ أشعل مصباح السرير. أبحث بيدي عن بنطلوني المعلّق على الكرسي. أجده، وأمسكه، ثم أتوقّف. لا أدري ما حكايتي. لست مستعدًا بعد كما أرى. لديّ أشغال لا بدّ من القيام بها؛ هناك تغيير ألواح أرضية العتبة قبل أن يتعثّر بها أحد ويكسر رجله. ذاك ما نويت عمله اليوم. وقد اشتريت لهذه المهمّة ألواحًا مدهونة ومسامير من حجم ثلاثة إنشات. أعتقد أنها تفي بالغرض، لأن مسامير من حجم أربعة إنشات ستكون

أطول من اللازم. وهناك أيضًا فلق خشب شجرة البتولا التي وقعت، وتقسيمه إلى أحجام مناسبة للموقد. وهي مهمّة لا تزال بانتظاري، ولا حاجة إلى القول أنها مهمّة لا تحتمل التأجيل الآن وجحافل الشتاء مقبلة بكلّ ثقلها. أو هذا ما يبدو على أيّ حال. ثم إن لارس سيأتي لاحقًا لنجرّ الجذر الضخم بالسيارة والسلاسل. أتكهّن أن التعامل مع هذه المسألة سيكون ممتعًا حقًا. أرنو من النافذة. لقد توقّف الثلج. ألمح بصعوبة حدود أكوامه المكدّسة على طول الطريق. لعلّه ليس من السهل اليوم العمل في الخارج.

أفلتُ بنطلوني وأعاود الاستلقاء. هناك شيء ما مزعج في ذلك الحلم. أعرف أنني أستطيع تحليله إذا حاولت. أنا بارع في هذا، أو على العموم كنت بارعًا في السابق. بيد أنني لست متأكّدا من رغبتي في ذلك. إنه حلم بمغزى جنسيّ. غالبًا ما أبصر مثل هذه الأحلام. أقرّ بهذا. فهي في النهاية ليست حكرًا على المراهقين. كانت أمّ جون في حلمي، كما هي في صيف 1948، وأنا على هيئتي الحالية. في السابعة والستين من العمر، وبعد أكثر من نصف قرن على ذلك الصيف. ولعل أبي كان في مكان ما في هذا الحلم، في الخلفية ربما، ما بين الظلال. يُخيّل إليّ أنه كان. وكلما تعمّقت في هذا الحلم شعرت بتقلّص في أحشائي. أرى أن أتناساه، أن أتركه يتقهقر ويغوص ليستقرّ بين أحلام أخرى أبصرها ولم أجرؤ على تحليلها. تلك الفترة من حياتي التي درجت فيها على الاستفادة من أحلامي خلّفتها ورائي. الآن ما عدت بصدد تغيير أيّ شيء. أنا باقٍ هنا، إذا نجحت في تدبّر أمري. هذه هي خطّتي.

وهكذا أنهض. إنها السادسة والربع. تترك ليرا مكانها بالقرب

من الموقد وتمضي لتنتظرني عند باب المطبخ. تدير رأسها وتنظر إليّ. نظرتها تلك مفعمة بثقة لا أستحقّها على الأرجح. إنما لعل هذا ليس المهمّ، أعني أن أستحقّها أو لا أستحقّها. فتلك الثقة ربما هي موجودة فحسب، بصرف النظر عن أيّ شيء آخر، ولا علاقة لها بمن أنت أو ماذا فعلت، ولا ينبغي وضعها في أيّ ميزان. هذه فكرة لطيفة. يا لليرا الطيبة، يا للكلبة الطيبة. أفتح الباب وأدعها تخرج إلى الرواق ومنه إلى عتبة الباب. أشعل الضوء الخارجي من الداخل ثم أتبعها وأقف مستطلعًا. تقفز ليرا مباشرة إلى الثلج المشرّب بنور أصفر، والمتراكم في كومات هائلة إلا حيث جرفه أسليان بمهارة. كان أسليان قد شكّل في الفناء دائرة واسعة متفاديًا سيارتي ببضع سنتمترات فقط. وبدا أنه قد دفع الجذر الضخم بكاسحة الثلج جيئة وذهابًا، لأنه على الأرجح سدّ عليه الطريق. وفي النهاية أقصاه إلى طرف الفناء حيث يستقرّ الآن؛ سهل المنال وجاهز للنقل في وقت لاحق. بل حتى أزال الثلج على طول مسافة أحد جدران البيت إلى تخوم الغابة، حيث أذهب عادة لأقضي حاجتي عندما لا أرغب في الإفراط في استعمال مرحاضي الخارجي. أتراه يقترح بعمله هذا أن أركن سيارتي هناك في المستقبل، حتى لا تقف في طريق جرّاره؟ أم تراه هو أيضًا يستعمل مرحاضًا مفتوحًا؟

أترك ليرا في الفناء لتستكشف طريقها بنفسها في العالم الأبيض الجديد. وأدخل وأغلق الباب لأشعل نار الموقد. لا أواجه مشكلة في هذا العمل اليوم. ولا تلبث النار أن تطقطق بصوت مُطَمئِن وحازم من وراء صفائح الموقد الحديدية. لا أشعل لمبة السقف على الفور، بل أترك الغرفة غارقة بحمرة الفجر لتلقي ألسنة اللهب الصفراء في الموقد

وميضها على الأرض والجدران. منظرها يبطئ من وتيرة أنفاسي ويشيع في نفسي السكينة. ولا ريب أن تأثيرها هذا أصاب جميع البشر على مدى آلاف السنين، وجعل لسان حالهم يقول: لتعوِ الذئاب كما تشاء، فهنا قرب النار نحن آمنون.

أجهّز الطاولة للفطور من غير أن أشعل الضوء. ثم أُدخِل ليرا من البرد لتستلقي قرب الموقد قليلاً قبل أن نخرج معًا. أجلس وأنظر من النافذة. كنت قد عدت وأطفأت الضوء الخارجي، حتى لا يشعّ في الخارج سوى بريق أسطح الأشياء، بيد أن الوقت لا يزال مبكرًا على طلوع النهار، وما من نور سوى قبس وردي باهت فوق الأشجار تجاه البحيرة أشبه بخطوط مبهمة، مثل آثار إصبع طبشور ملّون. لكن على الرغم من ذلك يبرز كلّ شيء في الخارج بطريقة أكثر تميّزًا من السابق بسبب الثلج. الثلج الذي فصل السماء عن الأرض بخطّ واضح. وذاك شيء جديد في هذا الخريف. أبدأ في الأكل ببطء من غير أن أعاود التفكير في حلمي. وبعد انتهائي أُخلي الطاولة من الصحون، وأقصد الرواق لأنتعل جزمتي ذات الرقبة العالية. ثم أضع سترة البحّارة القديمة السميكة وطاقية واقية للأذنين وقفّازًا، وأتدثّر بالوشاح الصوفي الذي ما كففت عن لفّ رقبتي به منذ عشرين سنة على الأقلّ. وشاح غزلته لي إحداهن عندما كنت مطلّقًا ووحيدًا. لا يحضرني اسمها الآن. أتذكّر فقط يديها في الفترة التي أمضيناها معًا. لم أرهما يومًا ساكنتين بلا حراك. بمعزل عن هذا كانت ذات طبع هادئ وحكيم بطريقتها الخاصّة؛ وفي لحظات صمتنا لا يمكن المرء سماع أيّ شيء ما عدا حفيف احتكاك صنارتيها، وذاك كلّه بدا لي باعثًا على الكآبة، وما لبثت علاقتنا أن تراجعت بهدوء نحو لا شيء.

ليرا تبصبص بذيلها عند الباب، يقظةً ومستعدّة. آخذ مصباح الجيب من على رفّه، أفكّ طرفه وأغيّر بطارياته القديمة بأخرى جديدة كنت قد وضعتها على الرفّ نفسه. ثم ننطلق. أنا أولاً وهي تتبعني بعدما تُعطى الأمر. أنا المدير هنا، وكلانا يدرك ذلك. وهي في جميع الأحوال لا تمانع الانتظار لأنها تعرف نظامنا، وتبتسم، على طريقة الكلاب في الابتسام. وما إن أقول بهدوء: هيّا!، حتّى تقفز ما يعادل مترًا في الهواء، إلى الأعلى أولاً ثم من فوق درجات العتبة، وتحطّ شبه واقفة ما بين ذراعيّ. ففي داخلها ما زالت تحتفظ بطباع الجِراء.

أشعلُ المصباح ونشرع في سلوك الدرب المنحدر. كانَ أسليان قد جرف الثلج من هناك، وكوّمه على شكل ضفاف حادّة الحفاف امتدت بتعرّج أنيق إلى الجسر، وفوق النهر الصغير، وإلى كوخ لارس في الطرف الآخر. ولا ريب في أنه قطع مسافة جيدة تجاه الطريق العامّ مابين أشجار التنّوب. نتوقّف، وأوجّه مصباحي نحو الدرب الذي نأخذه عادة على طول النهر إلى البحيرة. ثمّة ثلج كثير هناك الآن ولا أدري هل أنجح في خوض طريقي. أعرف أن هناك خيارًا واحدًا آخر أمامي، وهو المضي قُدمًا. لم يسبق لي أنا وليرا أن قصدنا تلك الوجهة معًا، حيث يصل بنا الامتداد الأخير للدرب إلى الطريق العامّ، ثم المضيّ على طوله. هذا يعني أنني سأضطرّ إلى اقتياد ليرا بسبب حركة المرور، وذاك ليس مناسبًا لكلينا. في هذه الحالة كان يجدر بي البقاء في المدينة، حيث يمكن أن نتسكّع ذهابًا وإيابًا في شوارع كئيبة سلكتها لثلاث سنوات وأنا أفكّر أن لا بدّ من وجود نهاية ما لهذا، أن لا بدّ من حصول شيء وإلا فأنا مقضيٌّ علي. فجأة أقول لنفسي: ولماذا لا أتعب؟ ما الذي لا يزال ينتظرني في حياتي لأدّخر له طاقتي؟

وهكذا أخطو فوق المنحدر الثلجي وأكوامه الأولى وأمشي مسترشدًا بمصباحي، تارة تجد قدماي موطئًا ثابتًا وجيدًا في المواضع التي أجلت الريح ثلجها، وتارة أخرى تعترضني طبقات عالية من الثلج. لا شكّ في أن انتعالي لجزمتي ذات الرقبة العالية كان تصرّفًا ذكيًّا منّي. أرفع رقبتي الجزمة جيدًا، وأدفع أمامي رجلاً قبل الأخرى، الرجل اليمنى أولاً حيث أدعها تغوص في الأرض، ثم اليسرى لأدعها تغوص هي الأخرى. ثم الحركة نفسها من جديد. وعلى هذا النحو أشقّ الطريق في أصعب المواضع. من فوقي، تبدأ السماء في الانقشاع مسفرةً عن بعض النجوم، نجوم باهتة نوعًا ما والليل في آخره. من المؤكّد أن لا مزيد من الثلج الآن. عندما يطلع الصباح ستشرق الشمس. لكن، قد لا تكون متوهّجة وملتهبة الحرارة مثل ذلك اليوم الذي عاودتني ذكراه فجأة؛ يوم من أيام حزيران الأخيرة سنة 1945. اليوم الذي وقفت فيه أنا وأختي أمام النافذة، هناك في الطابق الأول من البيت المشرف على منظر داخلي لخليج أوسلو وخليج بونّي وشبه جزيرة نيسودلاندت. كنّا في الصيف بطبيعة الحال، وعلى الماء لألاء يأخذ بالألباب، وفيه قوارب مجنونة طفقت تبحر بخطوط متعرّجة من شاطئ إلى شاطئ. كانت تقوم بنـــزهاتها البحرية وهي ناشرة أشرعتها احتفاءً بتحرير النرويج. تدير الحماسة دفّتها، ولا يعتريها الكلال أبدًا. والذين على متنها أطلقوا عقيرتهم بالغناء غير آبهين لشيء. وذاك بالطبع حقّهم. بيد أنني كنت قد سئمت ذلك، واستنفد الانتظار طاقتي، لأنني رأيت أولئك الناس مرّات كثيرة من قبل؛ رأيتهم في شارع كارل يوهان في المدينة، وفي ساحة أوستماركسيترا في الغابات، وحمّامات إنغرستراند، وكذلك في فاغرستراند عندما ذهبنا إلى هناك بقارب استأجرناه. وفي

أماكن أخرى متعدّدة حيث انبروا فيها كلّها يصيحون ويزعقون غير مدركين أن الحفلة قد انتهت. لكننا يوم وقفت أنا وأختي أمام النافذة لم نقف لنتفرّج على خليج فيورد، لأن لا شيء يستحق عناء الترقّب جاء من ناحيته. ما فعلناه، هو إنعام النظر في الطريق التي أقبل منها أبي. كان يمشي الهوينى وهو يصعد منحدر نيلسنباكن، وقد قدم من محطة ليان عائدًا إلى دياره من السويد بعد الحرب. أقبل بكثير من التواني وكثير من التردّد، وعليه سترة رمادية رثّة، وعلى ظهره جراب رمادي نتأ منه شيء يشبه قصبة صيد. لم يجرجر قدمه، ولم يعرج، ولم نر أنه مصاب بأي جراح ظاهرة. مع ذلك واصل تقدّمه ببطء، كما لو أنه يخوض في داخل سكون هائل، في داخل فراغ. أما لماذا وقفنا أمام النافذة ولم نقصد المحطة قبل وصول القطار، أو لماذا لم ننـــزل إلى الطريق لملاقاته والترحيب به، فلا أتذكّر اليوم. ولعل الحياء هو ما منعنا. أعرف على الأقلّ أنني كنت كذلك، كحالي دائمًا. يومذاك، وقفت أمّي عند فرجة الباب المفتوح في الطابق الأرضي تعضّ شفتها وتعصر منديلها المبلل بيدها. كانت عاجزة عن التحكّم بقدميها، وراحت تتململ في وقفتها كما لو أنها تريد الذهاب إلى المرحاض. وفي النهاية ما عادت قادرة على ضبط نفسها فاندفعت من الباب وجرت إلى الطريق. وعلى مرأى أنظار المتفرّجين في حدائق متعدّدة ارتمت على أبي. ذاك ما كان يُفترض بها أن تفعله بالطبع، ما ينبغي أن تفعله، وهي حينها في ريعان الشباب ومتوقّدة بالحياة. لكن الصورة التي أتذكّرها عنها، هي صورتها التي أصبحت عليها في ما بعد؛ مُثخنة بالندوب ومثقلة بالمرارة والكآبة.

لا ريب أن أبي توقّع استقبالاً كذاك. أنا واثق من أنه توقّعه. فنحن

لم نكن قد اجتمعنا به منذ ثمانية أشهر ولم يصلنا خبر منه إلا قبل يومين، فعرفنا أنه قادم. قطعت أختي الدرج جريًا إلى الطريق حيث نسخت حركات أمّي كلّها، وتصرّفها ذاك أحرجني. ما لبثت أن تبعتها على مهل. لم يكن من السهل عليّ أن أدع العواطف تجرفني، لم يكن ذلك من طبيعتي. وقفت قرب صندوق البريد، واستندت إليه ناظرًا إليهما وهما واقفتان في وسط الطريق ومتشبّثتان بأبي. لمحت وجهه من فوق أكتافهما وقد لاح مربكًا وحائرًا في البداية، ثم نشدت عيناه عينيّ، ونشدت عيناي عينيه. هززت رأسي برفق، فهزّ رأسه بدوره مجيبًا وفمه يسفر عن ابتسامة واهنة. ابتسامة خصّني بها أنا وحدي، ابتسامة سرّية. أدركت عندئذ أن كلّ شيء من تلك اللحظة فصاعدًا يخصّنا نحن الاثنين فقط. أنّ بيننا ميثاقًا. وعلى الرغم من غيابه الطويل، رأيته في ذلك اليوم أقرب إليّ مما كان عليه قبل أن تبدأ الحرب. كنت في الثانية عشرة من العمر، وفي غضون لحظة واحدة انتقلت حياتي من مركز إلى مركز آخر. من أمّي إليه هو، واتّخذت بهذا الانتقال منحىً جديدًا.

لكن، لعلّي أفرطت حينذاك في حماستي.

أتلمّس طريقي إلى المقعد المغطّى بالثلج عند طرف الماء، أو بحيرة البجع، كما أسمّيها الآن بيني وبين نفسي، محاكيًا بذلك ما قد يفعله أيّ طفل. أمام نور مصباحي تمتدّ بحيرة البجع منبسطة وقاتمة، وليس ثمّة جليد مستقرّ عليها بعد، فالبرد ليس شديدًا إلى هذه الدرجة. وفي مثل هذا الوقت لا مجال لرؤية أيّ بجعة. مؤكّد أنها جميعها تلازم البقاء في الخمائل الكثيفة على اليابسة ليلاً، تنام هناك مخفية رؤوسها تحت

أجنحتها، فتبدو أعناقها الطويلة كأنها أقواس بيضاء مكلّلة بحزم من الريش. في وسعي أن أتخيّل هذا المشهد بسهولة. أعلم أنها لا تخرج قبل طلوع النهار، لتسبح وتقتات مما على الضفّة ما دام الماء لا يزال جاريًا. ماذا ستفعل عندما يكتسي سطح الماء بالجليد؟ هذا شيء لم أفكّر فيه. أتراها قد تطير جنوبًا إلى بحيرات ليس فيها جليد؟ أم هل تبقى هنا إلى حين قدوم الربيع؟ هل يبقى البجع في النرويج خلال فصل الشتاء؟ لا بدّ أن أتحرّى الأمر.

بذراعي أكنس الثلج من على المقعد، أفعل ذلك بحركات دائرية كبيرة، ثم أزيل ما تخلّف منه بقفازي. أفرد سترتي جيدًا من تحتي ومن خلفي وأقعد. تتشمّم ليرا الثلج، وتمرح في جميع الأنحاء مسرورة. ترتمي أرضًا في إحدى البقع، وتتدحرج مرّة تلو أخرى. ترفع قوائمها في الهواء، وتحكّ ظهرها وتمرّغه بالثلج مبتهجة من امتصاص فرائها لرائحة شيء كان هنا قبلها. ثعلب ربما. إذا صحّ هذا، ستحصل على حمّام عندما نعود إلى البيت. هذه ليست المرّة الأولى التي يحدث فيها شيء كهذا. وأنا أعرف أيّ رائحة ستنتشر في المطبخ حالما نغلق علينا الأبواب. لا يهمّ، الآن لا تزال الدنيا معتمة، ويمكنني الجلوس هنا أمام بحيرة البجع، لأفكّر في أيّ شيء يطيب لي.

١٥

أرتقي التلّ عائدًا أدراجي إلى البيت. يطلع ضوء النهار مشرّبًا باللونين الأحمر والأصفر. ترتفع درجة الحرارة. أشعر بها على وجهي. من المؤكّد أن معظم الثلج سيذوب قريبًا، وقد يذوب كلّه مع حلول المساء. وبغضّ النظر عمّا قلته سابقًا، أرى هذا مخيبًا للأمل الآن.

هناك سيارةٌ مركونةٌ في الفناء إلى جانب سيارتي. أراها بوضوح من أسفل المنحدر. إنها ميتسوبيشي بيضاء من نوع سبيس واغن، تشبه تقريبًا التي فكّرت في شرائها، لأنها بدت صلبة وملائمة للاستعمال في الملكية التي ابتعتها وهممت بالانتقال إليها. وهكذا تراءى لي وضعي آنذاك في إثر اتخاذي لقراري؛ أنه أَميَل إلى الصلابة، وقد أحببت ذلك. وبعد ثلاث سنوات في قاعة زجاجية يقرقع فيها كلّ شيء من أدنى حركة، أنا نفسي شعرت بشيء من الصلابة. وأول قميص نال إعجابي بعد الانتقال كان من الفانيلا السميكة بمربعات حمراء وسوداء، من تلك الأنواع التي لم ألبسها منذ الخمسينات.

أحدهم يقف أمام الميتسوبيشي البيضاء، امرأة، كما تدلّ هيئتها، بمعطف داكن، حاسرة الرأس وشعرها فاتح اللون ومجعّد، ربما هو طبيعي وربما غير طبيعي. محرّك سيارتها لا يزال دائرًا، وفي وسعي أن أرى دخان العادم يتصاعد أبيض وبلا ضجيج على خلفية الأشجار القاتمة وراء الفناء. تقف حيث هي، مسترخية، تنتظر وإحدى يديها على جبينها أو متغلغلة في شعرها. تستشفّ الدرب الذي أصعده. ثمّة شيء في هيئتها أشعر أنني رأيته من قبل. تلمحها ليرا فتندفع قدمًا وتجري كالريح نحوها. لم أسمع صوت أيّ سيارة تُقبل، ولم ألاحظ آثار عجلات في الثلج حينما وصلت إلى طريق البيت. وفي جميع الأحوال لم أكن أتوقّع مجيء أيّ سيارة، ليس في هذا الوقت من اليوم، فهو لا يمكن أن يكون أكثر من الثامنة. أنظر إلى ساعتي، إنها الثامنة والنصف.. ها.. حسنًا..

ابنتي هي التي تقف هناك. ابنتي البكر. اسمها إيلين. تشعل سيجارة وتمسكها بطريقتها المعتادة؛ أصابع يدها ممدودة بعيدًا عن جسمها، كما لو أنها تهمّ بإعطائها إلى شخص آخر، أو تتظاهر بأن السيجارة ليست لها. هذا المشهد وحده يجعلني أميّزها. أحسب في ذهني بسرعة، إنها الآن في التاسعة والثلاثين من العمر. لا تزال امرأة جذّابة. لا أعتقد أنها تشبهني، لكن لا مجال للشكّ في أن أمّها كانت جميلة. لم أجتمع بإيلين منذ ستة أشهر على الأقلّ. ولم أكلّمها هاتفيًا منذ انتقالي. أو في الحقيقة قبل ذلك بكثير. والتماسًا للأمانة أنا بصراحة لم أفكّر فيها كثيرًا، ولا في أختها، فقد شغلت رأسي أمور متعدّدة أخرى. مع بلوغي رأس المنحدر أرى ليرا أمام إيلين وهي تبصبص بذيلها وتستمتع بتربيت رأسها. ومع أن إحداهما لا تعرف الأخرى، إلا أن

ابنتي مولعة بالكلاب، والكلاب ترتاح إليها على الفور. هكذا جرى الأمر منذ طفولتها. بل أظنّ أنني وجدتها تقتني كلبًا لما زرتها آخر مرة. كان كلبًا بُنّيًا. هذا كلّ ما أتذكّره. مضى وقت طويل على ذلك. أقف وأرسم أفضل ابتسامة طبيعية لديّ، فتعتدل وتنظر إلي.

«هذا أنتِ إذًا؟» أقول.

«إيه أنا. فاجأتك؟»

«لا يمكن إنكار هذا،» أجيب، «أرى أنك أبكرت في الخروج.»

يسفر وجهها عما يشبه نصف ابتسامة تتلاشى سريعًا. تأخذ نفسًا من سيجارتها، تنفث الدخان ببطء، وتمسكها بعيدًا عن جسمها بيد مستقيمة. ألاحظ أنها كفّت عن الابتسام. يثير هذا شيئًا من هواجسي ثم أسمعها تقول:

«أبكرتُ؟ ربما. في الواقع لم أنم جيدًا، ولذلك ارتأيت أن أبدأ يومي باكرًا. تركت البيت في حوالي السابعة، حالما غادر الذين يُفترض أن يغادروا. أعطيت نفسي يوم راحة. اتخذت هذا القرار منذ مدّة طويلة. لم تستغرق منّي المسافة إلى هنا بالسيارة أكثر من ساعة، مع أنني توقّعت زمنًا أطول. وسرّني الأمر في الحقيقة. وصلت لتوّي، قبل ربع ساعة تقريبًا.»

«لم أسمع صوت السيارة. كنت في أسفل الغابة عند البحيرة. ثمّة ثلج كثير هناك،» أقول وأنا أستدير مشيرًا بيدي. وقبل أن أعود وألتفت نحوها ثانية تسحق سيجارتها في فنائي وتتقدّم بضع خطوات نحوي لتلفّ رقبتي بذراعيها وتضمّني. رائحتها طيّبة، ولا تزال بطولها المعهود. هذا بالطبع ليس غريبًا، فأنت لا تزداد نموًا ما بين الثلاثين إلى

الأربعين من العمر. لكن في ما مضى، مرّت فترة درجت خلالها على السفر معظم السنة، أروح وأجيء وأروح وأجيء قاصدًا أيّ جهة يمكن قصدها في النرويج. وكلّما عدت إلى البيت بدا لي أن البنتين كبرتا عن السابق، أو هذا ما كان يُخيّل إليّ. اعتادتا أن تنتظراني وهما تجلسان متجاورتين على الكنبة بهدوء عظيم. ولطالما أدركت أنهما كانتا تحملقان في الباب الذي سأدخل منه قريبًا، وهذا شوّشني، كما أذكر، وأربكني أحيانًا عندما أصل أخيرًا وأراهما جالستين هناك، حييّتين ومُفعمتين بالترقّب. بل وحتى الآن أشعر بشيء من الإحراج وهي تضمّني إليها بقوّة وتقول:

«مرحبًا بابا، تسرّني رؤيتك.»

«أهلاً بنّوتتي، وأنا تسرّني رؤيتك،» أجيب. لكنها لا تطلق سراحي عند هذا الحدّ، بل تواصل ضمّي إليها وتقول برقّة وفمها عند رقبتي:

«اضطررت إلى مكالمة جميع مجالس بلدية المدينة على مساحة ثمانين ميلاً وأكثر لأعرف أين تعيش. فعلت هذا لأسابيع، أنت لا تملك هاتفًا حتى.»

«لا، أظنّ أنني لا أملك هاتفًا.»

«بالتأكيد لا. تبًّا لك،» تقول ثم تخبط ظهري مرّات كثيرة، ولا تفعل ذلك برقّة.

«تمهّلي،» أقول، «تذكّري أنني رجل عجوز.» ويتهيّأ لي أنها تبكي، لست متأكّدًا. بيد أنها في جميع الأحوال تواصل معانقتي بقوّة تكاد تقطع أنفاسي، مع ذلك لا أدفعها بعيدًا، وأستمرّ في حبس أنفاسي، ثم ألفّها بذراعيّ، ربما بشيء من التردّد. وأنتظر على ذلك

النحو إلى أن ترخي قبضتها، فأترك ذراعيّ تسقطان وأتراجع خطوة إلى الوراء وأطلق أنفاسي.

«يجدر بك أن تطفئي محرّك السيارة،» أقول وأنا ألهث قليلاً ورأسي يومئ نحو الميتسوبيشي التي تهدر بصوت ضعيف. تومض بواكير أشعة الشمس على دهان السيارة الأبيض الملمّع مؤخّرًا وتخطف بصري. أستشعر وخزًا في عينيّ فأغمضهما لدقيقة.

«إي، طبعًا،» تقول. «أنت تعيش هنا إذًا. تصوّر أنني لم أتعرّف على سيارتك حتى. وظننت أنني أخطأتُ المكان.»

أسمعها تدور حول سيارتها على الثلج. وبينما هي تفتح بابها، أتراجع بضع خطوات وأفتح عينيّ. تنحني، تدير المفتاح، تطفئ المصابيح، فيعمّ السكون. أكتشف أنها قد بكت قليلاً بالفعل.

«ادخلي لنحتسي القهوة،» أقول. «أحتاج إلى الجلوس، رجلاي منهكتان بعد المشي على الثلج. فأنا كما قلت لك رجل عجوز. هل تناولت فطورك؟»

«لا. لم يتسنّ لي الوقت.»

«سنعدّ شيئًا إذًا. تعالي.»

تبتهج ليرا حينما تسمع كلمة «تعالي»، فتصعد درجتي العتبة لتقف أمام الباب.

«إنها لطيفة،» تقول ابنتي. «متى اقتنيتها؟ ليست صغيرة، أليس كذلك؟»

«قبل ستة أشهر تقريبًا. ذهبت إلى مأوى الحيوانات خارج أوسلو حيث يجدون بيوتًا جديدة للحيوانات. لا أتذكّر اسم المكان. أحببتها في الحال، بلا أيّ تردّد. أقبلت نحوي وجلس تبصبص بذيلها، كما لو

أنها تعرض نفسها أمامي،» أقول من خلال ضحكة مكتومة. «لكنهم لم يعرفوا سنّها، ولا نوعها.»

«تلك تُدعى مؤسسة تأمين البيوت للحيوانات. ذهبت إلى هناك مرّة. كلبتك تبدو مزيجًا من كلّ شيء. يدعونها في إنجلترا بريتيش ستاندرد. وهذه طريقة ظريفة ليقولوا إن هذا الجنس خليط من كلّ شيء يمكنك أن تجده في الشوارع. لكنها في الواقع لطيفة. ما اسمها؟»

ارتادت إيلين المدرسة في بريطانيا ما يقارب السنتين، واستفادت كثيرًا منها. إلا أنها كانت ناضجة حينها. قبل ذلك مرّت سنوات عديدة لم تفلح خلالها بأيّ شيء.

«اسمها ليرا. ولست من أعطاها الاسم. بل هذا ما كان مكتوبًا على طوقها. وأنا في جميع الأحوال مسرور لأنني أخذتها،» أقول. «لم أندم لحظة واحدة. ننسجم معًا جيدًا. وهي تخفّف من وطأة عزلتي.»

تلك الكلمات الأخيرة بدا فيها شيء من رثاء الذات والتنكّر لحياتي هنا. بالطبع لست مضطرًا إلى الدفاع عن نفسي إزاء ما قلته، أو أن أقدّم شرحًا لأيّ أحد، حتى لابنتي هذه التي أعترف أنني أحبّها كثيرًا. ابنتي التي جاءت في الحقيقة من مكان ما في ضواحي أوسلو، من ماريدالين على وجه التحديد، في الصباح الباكر، وسلكت الدروب المعتمة لعديد من القرى بسيارتها الميتسوبيشي، لتعرف أين أعيش. لأنني على الأرجح لم أطلعها على محلّ إقامتي، بل لم أفكّر في أن أفعل، أو في أنه يتوجّب علي أن أفعل. وهذا، كما أرى الآن، شيء مستهجن. تترقرق عيناها بالدموع من جديد، ويثير الأمر أعصابي قليلاً.

أفتح الباب. تبقى ليرا جاثمة على العتبة إلى أن ألج أنا وإيلين إلى الرواق. ثم، أدعها تدخل بإيماءة صغيرة تدرّبتُ عليها جيدًا. آخذ معطف ابنتي وأعلّقه على مشجب شاغر وأتبعها إلى المطبخ. الجوّ هناك لا يزال دافئًا. أفتح باب الموقد الصغير وألقي نظرة. وكما أَمَلت، أرى أنه ما زال ثمّة جمر متوهّج في بيت النار.

«يمكننا إنقاذ النار،» أقول وأنا أرفع غطاء صندوق الحطب، وأنثر بعض الضِّرام ومِزق الورق فوق الجمر، ثم أضع حوله ثلاث حطبات متوسطة الحجم. بعد ذلك أفتح وعاء الرماد حتى يصبح هناك تيّار هوائي، وسرعان ما أسمع طقطقة.

«لطيف بيتك،» تقول.

أغلق المدفأة وأنظر من حولي. لست أعرف هل هي محقّة. لطالما رجوت أن يصبح لطيفًا مع مرور الوقت. بعدما تُنجز معظم التحسينات المقرّرة. لكنه نظيف ومرتّب. ولعل هذا ما عنته، إذ ربما توقّعت أن ترى شيئًا آخر في بيت رجل عجوز ووحيد. وما وجدته فاجأها بطريقة إيجابية. وفي حال صحّ هذا، فإنها لا تتذكّر الكثير عن الفترة التي قضيناها معًا. فقلّة الترتيب ليست من شيمي ولم أتحمّلها قطّ. أنا في الواقع شخص مُوَسوس؛ أريد كلّ شيء في مكانه وجاهزًا للاستعمال. الغبار والفوضى يزعجانني. وإذا تراخيت مرّة في التنظيف، فليس أسهل من استمراء الأمر، لا سيّما في هذا البيت القديم. أحد مخاوفي الكثيرة أن أصبح الرجل ذا السترة البالية غير المزرّرة الذي يقف أمام منصّة التعاونية، يلطّخُ البيضُ وما هو أكثر من البيض قميصه، وذلك لأن مرآته في الرواق أسلمت الروح. رجل كمركب غارق، لا مرسى له في العالم إلا في أفكاره المائعة حيث فقد الزمن تعاقبه.

أدعوها إلى الجلوس، وأصبّ ماءً عذبًا في الإبريق وأضعه على الطبّاخ الكهربائي لأعدّ القهوة. فيتصاعد على الفور صوت هسيس. حسنًا، لا بدّ أنني نسيت أن أطفئه بعدما استعملته هذا الصباح. وهذا شيء خطر جدًا، لكن لا أظن أن إيلين لاحظت، ولذلك أتجاهل الأمر وأقطع بعض الخبز وأضعه في السلّة. أشعر فجأة بالغضب وبشيء من الغثيان، وألاحظ أن يديّ ترتعشان. أواريهما عن ابنتي وأنا أمرّ من أمامها لأجلب السكّر والحليب والمناديل الزرقاء وكلّ ما هو مطلوب لتحضير وجبة لائقة. في الحقيقة، لقد تناولت حاجتي من الطعام قبل بضع ساعات، ولا أشعر بالجوع بعد. مع ذلك أعدّ ما يكفي كلينا، لئلا تشعر بالحرج وهي جالسة هناك تأكل وحدها، خصوصًا أنه قد مرّ علينا وقت طويل منذ أن التقينا آخر مرّة. أنا في الواقع أفضّل ألا آكل. مع ذلك، أضطرّ إلى الجلوس بعد أن لا يحضرني أيّ شيء آخر يمكن عمله.

كانت مستغرقة في التحديق من النافذة إلى البحيرة. فأنظر إلى الناحية نفسها وأقول:

«أسمّيها بحيرة البجع.»

«فيها بجع إذًا؟»

«بالتأكيد. عائلتان أو ثلاث، حسب ما رأيت إلى الآن.»

ثم تلتفت نحوي. «أخبرني، كيف حالك، حقيقةً؟» تقول كما لو أن هناك نسختين من حياتي. ألاحظ أن عينيها ما عادتا على شفا ذرف الدموع، وأن في صوتها صرامة تشبه صرامة صوت المحقّق. إنها تلعب دورًا ما، أعرف. وخلف هذا الدور لا تزال هي نفسها كما أعهدها. أو هذا على الأقلّ ما أرجوه؛ أن لا تكون الحياة

قد حوّلتها إلى عجوز نكدة، من غير أن يُؤخذ تعبيري هذا على محمل سيئ. أتنفّس بعمق وأستجمع شتات ذهني، أحشر يديّ تحت فخذيّ وأحدّثها عن أيامي هنا، عن جريان الأمور على أحسن وجه بالنجارة وتقطيع الخشب ونزهاتي الطويلة مع ليرا، وأن لديّ جارًا اسمه لارس يساعدني في الأزمات، وأنه رجل ماهر ولديه منشار جنزير. بيننا أشياء كثيرة مشتركة، أقول لها مبتسمًا بطريقة قصدتها أن تكون ملغزة. ألاحظ أنها لا تعير إيماءتي هذه اهتمامًا، فلا أسترسل. أخبرها أنني شعرت بشيء من القلق من الثلج الذي عرفت أن هطوله حتمي ما دام الشتاء على الأبواب، لكنني حللت المشكلة، مثلما ترى بنفسها. ولا شكّ في أنها لاحظت هذا وهي مقبلة بسيارتها إلى هنا. وذلك لأنني عقدت اتفاقًا مع مزارع اسمه أسليان، لديه جرّار مزوّد بكاسحة ثلج، ويستطيع تنظيف منطقتي عند الحاجة، لقاء مقابل مادّي طبعًا. وهكذا تجري أموري، أقول لها، وأفلح في رسم ابتسامة، ثم إنني أستمع إلى الراديو، طوال الصباح وأنا في البيت، وأقرأ في المساء، كتبًا مختلفة، أغلبها كتب ديكنـــز.

تبتسم ابتسامة حقيقية الآن، لا مزيد من العيون المترقرقة بالدموع، ولا مزيد من الحدّة في نبرة الصوت.

«لطالما قرأتَ كتب ديكنـــز في البيت،» تقول، «أتذكّر هذا جيدًا. أنت على كرسيّك ومعك كتاب، محلّق بعيدًا أميالاً وأميالاً. وأنا آتي إليك وأشدّ كمّك وأسألك ماذا تقرأ. وتبدو في البداية كأنك لا تميّزني، ثم تجيب ديكنـــز، وفي عينيك نظرة جدّية. وكثيرًا ما ظننت أن قراءة ديكنـــز لا تشبه قراءة الكتب الأخرى؛ وأن كتبه غير عادية، ولا يقرأها الجميع ربما. هكذا تراءى لي الأمر آنذاك. لم أكن

أعرف حتى أن ديكنـــز إنما هو اسم مؤلّف الكتاب الذي تمسكه. وكان يتهيأ لي أنه كتاب فريد من نوعه لا أحد يمتلكه سوانا. أتذكّر أنك في بعض الأحيان كنت تقرأ لي بصوت عالٍ.»

«حقًا؟»

«نعم، كنت تفعل. من كتاب ديفيد كوبرفيلد، كما تبيّنت لاحقًا عندما كبرت وأدركت أن عليّ قراءة هذه الكتب. في تلك الأيام ما بدا عليك أنك سئمت قطّ من ديفيد كوبرفيلد.»

«مرّ وقت طويل منذ أن قرأته آخر مرة.»

«لكنه عندك على ما أعتقد؟»

«أوه، بالطبع.»

«عليك إذًا أن تقرأه مجددًا.» تقول وهي تسند ذقنها إلى إحدى يديها ومرفقها على الطاولة، ثم تردف:

«ما إذا كنت سأصبح البطل الرئيسي لحياتي، أو أن أحدًا آخر سيحتلّ تلك المنـــزلة، على هذه الصفحات أن تظهر ذلك..»

تبتسم مرّة أخرى وتكمل:

«رأيت دائمًا أن هذه السطور الافتتاحية مخيفة قليلاً لأنها توحي أننا قد لا نكون بالضرورة من يدير دفّة حياتنا. لم أستطع أن أتصوّر كيف يمكن أن يحدث هذا. إنه شيء فظيع جدًا؛ كما لو أنني أعيش في عالم الأشباح حيث ليس في مقدوري إلا مراقبة المرأة التي حلّت محلّي، وقد أكرهها كرهًا شديدًا وأحسدها على ما لديها، ولكن ليس في يدي فعل أيّ شيء حيال ذلك. لأنني في مرحلة ما من الزمن سقطت خارج إطار حياتي، كما لو أنني سقطت من طائرة. تخيّلت هذا، تخيّلت خروجي إلى فضاء خاوٍ، تخيّلت انجرافي مع التيّار وعدم

تمكّني من الرجوع. وفي هذه الأثناء يجلس شخص آخر في مكاني ويربط حزام الأمان، على الرغم من أن ذلك المقعد مقعدي، وتذكرة السفر في يدي.»

ليس من السهل عليّ أن أعلّق على ما قالته. لم أعرف أن مثل هذه الأفكار تراودها. لم تخبرني قطّ. وذلك لسبب بسيط جدًا بالطبع، وهو أنني لم أكن عندما احتاجت إلى البوح عمّا يدور في خلدها. ولكنها لا يمكن أن تتخيّل عدد المرّات التي راودتني فيها الأفكار نفسها، وعدد المرّات التي قرأت فيها تلك السطور الافتتاحية من ديفيد كوبرفيلد، ثم مضيت أقرأ صفحة تلو صفحة، متيبّسًا من الرعب تقريبًا، وفي الوقت نفسه مدفوعًا برغبة ملحّة لأعرف هل عادت الأمور إلى نصابها في النهاية. بالطبع عادت تلقائيًا، بيد أنني دائمًا أخذت وقتًا طويلاً قبل أن أشعر بالأمان مع الكتاب. الحياة الواقعية كانت شيئًا مختلفًا. في الحياة الواقعية لم أمتلك الجرأة لأطرح على لارس السؤال الماثل أمام عيني:

– «هل حللت محلّي في المكان الذي كان من حقّي؟ هل عشت سنينًا من حياتي كان ينبغي لي أن أعيشها بنفسي؟»

لم يخطر على بالي قطّ أن أبي سافر إلى بلاد مثل جنوب إفريقيا أو البرازيل أو إلى مدن مثل فانكوفر أو مونتي فيديو ليؤسس لنفسه حياة جديدة. لم يقم بأيّ رحلة جوّية، كما فعل الكثيرون غيره، بسبب أفعال ارتُكبت نتيجة الغضب والانفعال، أو بسبب حياة مُدمّرة بعد تقلّبات القدر العاصفة. ولم يهرب على عجلٍ متستّرًا بليل الصيف الساكن بعينين خائفتين مضيّقتين كما فعل جون. فأبي لم يكن بحّارًا. أبي استقرّ عند النهر، ذاك أنا متأكّد منه. وذاك هو ما تمنّاه. وحقيقة

أن لارس لا يتكلّم عليه عندما يأتي إلى بيتي، حقيقة أن لارس لم يأتِ على ذكر أبي، ولا بكلمة واحدة منذ أن التقينا، تعني حتمًا أنه يريد المحافظة على صداقتي، أو لأنه مثلي، لا يستطيع جمع شتات أفكاره المتعلّقة بأولئك الأشخاص، بمن فيهم أنا وهو؛ ليجعلها تصبّ في نقطة واحدة. لأنه لا يمتلك الكلمات التي تعبّر عنها. يمكنني أن أفهم هذا، فعلى امتداد حياتي كلّها تقريبًا اختبرت الشعور نفسه.

لا أريد أن أشغل رأسي الآن بالتفكير في هذا. أترك الطاولة على عجل، فأصطدم بها وأنا أهمّ بالوقوف فتهتزّ؛ تقفز الفناجين ويتلطّخ مفرش الطاولة بالقهوة، وينقلب إبريق الحليب الأصفر فينسكب منه الحليب مختلطًا بالقهوة. ثم يبدأ ذلك الجدول الصغير في الانسياب تجاه حضن إيلين بسبب الأرضية المائلة؛ الأرضية المائلة بمقدار خمسة سنتمترات تقريبًا من الجدار إلى الجدار. فقد قمت بقياس درجة الميلان منذ وقت طويل. كان يجدر بي أن أفعل شيئًا حيال ذلك، لكن تجديد الأرضية مهمّة شاقّة، وعليّ أن أؤجّل البتّ فيها.

تدفع إيلين كرسيّها إلى الوراء بسرعة، وتقوم قبل أن يبلغ الجدول الصغير حافّة الطاولة. ثم تمسك طرف المفرش وتطويه موقفة الفيضان عند حدّه بمنديلين.

«أنا آسف، كنت في عجلة من أمري،» أقول وأنا مندهش من سماعي لهذه الكلمات تخرج من فمي بشهيق متلاحق، كما لو أنني كنت أجري وانقطعت أنفاسي.

«لا عليك. نحتاج فقط إلى رفع المفرش بسرعة لنشطفه في الحوض. لم تحدث فيه أيّ أضرار لا تستطيع قبضة من مسحوق الغسيل التكفّل بها.» وتتولّى زمام الأمور على نحو لم يسبق لأحد أن أقدم عليه هنا

في هذا البيت، ولا أعترض. تفرغ من نقل كلّ ما على الطاولة إلى الرفّ المفرطح في لمح البصر، وتضع المفرش تحت الحنفية لتشطف الجزء المبقّع منه، تعصر القماش بعناية وتعلّقه ليجفّ على كرسي أمام موقد الحطب الدافئ.

«يمكنك وضعه في الغسّالة لاحقًا،» تقول.

أفتح صندوق الحطب، وأضيف بعض الجذوع إلى الموقد.

«لا أملك غسّالة في الحقيقة،» أقول، وتبدو جملتي، وقد قلتها بهذا الأسلوب، كما لو أنها تلمّح إلى أنني أعيش في فقر مدقع. جعلني ذلك أضحك. تعاندني تلك القهقهة الصغيرة ولا تنطلق كما ينبغي. تضمر هذا في نفسها، إيلين ابنتي تضمره، في وسعي أن أرى ذلك. إنه ليس من السهل حقًا أن يجد المرء في مثل هذه الحالة النبرة المناسبة.

تمسح الطاولة بخرقة ما انفكّت تغسلها وتعصرها تحت الحنفية عدة مرّات، لأنها تشبّعت بالحليب، وعلى المرء التخلّص منه جيدًا بسبب ما يخلّفه من رائحة كريهة. فجأة يظهر على إيلين التوتّر، وتقول وهي توليني ظهرها:

«أكنتَ تفضّل ألا آتي؟» كما لو أنها فكّرت للتوّ في مثل هذا الاحتمال. لكنه سؤال جيّد. أتأخّر في الردّ عليها. أجلس على صندوق الحطب محاولاً لملمة أفكاري، فأسمعها تقول: «لعلك تفضّل حقًا أن نتركك وشأنك؟ ففي النهاية أنت هنا لهذا السبب؟ إنه سبب انتقالك إلى هذا المكان، لأنك تريد أن ندعك وشأنك. وها أنا أحطّ في فنائك وأزعجك مع مطلع الفجر، ووجودي آخر شيء قد ترغب فيه، لو خُيّرت؟».

تقول ذلك كلّه وظهرها لي. تلقي الخرقة في حوض الجلي وتقبض

على حافّة الرفّ المفرطح بيديها الاثنتين، ولا تلتفت.

«لقد تغيّرت حياتي،» أقول. «هذا أهمّ ما في الحكاية. بعت ما تبقّى من حصصي في الشركة وجئت إلى هنا لأن عليّ أن أجيء إلى هنا وإلا لتدهورت حالي. لم أستطع المضي في متابعة حياتي السابقة.»

«أفهم. أفهم تمامًا. لكن لماذا لم تخبرنا؟»

«لا أدري. صدقًا لا أدري.»

«أكنت تفضّل ألا آتي؟» تعاود السؤال بإلحاح.

«لا أدري،» أجيب، وهذا صحيح أيضًا؛ فأنا لا أعرف ماذا أصنّف قدومها إلى هنا، إنه ليس جزءًا من مخطّطي. ثم فجأة يخطر لي أنها الآن ستذهب ولا تعود ثانية. تملأني هذه الفكرة برعب ساحق مباغت فأقول بسرعة:

«لا، هذا ليس صحيحًا. لا ترحلي.»

«ليس في نيّتي أن أرحل،» تقول وفي اللحظة نفسها تستدير لتواجهني. «ليس الآن على أيّ حال، لكنني أودّ اقتراح أمر.»

«وما هو؟»

«أحضر هاتفًا.»

«سأفكّر في الموضوع. صدقًا سأفكّر فيه.»

تبقى عندي لعدّة ساعات. وعندما تركب سيارتها تفعل ذلك والعتمة في طريقها إلى الانتشار مجددًا. في فترة وجودها خرجت في نزهة مع ليرا بمحض رغبتها، فتسنّى لي الحصول على نصف ساعة راحة في سريري. بيتي مختلف الآن، والفناء مختلف. تشغّل محرّك السيارة والباب لا يزال مفتوحًا وتقول:

«أعرف الآن أين تعيش.»

«جيّد، يسرّني هذا،» أقول. فتلوّح لي بيدها وتصفق باب سيارتها التي تنطلق نازلة المنحدر. أصعد درجات العتبة، أطفئ نور الفناء وأتجاوز الرواق إلى المطبخ. ليرا في أعقابي، لكن حتى وهي ورائي أشعر أن البيت خاوٍ على نحو ما. أرنو إلى الفناء، لا شيء هناك سوى انعكاس صورتي على الزجاج الداكن.

١٦

بعد أن أُرسل الخشب إلى وجهته، غالبًا ما سلك فرانز الطريق إلينا للزيارة. وقال دائمًا وهو يضحك إنه قد منح نفسه إجازة. كان يجلس ببنطلونه القصير على بلاطة العتبة خارج الباب ومعه سيجارة وفنجان قهوة. ويبدو وهو هناك غريب المنظر بساقيه البيضاوين. والسماء آنذاك زرقاء وزرقاء فقط. وفي وسع المرء أن يقول إنها تحوّلت من زرقة فاتحة إلى زرقة حادّة في وقت قياسيّ. ومن جهتي، كان نزول القليل من المطر حينها سيلقى منّي الترحاب.

لا ريب أن هذا ما رغب فيه أبي أيضًا، لأنه لم يتوقّف عن التصرّف بعصبية. قد ينحدر أحيانًا إلى النهر ومعه كتاب، حيث يتمدّد ليقرأ في المقعد الخلفي لقارب التجديف المربوط وتحت رقبته وسادة. أو يستلقي على الصخور المائلة تحت الصنوبرة المعلّمة بالصليب. ويبدو كما لو أنه غير مكترث بما جرى في ذلك المكان بالتحديد، في ذات يوم شتوي سنة 1944. أو لعلّه في الحقيقة فعل، بيد أنه أرغم نفسه

على التظاهر بعدم الاكتراث، ليبيّن بطريقة عملية كيف يمكن لإنسان بذهن هادئ ومتّزن أن يستمتع بيومه. لكنه لم يستطع خداع أحد. كان الخشب يشغل باله في الواقع، رأيت ذلك في طريقة رفعه لرأسه، وفي نظرته التي ما انفكّ يرسلها إلى النهر. وهذا أثارني. أثارني أن يشكّل له الأمر أهمية كبيرة. ألم نعقد معًا اتفاقًا؟ لقد كنت هناك في صحبته، وكان علينا أن نغتنم الفرصة ونستفيد مما تبقّى من ذلك الصيف، قبل أن ينتهي ويمضي بلا رجعة.

بعد يوم من قدومنا بالحافلة اقترح أبي أن نقوم بنـــزهة على الخيول لثلاثة أيام. ربّاه، أما وجدته اقتراحًا رائعًا يومذاك؟ وحينما سألته أيّ خيول يقصد أجاب: خيول باركالد. فاشتعلت حماسة واعتبرتها فكرة جدّ مدهشة. ومع أنني انتهزت الفرصة وسبقته إلى تلك الخيول، لم أحظَ أنا وجون بمتعة كبيرة من امتطائها في الغابة. ولم تنته المغامرة نهاية حسنة في الواقع. لا بالنسبة لي، ولا بالنسبة إلى جون أيضًا إذا أخذنا بعين الاعتبار ما حدث قبلها مباشرة، وما آل إليه الأمر بعدها. في جميع الأحوال، لم أسمع أبي يأتي على ذكر ذلك الاقتراح ثانية منذ ذلك اليوم. ولذا فوجئت كثيرًا لما فتحت عينيّ ذات صباح لأسمع من النافذة المفتوحة صهيلاً ووقع سنابك. كانت الأصوات تأتي من المرج وراء البيت، من البقعة التي شهدت عملي البائس يوم تخاذلت عن قطع القرّاص بالمنجل القصير، وذلك لأنني خشيت أن يلسعني. وبعدئذ قام أبي بانتزاعه بيديه العاريتين قائلاً: «أنت بنفسك من يقرّر متى تتوجّع.»

تدلّيت من سريري إلى أن تمكّنت من الاستناد إلى النافذة،

ودعمتُ يديّ بحافتها. وإذ أدنيت وجهي من الزجاج لمحت فرسين يرعيان في المرج. أحدهما كستنائي اللون والآخر أسود. واكتشفت في الحال أنهما الفرسان اللذان امتطيتهما أنا وجون. ولو سُئلت في ذلك الصباح أذاك نذير شؤم أو بشارة خير لحِرت في الجواب.

قفزتُ من سرير المبيت إلى الأرض كعادتي، وحططتُ بسلام بلا إلحاق أيّ أذى بساقي أو أيّ شيء آخر. كانت ركبتي قد تحسّنت في غضون بضعة أيام. سارعت إلى النافذة وتدلّيت منها بقدر ما أمكنني فعل ذلك من غير أن أسقط. وهناك، رأيت أبي يقبل من المستودع وبيده سرج علّقه على منصّة تقطيع الخشب، فتهدّل رِكابه على جانبيها. حينئذٍ صحت:

«هل خرجت لتسرق تلك الخيول؟» تسمّر للحظة في أرضه قبل أن يلتفت ويراني متدلّيًا من النافذة. وما إن أدرك أنني أمازحه حتى ابتسم وقال بصوت عالٍ:

«تعال إلى هنا فورًا.»

«حاضر، حاضر يا ريّس،» صحت.

التقطت ثيابي من على الكرسي، اندفعت إلى غرفة الجلوس، لبست هناك بسرعة من غير أن أقف، رحت أقفز على ساق ثم على أخرى وأنا أرفع بنطلوني، توقّفت هنيهة لأنتعل حذائي الرياضي قبل أن أقصد عتبة الباب شبه أعمى وأكمام قميصي ترفرف فوق رأسي. عندما طلع وجهي أخيرًا من فتحة القميص، رأيت أبي الواقف قرب باب المستودع يحملق إليّ وهو مستغرق في الضحك مما شاهده. ورأيت بين ذراعيه سرجًا آخر.

«هذا لك، في حال لا تزال مهتمًا. أتذكّر أنك كنت كذلك.»

«طبعًا أنا مهتمّ،» أجبت. «هل نبدأ الآن؟ وإلى أين؟»

«لا تشغل بالك بوجهتنا، الفطور يأتي أولاً،» قال أبي. «بعدئذ علينا تجهيز الفرسين، وذاك يستغرق وقتًا، ولا بدّ من القيام به حسبَ الأصول. القضية ليست قضية انطلاق. استأجرت الفرسين لثلاثة أيام بالضبط. وأنت تعرف حرص باركالد على عدم التفريط في ممتلكاته. ولا أفهم حتى كيف وافق.»

لكنني لم أجد في ذلك أيّ إلغاز. فقد أحبّ باركالد أبي، ولطالما فعل. ووفقًا لما أخبرنيه فرانز، كانت درجة الثقة بينهما أقوى مما تخيّلت في البداية. ومن يدري، لعلّ أبي في النهاية لم يدفع له مقابل الحصول على بيتنا. ولعلّ باركالد أعطاه إياه لأن صداقتهما ازدادت توطّدًا بعد الحرب، بسبب ما خاضاه فيها. في تلك الآونة كان كلّ شيء مختلفًا بمجمله عمّا رأيته لما جئنا إلى هناك للمرّة الأولى. كانت الغابة والنهر غريبين عليّ، وكانت الساحة أمام الدكّان جديدة عليّ، والجسر جديدًا، ولم أكن قد شاهدت قطّ جذوع الأشجار وهي تنساب صفراء ولامعة مع التيّار في النهر. وباركالد، كان رجلاً نظرت إليه بعين الشكّ، لأنه على النقيض منّا صاحب ممتلكات وأموال. وظننت أن أبي يحمل له المشاعر نفسها. ومن الواضح أنه لم يفعل. وعندما قال ما قاله في ذلك اليوم، لا ريب أنه أراد التقليل من شأن القضية، أو أراد التعتيم على الوضع الحقيقي للأمور.

بدا كلّ شيء في تلك الواقعة مريبًا قليلاً. إلا أنني لم أشأ إمعان التفكير فيها، لأن الصيف كان يوشك أن ينتهي، بالنسبة إلينا على الأقلّ. والكآبة التي اعترتني يوم تعويم الخشب، الكآبة التي أثقلت كاهلي وكادت تعطب ركبتي انزاحت عن جسمي بطريقة غامضة

وتلاشت. وغدوت مثل أبي قلقًا وحريصًا كلّ الحرص على عصر كلّ ما يمكن عصره من الأيام المتبقية لنا، ومن النهر، ومن الطبيعة المحيطة به، قبل أن نعود أدراجنا إلى أوسلو.

وذاك كان ما وطّدنا العزم على فعله: أن نستنـــزف آخر قطرة دفء من الدروب التي تتخلّل الغابة، ومن التلال العالية والشمس تشعّ على جبل الصنوبر فيوروفيِّلت. ونرى انعكاس بريق قضبان البتولا وهي تترنّح بين الأشجار كأنها السهام التي تطلقها أقواس قبائل كيووا الهندية. سهام لا تلبث أن تغوص عميقًا وسط السراخس القائمة الخضرة والمتمايلة على جانبي الممر الحصوي، كأنها سعف النخيل في أحد الشعنينة في مدرسة الأحد الدينية. اقتدنا الفرسين من بيتنا إلى الدرب، ومررنا بالإسطبل الخشبي القديم الذي قضيتُ فيه ليلة قبل فترة ليست ببعيدة. فجأة شعرت بالحرارة تسري في جسمي، لكن مردّها عاد إلى احتكاك فخذيّ بخاصرتي الفرس، وإلى ريح الجنوب على وجهي. كنّا قد انطلقنا لنقابل هذه الريح عند جهتنا الشرقية من النهر. وكنّا قد تناولنا الفطور، ووضعنا زوّادتنا في جيوب السرجين، وحزمنا أغطية لنبقى دافئين ونحن نائمان في العراء، ومعها معطفينا من المشمّع. وكان الفرَسان قد هُيِئا ونُظّفا وعُرفاهما يلمعان. وإلى الغرب فوق التلّ راحت زرافات الغيوم تبحر على امتداد قمّته، لكن المطر لن يهطل، قال أبي وهو يهزّ رأسه وجسمه يتأرجح على السرج.

في الأسفل عند الإسطبل كانت فتاة الملبنة تغسل دلاءها وأحواضها عند الجدول بالماء وكربونات الصوديوم، والشمس تومض على الأواني المعدنية وعلى الماء الرقراق وهي تصبّه في الدلاء ثم تدفقه ثانية. لوّحنا

بأيدينا لها وبادلتنا التحية، فتطاير شريط لامع من الماء في الهواء على شكل قوس قبل أن يعود لينسكب على الأرض. نخر الحصانان وهزّا رأسيهما، وعندما تبيّنت الصبية من نحن ضحكت بصوت عالٍ، لكن ضحكتها خلت من أيّ خبث، و لم تجعلني أتضرّج بالحمرة.

كانت عذبة الصوت، ولعلّ لصوتها وقع مزمار فضيّ فعلاً. التفت أبي ونظر إليّ وأنا أتبعه على حصاني. كنت لا أزال منهمكًا في العثور على طريقة جلوس مناسبة على السرج. «دع وركيك يسترخيان،» قال أبي. «دعهما جزءًا من الحصان. لديك مسند كُريات هناك، استخدمه.» وعرفت أنه مصيب، وأن جسمي مهيّأ بطريقة تؤهله لامتطاء الخيول، هذا إذا أردت ذلك.

«تلك الصبيّة هل تعرفها هي أيضًا؟» قال أبي.

«بالطبع أعرفها، كثيرًا ما جئت لرؤيتها،» أجبت وأنا أدرك أن ما قلته ليس دقيقًا في صحته. إلا أنني في الحقيقة لم أفهم من عنى بقوله هي أيضًا، وهل ألمحَ بذلك إلى أمّ جون. وطريقته في قول ذلك جعلتني أتساءل ما إذا كان لا يزال غاضبًا عليّ بعد اليوم الذي أرسلنا فيه الخشب.

«ماذا عن فتاة في مثل سنّك؟» عاد وقال.

«لا توجد مثل هذه الفتاة هنا،» أجبت، وهذا على الأقلّ صحيح. ففي خلال صيفين لم أشاهد أيّ فتاة تماثلني سنًّا على امتداد عدة كيلومترات منّا. والأمر بطبيعة الحال لم يزعجني؛ فأنا لم أمتلك وقتًا لأحد من عمري، ولو وجدها فما الذي قد أرومه منها؟ كان الوضع الذي أنا فيه يلائمني. لاحظت وأنا أردّ على أبي أن في صوتي نبرة عدائية متشنّجة، ورأيته ينظر في عينيّ مباشرة ثم يبتسم.

«أنت محقّ تمامًا،» قال والتفت إلى الأمام. وما لبثت أن سمعته يضحك.

«ما الذي يضحكك؟» صحت وأنا أشعر بالاستياء، لكنه لم يلتفت، بل قال في الهواء:

«أضحك على نفسي.» أو هذا على الأقلّ ما أظن أنه قاله، ولعلّ فيه الكثير من الصحة. فهو بكلّ تأكيد قادر على ذلك؛ على الضحك على نفسه. شيء لم أبرع فيه مطلقًا، بينما درج على فعله في أغلب الأوقات. ما لم أفهمه هو ماذا استدعى منه ذلك يومها. بعدئذ، وكز بكعبيه جانبيّ الفرس وكزة خفيفة، فمضى الحصان يخبّ بحريّة.

«لننطلق،» هتف. وبينما أنا خلفه أعالج أمورًا كثيرة، لأجعل كُريات المسند عند وركيّ تتدحرج في السرج كما ينبغي، اندفع فرسي يخبّ أيضًا وتبعه. وسرعان ما اختفى الإسطبل بين الأشجار من ورائنا. وبقيت فتاة الملبنة هناك في الفناء وتنورها تكشف عن ركبتيها السمراوين اللامعتين، وذراعاها القويتان السمراوان في الهواء.

مضينا عبر الطريق المنحدِر إلى أن ضاق متحوّلاً إلى مجاز. تحاشينا المنعطف المودي بعد الفسحة القريبة من النهر إلى رصيف القوارب عند القصب؛ تلك البقعة التي قصدتها في ذات ليلة تحت نور غريب، ورأيت من هناك أبي يقبّل أمّ جون كما لو أنها مسألة حياة أو موت. بدلاً من ذلك مضينا على طول مجاز آخر انعطف شرقًا بعد فترة، ثم انكمش بالتدريج إلى ما لا يزيد عن معبرِ أيائل متعرّج ما بين أشجار البتولا المعمّرة الباسقة. وإذا رجعت برأسك إلى الوراء وحملقت إلى رؤوس تلك الأشجار من بين الأوراق، سترى تيجانها العظيمة المهسهسة. وهذا ما فعلته إلى أن تشنّجت رقبتي ودمعت

عيناي. ثم اجتزنا جدولاً عميقًا بدت مياهه ببرودة الثلج. وظهر بالفعل أنها باردة لما تتطاير رذاذها بين قوائم الفرسين وبلغ فخذيّ مبللاً بنطلوني في الحال. بل حطّت بضع قطرات على وجهي وفرسانا يخبّان مسرعين. أحبّت الخيول ذلك، وأحبت تغيّر تضاريس الأرض ونحن نزداد اقترابًا من جبل الصنوبر فيوروفيَلّت. كانت الغابة عند التخوم المنحدرة كثيفة وغير مطروقة من الحطّابين. ومضينا نتتبّع المسار إلى قمّة التلّ. توقّفنا للحظة في أعلى نقطة، وأدرنا الحصانين لنلقي نظرة إلى الوراء. هناك، كان النهر يلتفّ بلون فضيّ قاتم من بين رؤوس الأشجار في المروج المحصودة مؤخّرًا. وفي الطرف المقابل من الوادي استقرّت كتل السحاب فوق التلّ. كان المشهد مهيبًا، أروع من مشهد الخليج في أوسلو. في الحقيقة، أعترف أنني ما اكترثت قطّ بذاك الخليج. أما يومذاك، فأدركت أنني لن أحظى لزمن طويل بفرصة أخرى لأشرف على ذلك الوادي بتلك الطريقة. لكن الأمر لم يسبّب لي الكآبة كما قد يخطر على بال أحد، بل أزعجني نوعًا ما وأغضبني قليلاً. أردت المضيّ قدمًا. بدا لي أن أبي أطال الوقوف وهو يستقبل الغرب لمدة أكثر من اللازم. فقلت وأنا أحوّل وجهة حصاني وأجعله يستدبر الوادي:

«لا داعي لأن نطيل تسكّعنا هنا.»

نظر إليّ وندّت عنه ابتسامة واهية، ثم استدار بالفرس وبدأ يتحرّك شرقًا نحو ما عرفت أنها السويد. وبما أنني لم أذهب إلى السويد قطّ، كنت واثقًا من أننا عندما نصل إليها سنجد كلّ شيء فيها مطابقًا لما في هذا الطرف من الحدود. بدا لي أن ما سيختلف هو الإحساس بالأشياء فقط. هذا إن كانت تلك وجهتنا. فأبي لم يقل شيئًا عن

الأمر، وأنا افترضت ذلك فقط.

لم أكن مخطئًا في افتراضي. انحدرنا على التلّ من الناحية الأخرى متتبعين معبرًا ضيقًا وجميع الاتجاهات من حولنا محجوبة عن أنظارنا. تقدّم الفرَسان بحذر على الدرب، وتلمّسا بتؤدة طريقهما وسط الحصى والحجارة المتقلقلة التي غطّت المنحدر. كان منحدرًا حادًا، ولذلك أرجعت ظهري واستندت إلى السرج. وفيما حافظتُ على استقامة رجليّ، ضغطت قدماي الرِكاب بقوة، لئلا أهوي على عنق الفرس وأسقط. قرقعت الحجارة التي على جانبي المعبر من وقع سنابك الفرسين المعدنية، وتعالى صداها أيضًا. وفي وسع المرء ألا يزعم أننا تقدّمنا بسكون. لكنني لم أعتبر الأمر مهمًا، فلا أحد كان يطاردنا، لا دورية ألمانية بالرشّاشات والمناظير، ولا حراس حدود ترافقهم كلاب بوليسية. لا مفوّض شرطة أميركياً نحيلاً ممسوح الشفتين على حصان بمثل نحوله يتعقّبنا يومًا بيوم؛ يحافظ على مسافة معيّنة بيننا وبينه، غير قريب جدًا ولا بعيد جدًا. وينتظر بصبر اللحظة التي ستتلف فيها أعصابنا وتتحوّل إلى مِزق. ولا نكاد ننسى حذرنا لبرهة حتى يسارع إلى الانقضاض علينا. ينقضّ بلا تردّد، بلا رحمة!

التفتُّ ورائي بحذر وألقيت نظرة لأتأكّد من أنه ليس هناك حقًا، على صهوة حصانه الرمادي الهزيل. وأرهفت السمع جيدًا، لكن وقع سنابك فرسينا في ذاك الفلع الضيّق كان أعلى بكثير من أن يتيح لنا سماع أيّ شيء آخر.

أشرفنا في نهاية المنحدر على سفح تلّ. ومع ظل التلّ خلفنا وأشعة الشمس على ظهرينا، بدأ الحصانان يخبّان بارتياح. أشار أبي إلى رابية تعلوها صنوبرة وحيدة ومعوجّة وصاح:

«أترى تلك الصنوبرة هناك؟»

بطبيعة الحال لم يكن في المكان شيءٌ غيرها، فصحتُ:

«نعم، أراها.»

«من هناك تبدأ السويد!» قال وهو لا يزال يشير إلى الصنوبرة كما لو أنه من الصعب تمييزها.

«حسنًا،» صحت. «البطل من يصل إليها أولاً!» ثم وكزت جانبي الفرس بكعبيّ، فبدّل فورًا سرعته ورمى نفسه إلى الأمام. أفلت الزمام مني، وارتددت من أثر الارتجاج المباغت إلى ما وراء السرج، ووجدتني أتدحرج من على ردفيه وأصطدم بالأرض. من خلفي صاح أبي:

«رائع! أعِد الكرّة! من البداية!» ثم انطلق بحصانه مسرعًا، وتجاوزني وهو يطلق ضحكة عالية، وطارد الحصان الهارب. بعد نحو مئة متر تقريبًا لحق به. مال إلى الأمام واستولى على الزمام بسرعة هائلة. ثم انعطف على شكل نصف دائرة واسعة فوق الأرض المستوية، وعاد بهدوء كما لو أنه يقول للعالم كلّه إنّ هذا أيضًا شيء يبرع فيه. لكن العالم كلّه لم يكن حاضرًا هناك. لم يكن هناك سواي لأشهد تقدّمه نحوي مع الحصانين، وأنا ممدّد ككيس فارغ بين الحشيش الطويل. ومع أن أيّ شيء فيّ لم يؤلمني كثيرًا لحظتها، بقيت مستلقيًا على ظهري. ترجّل من على حصانه، دنا مني وجلس القرفصاء أمامي وقال:

«آسف لأنني ضحكت، لكن المنظر كان كوميديًا بحقّ، كأنه عرض في السيرك. أعرف أنك لا تعتبره شيئًا طريفًا، وغباء مني أن أضحك. هل ثمة ما يؤلمك كثيرًا؟»

«لا، في الحقيقة لا.»

«شيء من ألم الروح إذًا؟»

«ربما قليلاً.»

«دعه يغور يا تروند. تناساه. لن يفيدك في شيء.»

مدّ يده لينهضني، وما إن أمسكتها حتى ضغط يدي بقوّة آلمتني قليلاً. لكنه لم يرفعني. فجأة انهار على ركبتيه، رمى ذراعيه حولي وشدّني إلى صدره. أخذت على حين غرّة وعجزت عن قول أيّ شيء. كنت أعرف بالطبع أننا صديقان حميمان، أو كنّا على أيّ حال، ولا ريب في أننا سنعود كذلك. فهو الرجل الراشد الذي لا يضاهي منـــزلته عندي أحد. وأنا مقتنع من أن بيننا ميثاقًا، وأنه ما زال ساريًا، إلا أن العناق لم يُدرج ضمن عاداتنا. قد نخوض معارك مُفتعلة، ويطوّق أحدنا الآخر في أثنائها، ونتدحرج جيئة وذهابًا كالمعتوهين على الرابية في المزرعة حيث ثمّة فسحة لممارسة تلك الألاعيب الصبيانية. أما هذا فلا علاقة له بالعراك. بل هو شيء معاكس له. وبقدر ما تسعفني الذاكرة، لم يسبق له قطّ أن فعل شيئًا مثله في السابق، ولم أشعر أنه تصرّف صائب. مع ذلك تركته يضمّني إليه وأنا أتساءل أين ينبغي لي أن أضع ذراعيّ. فأنا من ناحية لم أشأ دفعه بعيدًا، ومن ناحية أخرى لم أستطع مبادلته العناق، وهكذا تركتهما معلّقتين في الهواء. لم أضطرّ إلى إعمال فكري طويلاً، إذ ما لبث أن أفلتني ووقف، ثم أمسك يدي ورفعني على قدميّ. رأيته يبتسم، ولم أعرف هل وجّه تلك الابتسامة لي أم لا، ولم أجد ما أقوله. ناولني زمام حصاني، ونفض الغبار عن قميصي بعناية، وبدا أنه قد عاد إلى طبيعته المعهودة.

«يجدر بنا أن ندرك السويد،» قال. «قبل أن تغرق الأرض في

الظلام ونعجز عن تبيّنها. حينها لن يلوح أمامنا سوى خليج بوثنيا شمالاً، وفنلندا على الجانب الآخر. ولا شأن لنا بفنلندا الآن.» لم أفهم كلمة واحدة مما قاله، وما إن رأيته يضع رجله في الرِكاب ويمتطي الحصان حتى حذوت حذوه. ولم أهتمّ بفعل ذلك على نحو رشيق مع جسمي المتيبّس والموجوع. تسلّقنا إلى الصنوبرة المعوجّة التي بدت مثل تمثال منحوت، ثم اجتزنا الحدود إلى السويد. اكتشفت أنني أصبت في تخميناتي، في أن الشعور حيالها هو ما يختلف، على الرغم من أن كلّ شيء بعد الحدود بدا مماثلاً لما هو قبلها.

في تلك الليلة نمنا تحت صخرة ناتئة، حيث أُشعلت نار تخييم من قبل. عثرنا على مخلّفات كومتين من أماليد التنّوب أُعدّتا على شكل فرشتين، بيد أن إبر الأغصان كانت قد كلحت وسقطت منذ وقت طويل. لذلك، تخلصّنا من الكومتين وقطعنا أغصانًا جديدة من الأشجار المجاورة بالفأس الصغيرة؛ الفأس التي استعملتها مرّة بلهفة بالغة. صنعنا من الأغصان والأماليد سريرين طريّين تحت الصخرة. وفعمني أريج محبّب نفّاذ عندما اضطجعت على فراشي ودفنت وجهي في ثناياه. جلبنا غطاءينا وأضرمنا نارًا في وسط دائرة الأحجار المخلّفة من قبل، ثم جلسنا قبالة النار لنأكل. كنّا قد وصلنا حبالنا، وجعلناها حبلاً واحدًا طويلاً، ثم ربطناه حول أربعة تنّوبات مع مساحة كافية بينها لنشكّل طوقًا. وفي تلك البقعة أطلقنا الفرسين. من مجلسنا عند النار، تناهى إلينا شيء من حسّهما وهما يتحرّكان على الأرض الطريّة المعشوشبة. وسمعناهما بوضوح كلّما تعثّرت سنابكهما بحجر. وما فتئت حنجرتاهما تصدران حمحمات رقيقة تبادلا بثّها.

إلا أننا لم نستطع رؤيتهما لأننا كنّا في شهر آب، والمساء فيه أشدّ حلكة. رسمت ألسنة اللهب ظلالاً على السقف الحجري من فوق رأسي، فخضّبت أفكاري واستدرجتني إلى النوم وجعلت أحلامي أكثر عمقًا. وعندما أفقت في الليل لم أتذكّر في البداية أيّ شيء عن ذلك المكان ولا لماذا أنا فيه. لكن النار كانت لا تزال تشتعل، وكان ثمّة وهج كافٍ ونور من ألسنتها ومن باكورة اليوم لأقوم قبل أن أسترجع ذاكرتي، وأمشي بحذر إلى الفرسين حيث بدأ كلّ شيء يتدفّق في ذهني ببطء بينما الحصى والجذور تحفّ باطن قدميّ. تكلّمت مع الفرسين من فوق الحبل بوداعة عن أشياء وديعة نسيتها ما إن نطقت بها، ومسّدت في تلك الأثناء جيديهما العتيين. لاحقًا، كان بإمكاني أن أشمّ رائحتهما في أصابعي، وأسترجع مشاعر السكينة التي غمرت صدري قبل أن أدعهما وأمضي إلى ما وراء صخرة لأقضي ما قمت من أجله. في طريق عودتي جعلني نعاسي الشديد أتعثر عدّة مرات. وما كدت أستقرّ تحت الصخرة الناتئة حتى بادرت إلى التدثّر بغطائي وغفوت رأسًا.

تلك الأيام كانت الأيام الأخيرة. وبينما أجلس هنا الآن، في مطبخ البيت القديم الذي صمّمت على جعله مكانًا صالحًا لأقضي فيه ما تبقى لي من سنين، أجلس وحيدًا وقد رحلت ابنتي بعد زيارتها المفاجئة آخذة معها صوتها وسجائرها وأضواء سيارتها الصفراء على الطريق، وأعود بذاكرتي إلى ذلك الزمن، أدرك كيف استمدّ كلّ حدث في المشهد الإجمالي لونه مما تلاه ولا يمكن عزله عنه. وعندما يقول أحدهم إن الماضي بلد غريب، بمعنى أن أناسه يتصرّفون بطريقة

مختلفة، فهذا على الأرجح ما شعرت به معظم حياتي، لأنني أُلزِمته. أما الآن فما عدت ملزمًا بشيء. وبمجرّد أن أركّز يمكنني أن ألج متجر الذكريات، وأعثر على الرفّ المناسب والفيلم المناسب وأختفي في مشاهده، وأستشعر في جسمي نبض تلك الرحلة في الغابة مع أبي. أرانا عالِيين عن النهر على امتداد التلّ، ثم منحدرين إلى سفحه الآخر لنعبر الحدود إلى السويد، ونتوغّل في بلد أجنبيّ بالنسبة لي على الأقلّ. في وسعي الآن أن أرجع بظهري إلى الوراء، وأجلس قبالة النار تحت الصخرة الناتئة، كما فعلت في تلك الليلة لما قمت للمرّة الثانية ورأيت أبي مستلقيًا بعينين مفتوحتين، يحدقّ إلى الصخرة التي من فوقه؛ ساكنًا تمامًا، رأسه يتوسّد يديه، ونور أحمر منعكس من الجمرات على جبينه ووجنته الملتحية. لكنني لم أبق صاحيًا وقتًا طويلاً، وإن تمنيت لو فعلت، لأرى ما إذا كان قد أغمض عينيه قبل طلوع الصباح. مع ذلك، قام قبلي بوقت طويل وبلّل الفرسين بالماء ومشّطهما. وبدا لي حينها أنه متلهّف على الانطلاق، إذ ما انفكّ يتحرّك بعصبيّة، لكنني لم أستشفّ في صوته حدّة. وقبل أن تنـــزاح أحلامي من رأسي حزمنا أمتعتنا وأسرجنا الفرسين. ثم مضينا في طريقنا قبل أن يتسنّى لي إعمال ذهني في أي شيء بمعزل عن أفكار بسيطة جدًا.

سمعتُ خرير النهر قبل أن أبصره. وما إن التففنا حول تلّ صغير حتى لاح من بين الأشجار أبيض تقريبًا. تغيّر شيء ما في الهواء وجعل التنفّس أسهل. عرفت فورًا أنه نهرنا، وأنه فقط يوغل جنوبًا ويتغلغل في السويد. ومع أنه ليس من الممكن تمييز ماء عن ماء من طريقة

جريانه، ذاك بالضبط ما فعلته.

سرعان ما أصبحنا عند الضفّة، ومضينا نقود الفرسين نحو الجنوب بقدر ما تيسّر. تفحّص أبي عالية النهر وسافلته واستجلى الضفّة المقابلة. وفي البداية لم نلمح إلا جذع شجرة واحد محشور بين مجموعة من القصب. ثم رأينا الكثير منها إلى الأمام لابدًا عند مياه ضحلة. عندئذٍ أخرج أبي فأسه وقطع بعض الأغصان المتينة من شجرتي صنوبرٍ صغيرتين، وخضنا في الماء بأحذيتنا؛ أنا بحذائي الرياضي وأبي بجزمته الثقيلة ذات الأربطة. استخدمنا الأغصان كأوتاد وأعدنا الجذوع إلى التيّار. لاحظت أنه غدا قلقًا، لأن منسوب الماء كان لا يستحقّ الذكر، ولا يصلح بالتأكيد لتعويم الخشب. بعدئذٍ أراد أن نتتبّع منحدر النهر في الحال. فعدنا وامتطينا فرسينا، ثم انطلقنا وأغصاننا الطويلة مثل الحراب مسدّدة إلى السماء عند خاصرتي الفرسين، نمسكها ربما مثلما أمسك إيفانهو وفرسانه حرابهم وهم في طريقهم إلى مباراة فروسية، أو إلى معركة مصيرية ضدّ النورماند الأشرار في إنجلترا القديمة. حاولت كبح جماح مخيّلتي. ولم يكن هذا سهلاً وأنا أمتطي صهوة حصان، وأشقّ طريقي بحذر بين الأجمات المحاذية للضفّة، لأن العدوّ قد يظهر في أيّ لحظة. وصلنا إلى منعطف في النهر، وما إن تتبّعناه حتى طالعنا مجرى منحدر يسدّ جذعٌ وسطه. كان الجذع عالقًا بين صخرتين ضخمتين برزتا عاريتين في الماء الغائر. وكانت جميع الجذوع التي جاءت بعده قد حطّت عنده وتكوّمت، حتى تراكمت هناك أكداس هائلة من الأخشاب، وتسمّرت راسخة في مكانها. لم يكن ذاك ما أراد أبي أن يشاهده. تهيّأ لي أنه سيتداعى على سرجه. آلمني أن أراه بتلك الحالة، واستبدّ بي القلق. فقفزت من على حصاني

وجريت إلى الماء وتمعّنت في عقدة الأخشاب. ثم جريت مسافة على طول الضفّة وعيناي على النهر، وجريت عائدًا، وأعدت الكرّة لمسافة أبعد. رحت أثب هنا وهناك عاجزًا عن الوقوف ثابتًا، ودرست تلك الفوضى من جميع الزوايا الممكنة. في النهاية ناديت أبي:

«إذا أحطنا ذلك الجذع هناك بحبل،» وأشرت إلى الجذع المسبّب لتلك الورطة، «وجذبناه قليلاً بعيدًا عن الصخرة، سيتحرّر، وبالتالي ستتحرّر بقية الأخشاب.»

«ليس من السهل الوصول إلى هناك،» قال، وكان صوته فاترًا ومحبطًا. «ولن نفلح في زحزحة ذاك الجذع قيد أنملة.»

«صحيح. نحن، لا. لكن الفرسين يستطيعان.»

«طيّب،» قال. فشعرت ببارقة أمل. جريت إلى فرسي، وحللت الحبل من السرج، ثم حللت حبل سرج فرس أبي. بعد ذلك ربطتهما معًا، وصنعت عقدة منـــزلقة في أحد الطرفين، ضيّقتها ومرّرتها من رأسي إلى ما تحت إبطيّ حول صدري، وشددتها قليلاً من وراء ظهري.

«عليك أن تهتمّ بالطرف الآخر منه،» صحت من غير أن ألتفت لأرى هل سيتقبّل أمرًا مباشرًا منّي. بعدئذ، جريت على الضفّة المسافة التي شعرت أنها كافية، ثم ألقيت بنفسي في الماء رأسًا لأتلقى الصدمة دفعة واحدة. في البداية زحفت تقريبًا لقرب قدميّ من القاع، ثم فجأة ازداد عمق النهر وبدأت أسبح إلى وسطه. لم يكن التيّار قويًّا، لكنه جرّني. وما لبثت أن انسقت معه ورحت أتحرّك بسرعة أكبر. تركت جسمي ينجرف إلى أن تلمّست يداي أول جذع في طريقي. فحصته لأتأكّد من ثباته ثم صعدت عليه. عثر كعبا حذائي الرياضي على

موطئ مناسب فيه. وقفت هناك أترنّح إلى أن سيطرت على الموقف. ثم رحت أقفز من جذع إلى جذع رافعًا الحبل عاليًا بإحدى يديّ. قفزت على الجذوع المتحابكة ووثبت فوقها ومن بينها إلى طرفها الآخر وعدت ثانية. قمت بمجموعة من الوثبات غير الضرورية لأبثّ الإيقاع في رجليّ، ولأتحقق من أن ذلك الإيقاع ما زال في داخلي. ومع أن بعض الجذوع انقلبت ما إن حططت عليها وغيّرت وضعيتها، لم أفقد توازني لأنني كنت قد انتقلت إلى غيرها. ومن الضفّة صاح أبي:

«ماذا تفعل عندك؟»

«أطير!»

«أين تعلّمت هذا؟» صاح ثانية.

«عندما لم تكن تنظر،» أجبت وضحكت ووثبت قُدمًا إلى الجذع الذي سبّب المشكلة، وسرعان ما اكتشفت أن طرفه الذي أريد تطويقه بالحبل كان تحت الماء.

«سأضطرّ إلى الغوص،» صحت، وقبل أن يتمكّن أبي من رؤية أيّ شيء قفزت إلى الماء، وغصت حتى وقفت على قاع النهر. هناك، أحسست بالتيّار يلكم ظهري ويشدّ ذراعيّ. فتحت عيني ورأيت طرف الجذع أمامي مباشرة. مرّرت عقدة الحبل من رأسي وأوثقتها بالجذع حيث أردت. جعلني سير الأمور الحسن أشعر أنني أستطيع الوقوف حيث أنا بوزني شبه المعدوم مدة طويلة، مكتفيًا فقط بحبس أنفاسي وإبقاء ذراعيّ حول الجذع. إلا أنني تخلّيت عن الفكرة وطلعت إلى السطح. كان أبي قد ربط الحبل، وكلّ ما احتجت إليه هو أن أدفع نفسي إلى الضفّة. عندما وقفت أقطر ماءً على الأرض

الجافّة قال أبي:

«اللعنة، لم يكن ذلك سيّئًا،» ثم ابتسم وربط الحبل بلجام الفرس في إجراء مؤقت تدبّر تهيئته وأنا في النهر. أمسك العنان ومشى أمام الفرس وصاح اسحب! سحب الفرس بكلّ قواه و لم يحدث شيء. عاد وصاح اسحب! وسحب الحصان. عندئذ سمعنا ضجيجًا من المنحدر، ثم بدا كأن شيئًا قد تحطّم، وفي إثره انقلبت كدسة الجذوع كلّها إلى الأمام، وانزلقت جذعًا تلو آخر ووقعت في قبضة التيّار في الطرف الأدنى من المنحدر. انفرجت أسارير أبي. ومن طريقته في النظر إليّ عرفت أنني أنا أيضًا كنت منفرج الأسارير.

مكتبة
t.me/t_pdf

III

١٧

ذاك كان كما لو أن ستارة قد أُسدلت، حاجبة كلّ شيء عرفته في يوم ما. كان تقريبًا كأنني ولدت ثانية. الألوان اختلفت، الروائح اختلفت، والشعور الذي تولّده الأشياء في أعماقي اختلف. لم يكن فقط اختلافًا كاختلاف الحرارة والبرودة، والنور والظلمة، والأرجواني والرمادي. بل كان اختلافًا في الطريقة التي خفت بها والطريقة التي سعدت بها.

خبرت السعادة بين حين وحين، حتى في تلك الأسابيع الأولى عقب رحيلي عن ذلك البيت عند النهر. كنت أشعر بالسعادة والأمل كلما ركبت درّاجتي وانطلقت متتبعًا ساحل نيلسنباكين المنحدر، ومتجاوزًا محطة ليان إلى موسفين، لأقطع الكيلومترات السبعة إلى وسط أوسلو. وفي الوقت نفسه كنت أشعر بالقلق، وأجد صعوبة في التركيز، وقد أنبري ضاحكًا بصوت عالٍ بلا سبب. كان كلّ ما أراه في الطريق وفي الخليج أشياء عرفتها دائمًا، ومع ذلك بدت جميعها

مختلفة؛ لا نيسودين بدت كما عهدتها، ولا خليج بونّي من جهة شاطئ إنغرستراند ودارة روالد أموندسن، ولا جزيرة أولف بجسرها الجميل الذي يعلو المضيق ويقطعه، ولا حتى جزيرة مالم من ورائها مباشرة. لا مخزن الحبوب في مرفأ فيبتانغن، أو أسوار القلعة الرمادية في الطرف الآخر من حوض السفن حيث ترسو بواخر الخطوط الأمريكية. بل ولا حتى سماء المدينة في أواخر شهر آب.

يمكنني أن أرى نفسي أقود درّاجتي على طول الطريق إلى محطة أوستبان تحت ضوء الشمس الأبيض تقريبًا؛ ببنطلون رماديّ قصير وقميص مفتوح، وأنا أرفرف عابرًا حيّ بيكلاغت، وخطّ سكة الحديد عن شمالي، والخليج عن شماله، والمنحدر الصخري لتلّ إيكبرغ عن يميني. أسمع زعيق طيور النورس، والهواء تفوح منه رائحة زيت الكريوسوت المنبعثة من عارضات السكّة والرائحة الفجّة لماء البحر المالح. وعلى الرغم من انتهاء الصيف، كان جوّ أواخر آب لا يزال حارًا بسبب موجة حرّ طارئة. كان في وسعي أن أقود درّاجتي بأقصى سرعة والهواء الحارق يلفح صدري العاري الذي يتصبّب منه العرق. أو أقلع بتؤدة تحت الشمس بجلد جافّ وأسمع نفسي في بعض الأحيان أغني.

كان أبي قد أعطاني تلك الدرّاجة قبل سنة، في فترة تعذّر خلالها العثور على درّاجة جديدة واحدة في البلاد. اقتنى أبي تلك الدرّاجة لسنوات، ثم أودعها في القبو زمنًا طويلاً، لأنه نادرًا ما بقي في البيت ولأنه ما عاد له غاية فيها. استجدّ العصر، قال آنذاك، ومشاريعه جديدة، والدرّاجة ليست جزءًا من تلك المشاريع. لا ريب في أن ذلك كان شيئًا قاله لمجرّد القول فحسب. أما أنا فسرّني الحصول عليها،

ولطالما اعتنيت بها جيدًا. منحتني حرية ومجالاً ما استطعت الحصول عليهما لولاها. ولعدة مرّات فككتها إلى قطع وأعدت تركيبها مسترشدًا بتوجيهات أبي. تلك الدرّاجة، نُظّفت وصُقلت وزُيّتت جميع مفصلاتها وتروسها إلى أن دار ودار زنجيرها بسلاسة، دار بلا صوت ابتداءً من ذراع التوجيه مع الدوّاستين، ووصولاً إلى محور العجلة الخلفية ثم المقدّمة ثانية حيث وقاء السلسلة المصقول. فعلت هذا من يوم أن ركبتها وانطلقت نازلاً التلّ من البيت بلا وجهة، إلى يوم أن يمّمت بها بسلاستها نفسها الطريقَ البحري لمحطة أوستبان وركنتها في موقف الدرّاجات. ثم تجاوزت مرّة أخرى الأبواب الضخمة بعيدًا عن ضوء الشمس الحادّ إلى القاعة القاتمة بهوائها المفعم بالغبار، لأطّلع على جدول المواعيد. مشيت على امتداد الحواجز وسط حشود من الناس، والكلّ يتفقّد اللافتات أمام الأرصفة تحت السقف الزجاجي الملوّث بالسخام والمقنطر عاليًا فوق الناس والقطارات. من المؤكّد أنني وحدي فقط جذبت كمّ أحد الموظفين هناك، لأسأله بالتفصيل عن كلّ قطار يصل أوسلو عن طريق إلفيرُم. تأمّلني الرجل مطوّلاً وعرفني، لأنني سألته السؤال نفسه من قبل، عدّة مرّات، فاكتفى بالإشارة إلى اللافتات التي سبق لي أن رأيتها. ولسان حاله يقول؛ لا معلومات سرّية متوافرة، ولا لافتات مضلّلة في أيّ مكان.

كالعادة، اكتشفت أنني مبكر جدًا. اتخذت لنفسي وضعية قرب عمود لأنتظر في الضوء القاتم الغريب. ضوء لم يتغيّر قطّ في بهو المحطّة الهائل مهما اختلفت أوقات النهار، وفي الوقت نفسه لم يتناسب مطلقًا مع أيّ وقت؛ لا النهار ولا المساء، لا الصباح ولا حتى الليل. كانت أصداء وقع أقدام الناس وأصواتهم تفعم المكان. أما ما جاء في

المقام الأول فهو ذلك السكون العظيم في الأعلى تحت السقف. فهناك حطّت الحمائم في صفّ طويل؛ رمادية وبيضاء ومرقطة ببقع بنيّة، وعيونها تراقبني. كانت أعشاشها منتشرة في كلّ مكان بين العارضات المعدنية، وهناك عاشت طوال عمرها.

لكنه لم يأت بالطبع.

لا أعرف عدد مرّات قيامي بهذه الرحلة خلال أواخر صيف 1948، لأنتظر القطار القادم من إلفيرُم. وأنا أشعر في كلّ مرّة بالقلق نفسه والأمل نفسه، وبما يشبه السعادة في الواقع كلّما ركبت درّاجتي وانطلقت على طول منحدر نيلسنباكن وبقية الطريق لأقف هناك وأنتظر.

لكنه لم يأت بالطبع.

ثم هطل المطر الذي طال انتظاره. وواصلت ركوب درّاجتي إلى أوسلو مرّة كلّ يومين تقريبًا لأرى هل هو على متن قطار إلفيرُم في ذلك اليوم المعيّن. كنت أعتمر طاقية المشمّع والسترة الواقية من المطر. ولطالما بدوت بذلك الزيّ الأصفر مثل صيّاد سمك من لوفوتن. وكنت أذهب منتعلاً جزمة المطّاط لاتقاء الماء المتطاير على جانبي العجلات. الماء الذي جرى متدفقًا من أعلى تلّ إيكبيرغ إلى سفحه، ثم نحو سكّة الحديد على يمين الطريق، قبل أن تختفي السكّة في نفق وتظهر ثانية شمالاً على مسافة أبعد بقليل. ومن حولي جميع البيوت والأبنية أكلح من أيّ وقت مضى، وقد كفّت عن الإفضاء لي بشيء بعد احتجابها تحت المطر بلا عيون ولا آذان ولا أصوات. وفي ذات يوم توقّفت. في ذات يوم لم أذهب، ولم أذهب في اليوم التالي، أو الذي بعده. ذاك كان كما لو أن ستارة قد أُسدلت. كان كأنني وُلدت ثانية. الألوان

اختلفت، الروائح اختلفت، والشعور الذي تولّده الأشياء في أعماقي اختلف. لم يكن فقط اختلافًا كاختلاف الحرارة والبرودة، والنور والظلمة، والأرجواني والرمادي. بل كان اختلافًا في الطريقة التي خفت بها والطريقة التي سعدت بها.

في أواخر ذلك الخريف وصلتنا رسالة. كانت تحمل ختم إلفيرُم، واسم أمّي على المغلّف، وكذلك عنواننا في نيلسنباكن. لكنّ أسماءنا نحن الثلاثة كانت مدوّنة على ورقة ملاحظات في داخل المغلّف وكنيتنا أيضًا. هذا على الرغم من أننا نحمل كنية واحدة. بدا ذلك غريبًا، والرسالة بحدّ ذاتها كانت قصيرة. فيها، شكرَنا على الوقت الذي قضاه معنا، وأنه يتذكّره بسعادة، إلا أن الزمن اختلف الآن. ولا يستطيع فعل شيء حيال ذلك: لن يعود، لن يعود إلى البيت ثانية. في أحد بنوك كارلستاد في السويد، ثمّة مال جناه من بيع الخشب الذي قطعناه في ذلك الصيف وأرسلناه عن طريق النهر. وقد كتب للبنك مسبقًا، وهو الآن يرفق مع الرسالة توكيلاً لأمّي لتذهب إلى كارلستاد ومعها ما يثبت هويتها حتى تسحب المال. مع أطيب التمنيّات. والختام. لم يخصّني بتحيّة مميزة. لا أدري، اعتقدت حقًّا أنني أستحقّ واحدة منه.

«الخشب؟» كانت الكلمة الوحيدة التي قالتها أمّي. في تلك الفترة كانت علائم التثاقل قد بدأت تظهر على جسمها؛ تثاقل لازمها طوال عمرها. ليس مجرد تثاقل في حركة الذراعين والوركين وفي طريقة مشيها، بل تثاقل في صوتها وفي كلّ ما يتعلّق بها، حتى جفناها لطالما أظهراها كما لو أنها ستغفو، وليست بكامل يقظتها. أما

النقطة الأساسية في الأمر فهي أنني لم أخبرها قطّ عما فعلناه، أنا وأبي، في ذلك الصيف. ولا كلمة. لا شيء سوى أنّه سيعود إلى البيت حالما يتسنّى له ذلك، سيعود بعد أن ينهي ما ينبغي أن ينهيه.

اقترضت أمّي مالاً من أخيها. الأخ الآخر الذي لم يُرِده الغستابو قتيلاً وهو يحاول الفرار من مخفر الشرطة في الساحل الجنوبي سنة 1943. كنا ندعوه الخال أموند. أما الأخ الذي قُتل فهو الخال آرن شقيقه التوأم. كان التوأمان لا يفترق أحدهما عن الآخر. معًا ذهبا إلى المدرسة، ومعًا مارسا رياضة التزلّـــج عبر البلاد، وللصيد خرجا معًا. وبعد موت توأمه غدا الخال أموند صيادًا وحيدًا. أقام في الشقة المشتركة بينه وبين توأمه آرن في المدينة في فاليرنيغا. و لم يتزوّج. آنذاك لم يكن يتجاوز من العمر إحدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين سنة. بيد أن شقّته في سمولينسغاتا فاحت دائمًا برائحة رجل عجوز. أو هذا على الأقلّ ما أحسسته كلّما زرته هناك.

بذلك المال الذي اقترضته أمّي اشترت تذكرتي سفر على قطار ستوكهولم إلى كارلستاد. كنت قد درست طريق الرحلة: الانطلاق باكرًا في الصباح من محطة أوسلو الشرقية، الاتجاه على طول نهر غلوما إلى كونغسفنجر، ثم الانحراف إلى الجنوب عبر الحدود إلى السويد وشارلوتنبيرغ، ومن هناك الانحدار إلى آرفيكا إزاء خليج غلافس ثم قدمًا صوب كارلستاد؛ عاصمة مقاطعة فارملاند المجاورة لبحيرة فانرن العظيمة. تلك البحيرة التي جعلت باتساعها الهائل مدينة كارلستاد ميناءً بحريًا. وكنّا سنعود من هذه الرحلة في مساء اليوم نفسه. أرادت أمّي أن أرافقها، في حين تقرّر أن تبقى أختي في البيت.

هذا متوقّع، قالت أختي يومها، ولم تجانب الصواب، لكن القرار بطبيعة الحال لم يصدر منّي.

في هذه المرّة، لم تكن الرحلة قيادة درّاجة والانطلاق بها على طول طريق موسيفين إلى محطة أوستبان. إنما كانت ركوب القطار المحلّي من ليان إزاء الخليج. الخليج الذي غادره الصيف لتكلّله سماء رمادية واطئة تكاد تلامس قمم الأمواج، والريح العاصفة تسوط ماءه جاعلة إياه مثل دانتيلا بيضاء متداخلة بين الجزر. وفيما أنا واقف على الرصيف راقبت قبّعة امرأة طارت عاليًا فوق سكّة الحديد. كانت أشجار الصنوبر الباسقة المتوافرة بكثرة حيث نقطن تترنّح تحت وطأة الريح، وتنحني بطريقة مخيفة أمام عصفها الأهوج. لكنها لم تسقط. مرات عديدة في طفولتي، اعتقدت أنها ستسقط، أنها ستتهاوى أرضًا وتشرّع جذورها في الهواء. اعتقدت هذا كلّما جلست عند النافذة في الطابق الأول وحملقت بعصبية إلى الجذوع الصفراء المشرّبة بالحمرة، بينما الريح تهاجمها من كلّ مكان بين البيوت على التلال فوق الخليج. ولطالما رأيتها تنحني بطريقة مخيفة، بيد أنها لم تسقط.

في محطة أوستبان عرفت على الفور أيّ أرصفة سيصل إليها كلّ قطار قادم. وعرفت متى سيقلع كلّ قطار منها. اقتدت أمّي إلى الرصيف الصائب، ووجدت العربة الصائبة، وحيّيت عن يميني وعن يساري الناس الذين سبق لي أن تكلّمت معهم؛ العتالون والجباة وصاحبة الكشك، ورجلان اعتادا البقاء هناك ليثملا على مشروب مقزّز للنفس غير معروف من قنينة تقاسماها. كانا يُطردان يوميًا، ويوميًا يعودان بانتظام.

جلست في المقصورة إزاء النافذة في الاتجاه المعاكس لوجهة السير،

لأن أمّي قالت إنها ستشعر بالغثيان إذا جلست على ذلك النحو، وأنها مشكلة يعاني منها الكثير من الناس. وهذا لم يزعجني مطلقًا. انطلق القطار متتبّعًا نهر غلوما. وما فتئت الأعمدة تحدث صوتًا وهي تمرّ بنا، سواء عند محطة بليكر أو آرنز؛ بينغ وبينغ وبينغ. وطقطقت عجلات القطار عند مفاصل السكّة؛ دونغ دانغ، دونغ دانغ، دونغ دانغ. نمت في مكاني ونور وامض على جفني؛ ليس ضوء الشمس، إنما بريق معتم البياض من السماء فوق الماء. حلمت أنني ذاهب إلى الشاليه عند النهر، وأنني في الحقيقة أجلس في الحافلة.

أفقت وتطلعت خارجًا إلى نهر غلوما بعينين كدرتين، وعرفت أن ذلك الشعور ما زال في داخلي؛ أنه كان بيني وبين الماء صداقة، بيني وبين الماء الجاري. وأن النهر الكبير يناديني؛ النهر الذي اندفع فيّاضًا في الاتجاه المعاكس لاتجاه النهر الذي نسافر بإزائه. فنحن كنّا متجهين شمالاً، والنهر يجرى جنوبًا ميمّمًا مدن الشاطئ، متدفقًا بغزارة وواسعًا بسعة جميع الأنهار العظيمة.

أشحت بعيني عن الغلوما لأنظر إلى أمّي الجالسة قبالتي. لأنظر إلى وجهها الذي تتالى وميض الضوء عليه ونحن نمرّ بالأعمدة والصواري القريبة من السكّة، وبالجسور الصغيرة والأشجار. كانت عيناها مغمضتين، وجفناها الثقيلان مسبلين على وجنتيها المستديرتين، كما لو أن أيّ شيء ما عدا النوم هو أمر غير طبيعي لذلك الوجه. بحقّ الله، قلت لنفسي آنذاك، لقد اختفى وتركني معها.

أوه.. كنت أحبّ أمّي بالطبع. لا أقول إنني لم أفعل. لكن المستقبل الذي استقرأته في ذلك الوجه الماثل أمامي ليس المستقبل الذي تخيّلته دائمًا. جعلني مجرّد النظر إليه لأكثر من ثلاث دقائق أشعر أن العالم

يثقل كاهليّ. جعل أنفاسي تتسارع. وهكذا عجزت عن الجلوس ساكنًا. فنهضت من مقعدي، فتحت باب المقصورة واجتزت الممرّ إلى نوافذ الجهة المقابلة من القطار، حيث كانت الحقول المحصودة تمرّ متسارعة، وقد انبسطت جرداء بلون بنّيّ مصفرّ في ضوء الخريف الكئيب. هناك، رأيت رجلاً واقفًا يتأمّل الطبيعة. شيء ما في قفاه بدا مألوفًا لي. كان يدخّن سيجارة وأفكاره شاردة بعيدًا. حينما دنوتُ من النافذة التفتَ كما لو أنه في حلم وأومأ برأسه محيّيًا في مودّة وابتسم. لا، لم يكن فيه أيّ شيء يشبه أبي. قطعتُ الممرّ على طول أبواب المقصورات إلى نهاية العربة، ثم استدرت عند حاوية الماء الكبيرة ورجعت أدراجي. تجاوزت الرجل صاحب السيجارة و عيناي على الأرض متابعًا طريقي إلى نهاية الممرّ الأخرى. وجدت هناك مقصورة شاغرة، دخلتها، أغلقت الباب، وجلست إزاء النافذة مع اتجاه السير. رنوت إلى النهر الذي أقبل مندفعًا نحوي ثم مختفيًا خلف ظهري. ربما بكيت قليلاً ووجهي ملتصق بالزجاج. وبعد فترة أغمضت عينيّ ونمت بلا حراك كالحجر إلى أن خبط الجابي الباب وهو يفتحه وقال إننا وصلنا إلى كارلستاد. وقفنا على الرصيف والجميع كتف إلى كتف. وخلفنا القطار على السكّة وقد لبث ينتظر الانطلاق ثانية ليشقّ طريقه إلى ستوكهولم. سمعنا هديرًا من إحدى مراوح التهوية، وسمعنا الريح تعصف بالأسلاك ما بين أبراج التلغراف على طول المحطة. ومن على الرصيف صاح رجل على زوجته بالسويديّة «هيّا تبًا لك!» ومع ذلك بقيت حيث هي محاطة بأمتعتهما. بدت أمّي كالضائعة، ووجهها منتفخ من النوم. لم يسبق لها أن سافرت إلى الخارج. أنا وحدي فعلت، لكن إلى الغابات فقط. لاحظنا على

الفور أن كارلستاد تختلف عن أوسلو، وأناسها يتحدّثون بلكنة مختلفة. لم يقتصر الاختلاف على الكلمات بل حتى نغماتها تميّزت بوقع أجنبيّ. ومن المحطة، لاحت المدينة أفضل تنسيقًا من أوسلو، وأقلّ تهالكا بكثير. لم نعرف أين ينبغي علينا الذهاب، ولأنه لا نيّة لدينا في قضاء الليلة هناك، أو في القيام بنـــزهات استكشافية طويلة، لم نحمل معنا سوى حقيبة واحدة. لم نبغ إلا الوصول إلى البنك، بنك فارملاندس، كما يسمّونه. ونعلم أنه في مكان ما في وسط المدينة. وبعد ذلك سنحتاج إلى شيء نأكله. إذ رأينا أننا نستطيع تحمّل هذه التكلفة؛ تكلفة الأكل في مقهى ولو لمرّة واحدة، وذلك بعد أن نقصد البنك لنحصّل المال الذي تركه أبي لنا. هذا مع أنني عرفت أن أمّي قد أعدّت زوّادة غداء ووضعتها في الحقيبة احتياطًا.

يمّمنا مبنى المحطة، دخلناه ومشينا على الأرض المبلّطة، ثم خرجنا إلى الطريق الذي يوازي السكّة. قطعنا شارع يارنفيغس إلى وسط المدينة. تفحّصنا الأبنية على الجانبين بحثًا عن لافتة البنك الذي لدينا عنوانه مدوّنًا في رسالة في الحقيبة. وعندما تعذّر علينا العثور عليه راح أحدنا يسأل الآخر: «هل تراه؟ هل ترينه؟» ثم يجيب كلّ منا بدوره «لا».

كنت أنا من يتأبّط الحقيبة بينما مضينا نقطع ذلك الشارع بطوله. ثم بلغنا نهايته عند نهر كلارا الذي جرى مندفعًا من الغابات العظيمة هناك في الشمال، وتفرّع في تلك البقعة بسبب لسان من اليابسة. وقفنا عند ذاك اللسان، فيما النهر يتابع جريانه خلال كارلستاد، حيث يقسّم المدينة إلى ثلاثة أجزاء قبل أن يصبّ أخيرًا على شكل مثلّث في بحيرة فانرن العظيمة.

«أليس هذا بديعًا؟» قالت أمّي. وأعتقد أن ما قالته صحيح، لولا البرد، وتيّار الهواء الجليدي من النهر. كنت متجمّد الأوصال بسبب نومي في القطار ثم خروجي مباشرة إلى الريح وبرد الخريف القارس. لم أرغب إلا في إنهاء ما جئنا من أجله: أن نسوّي الحساب المصرفي للمرّة الأولى والأخيرة، وأن يأتي من يرسم لنا عمودين من الأرقام ويقول: هذا ما لديكم. هذا ما صرفتموه. وهذا ما تبقّى لكم.

أولينا النهر ظهرينا وسلكنا طريقًا آخر موازيًا للذي قطعناه.

«هل تشعر بالبرد؟» قالت أمّي. «في الحقيبة وشاح يمكنك استعماله. ليس وشاحًا نسائيًا، ولن يسبّب لك الحرج.»

«لا، لا أشعر بالبرد،» أجبت وأنا أسمع في صوتي نبرة تأفّف وانزعاج. نبرة لطالما تعرّضت للانتقاد في حياتي بسببها، من النساء على وجه الخصوص، وذاك لأنها النبرة التي درجت على استعمالها ضدّهن. لا أنكر هذا.

بعد لحظة أخرجتُ الوشاح من الحقيبة. كان وشاحًا يعود لأبي. مع ذلك لففته حول رقبتي وعقدته عند ذقني مخفيًا طرفيه تحت سترتي، فغطيا مساحة كبيرة من صدري. شعرت على الفور أنني أفضل حالاً وقلت بحزم:

«علينا أن نسأل أحدًا. لا يمكن أن نواصل الدوران في حلقة مفرغة.»

«أوه، سنعثر عليه حتمًا.»

«طبعًا سنفعل في النهاية. لكن من الغباء أن نضيّع الوقت بلا فائدة.»

عرفت أنها تخشى ألاّ يفهم عليها الناس إذا سألتهم، وأنني

سأربكها وأجعلها تبدو عاجزة، كفلاّحة في المدينة، كما قالت مرّة. وقد أرادت أن تتجنّب كلّ ذلك مهما كلّف الأمر. بالنسبة إلى أمّي، كان الفلاحون فصيلاً متخلّفًا من البشر.

«حسنًا، سأسأل أنا.»

«افعل ما يحلو لك. فنحن في جميع الأحوال سنعثر عليه. لا بدّ أنه في مكان ما في هذه الأنحاء.»

هراء.. هراء.. هراء.. قلت لنفسي، ومضيت إلى أول رجل مقبل على الرصيف وسألته إن كان يستطيع مساعدتنا في العثور على بنك فارملاندس. بدا الرجل طبيعيًا تمامًا، وبالتأكيد ليس مخمورًا. لاحظت أنه أنيق الملبس ومعطفه شبه جديد. أنا واثق من أنني اخترت كلمات بسيطة وواضحة وسليمة النطق. لكنه وقف ينظر إليّ بفم فاغر، كما لو أنني جئت من الصين؛ على رأسي قبعة مستدقة الأطراف وعيناي مشروطتان. أو ربما لديّ عين واحدة فقط في الوسط فوق أنفي تمامًا، مثل العمالقة الأسطوريين الذين قرأت عنهم. فجأة، شعرت بالغضب يستعر صدري مثل لسان من لهب، غدا وجهي ساخنًا، ووخزني حلقي. فقلت:

«أنت أطرش أم ماذا؟»

«ها؟» صاح الرجل بصوت له وقع عواء كلب.

«هل أنت أطرش؟ ألا تسمع حينما يكلّمك الناس؟ أخطبٌ ما في أذنيك؟ هل تدلّنا على بنك فارملاندس؟ إننا مضطرّان إليه.. أفهمت؟»

لم يفهم. لم يفهم شيئًا مما قلته على الإطلاق. كان الموقف سخيفًا. وببساطة راح يتفرّس بي وهو يهزّ رأسه من جانب إلى جانب وفي

عينيه نظرة عصبية، كأن الشخص الواقف أمامه معتوه فرّ من دار المجانين، ولا حلّ أمامه سوى المماطلة إلى أن يأتي الحراس ويعيدوا هذا المعتوه إلى الدار قبل أن يؤذي أحدًا.

«ما رأيك في لكمة على فمك؟» هتفت، مرتئيًا أن لا شيء يمنعني من قول ما قد يخطر لي ما دام لن يفهم ما أقوله. كنت أماثله طولاً، وبحالة بدنيّة جيدة بعد ذلك الصيف، لأنني تدرّبت على مختلف أنواع النشاطات. شددت عضلاتي وثنيت جسمي في كلّ الاتجاهات، وحملت الأثقال، وجررت أيّ شيء تقريبًا، ورفعت الأحجار والأشجار واقتلعتها، وجدفت القارب مع تيّار النهر وضدّه. وفي أواخر الصيف، قدت درّاجتي مرّات لا تحصى المسافة كلّها بين نيلسنباكن ومحطة أوستبان. وهكذا شعرت في تلك اللحظة بأنني قويّ، وبطريقةٍ ما منيع. و لم يوح لي مظهر الرجل أنه شخص رياضي. لكن، بدا أنه فهم جملتي الأخيرة أكثر من سابقاتها، لأن عينيه تدوّرتا مثل طبقين، وأصبحتا حذرتين فجأة. فما كان مني إلا أن كرّرت اقتراحي عليه:

«إذا أردت لكمة على فمك يمكنك الحصول عليها الآن، لأنني بالتأكيد راغب في تسديد واحدة إليك. ما عليك إلا أن تُعلِمني.»

«لا،» قال.

«لا، ماذا؟»

«لا. لا أريد لكمة على فمي. إذا ضربتني سأستدعي الشرطة.» تكلّم بوضوح تامّ كما يفعل الممثلون. وهذا أحنقني إلى أبعد الحدود.

«سرعان ما نعرف،» قلت وأنا أكوّر قبضة إحدى يديّ. شعرت

بها دافئة ومحكمة ومشدودة الأوتار، و لم أعرف من أين جاءني ذلك، من أين جاءتني تلك الكلمات التي سمعت نفسي أنطقها. ما سبق لي مطلقًا أن وجّهت مثلها لأيّ شخص، لا لأناس أعرفهم، ولا لأناس لا أعرفهم حتمًا. تراءى لي لحظتها أنه من حجر الرصيف الحصوي ذاك الذي أقف عليه تخرج خطوط متعدّدة ومختلفة الاتجاهات. كما قد نراها في رسم بياني متقن. وأنا أقف داخل دائرة في الوسط. واليوم، بعد ما يزيد على خمسين سنة، يمكنني أن أغمض عينيّ وأرى تلك الخطوط بجلاء، كأنها سهام مضيئة. ولو لم أرها بهذا الجلاء في ذلك اليوم الخريفي في كارلستاد، لتيقّنت من أنها كانت هناك. هذا أمر أنا متأكّد منه. تلك الخطوط، هي الدروب المختلفة التي كان يمكن أن أسلكها، ولو اخترت سلوك واحد منها، لانهارت القضبان التي تحمي الحصن، ولرفع أحد ما الجسر المؤدّي إلى القلعة، ولتبع ذلك ردّ فعل تسلسلي لا يمكن لأحد إيقافه. وحينها لن يكون مجال للتراجع، ولا مجال للرجوع. ولو ضربت الرجل الواقف أمامي يومها، لكنت قد اخترت ذلك الاتجاه.

«أحمق سخيف،» قلت مدركًا على الفور أنني قرّرت تركه وشأنه. تراخت قبضتي اليمنى على مضض، في حين مرّت بالوجه الماثل أمامي موجة خيبة واضحة المعالم. لأسباب لم أستطع تبيّنها شعرت أنه تمنّى لو أتيح له استدعاء الشرطة. ثم سمعت أمّي تصيح من مكان ما في أسفل الشارع:

«ترونـد! ترونـد! إني أراه، إنه هنا ! بنك فارملاندس هنا!» رأيت أنها صاحت بصوت أعلى مما هو ضروري. مع ذلك غبطت نفسي لأنها لم تنتبه إلى الحدث الذي يجري في حياتي عند نهاية الشارع.

في تلك اللحظة خطوت خارج الدائرة؛ كفّت السهام المضيئة عن الوميض، وذابت الخطوط والرسوم البيانية وانجرفت نحو المجاري بجدول رمادي رفيع وتلاشت في أقرب بالوعة. ومع أن أظفاري تركت علامات حمراء على راحتي اليمنى، كان الخيار قد اتُخذ. ولو لكمت ذلك الرجل في كارلستاد، لأخذت حياتي مجرى مختلفًا، ولأصبحت رجلاً آخر. ولا ريب في أنه من الحمق الادّعاء، كما يفعل بعض الناس، أن النتيجة ستبقى نفسها. لا، لن تبقى نفسها. لقد حالفني الحظّ آنذاك. قلت هذا سابقًا. وما قلته صحيح.

لم أرغب في الدخول إلى البنك فانتظرت خارجًا. وقفت في الفسحة بين النوافذ مسندًا أحد كتفيّ إلى آجرّ الجدار الرمادي ووشاح أبي حول رقبتي. كان شهر تشرين يلسع وجهي، وفي داخلي جاش إحساس جليّ بنهر كلارا وبكلّ ما يعجّ فيه على مسافة ليست ببعيدة خلفي. استشعرت في معدتي ارتعاشًا، كما لو أنني كنت قد جريت طويلاً واستعدت أنفاسي بينما لا يزال الجهد يعتمل في داخلي؛ كأنّه نور نسي أحدهم أن يطفئه.

دخلت أمّي إلى البنك وبيدها وكالة أبي؛ دخلت غير هيّابة ومستعدّة لإنجاز المهمّة، إنما معوّقة بالخجل من لهجتها النرويجية. مضى على غيابها ما يقارب نصف ساعة. اللعنة، قلت لنفسي، متيقّنا من أنني سأمرض، فقد كان الجوّ قارس البرد في الخارج. عندما ظهرت أمّي أخيرًا يعلو وجهها الارتباك وشيء من الشرود، شعرت كما لو أن صقيع النهر غلّف جسمي بغشاء من مادّة مجهولة، مادّة ساهمت في زيادة نسبة انعزالي قليلاً. استقمت وقلت:

«كيف جرى الأمر هناك؟ هل تعذّر عليهم فهم ما تقولينه؟ أم رفضوا إعطاءك أيّ مال؟ أم لعلّه ليس هناك حساب؟»

«آه لا،» قالت. «جرى الأمر بيسر. يوجد حساب، وأعطوني المال الذي فيه.» ثم ضحكت بشيء من العصبيّة وأردفت:

«ليس في الحساب سوى 150 كرونر. لا أدري. هل تظنّ أنه مبلغ زهيد؟ أنا لا أعرف عن الموضوع شيئًا، ولكن قل لي كم تجني من بيع خشب كذاك؟»

لم أكن، وأنا في الخامسة عشرة من العمر، خبيراً، إنما لا شكّ في أنه كان ينبغي للمبلغ أن يتعدّى عشرة أضعاف ما هو موجود. لم يُخفِ فرانز قطّ حقيقة أن إرسال الجذوع لم يتمّ بالطريقة التي تمنّاها أبي، وأنه كان مشروعًا ميؤوسًا منه، وصداقتهما هي السبب الوحيد وراء مشاركته في العمل. ثم إنه كان يعرف ما جعل أبي يستميت إلى ذلك الحدّ. وعلى الرغم من أنني أنا وأبي حرّرنا ما علق من تلك الجذوع عند المنحدر النهري، قبل أن نعود أدراجنا، وأرجع أنا إلى بيتنا، لم يكن ذلك كافيًا. ولا ريب في أن النهر أطلق مكابحه بلا رحمة. لا ريب في أن الماء قد غار بمنتهى السرعة وعاد إلى مستواه المعهود في شهر آب، بعد ارتفاع منسوبه الطارئ في إثر العواصف الماطرة. وهذا أدّى إلى تصادم الجذوع وانقلابها وتراكمها بأكداس هائلة لا يزعزعها إلا الديناميت عندما يحين الوقت المناسب لزعزعتها. ولا ريب في أنها في النهاية حطّت على الضفاف الصخرية، أو غاصت إلى القاع في المناطق الضحلة بطريقة مزرية و لم تتحرّك ثانية. وبذلك لم يصل إلى المنشرة في الوقت المقرّر إلا عُشر الكمية. كمية لم يتجاوز ثمنها 150 كرونر سويدي.

«لا علم لي،» قلت. «لا علم لي ما المبلغ الذي تجنينه من الخشب. لا فكرة لدي.»

وقفنا على الرصيف أمام بنك فارملاندس نتبادل النظر؛ أنا مقطّب الجبين وغير متعاون كحالي معها غالبًا، وهي مشوّشة الذهن ومحتارة، لكن من غير مرارة في ذلك اليوم. قضمت شفتها، ثم ابتسمت فجأة وقالت:

«أوه، لا بأس، حصلنا على يوم معًا، أنا وأنت. وهذا لا يحدث كلّ يوم يا فتى.» وما لبثت أن ضحكت وأردفت، «أتدري ما هو أطرف شيء في الموضوع؟»

«أيّة شيء طريف؟» تساءلتُ.

«علينا أن ننفق المال هنا. غير مسموح لنا أن نأخذه إلى النرويج بهذه الطريقة.» ضحكت بصوت أعلى. «إنه شيء يتعلّق بالقيود المالية التي كان يجدر بي أن أعرفها بالطبع. أخشى أنني ما أعرت الأمور كثيرًا من الانتباه. وسأضطرّ، كما أرى، إلى فعل ذلك من الآن فصاعدًا.»

هي في الحقيقة لم تفعل شيئًا من هذا. كانت غير واضحة في أساليبها، مستغرقة أكثر مما ينبغي بأفكارها الخاصّة معظم الوقت. ما عدا ذلك اليوم الذي بدت فيه جدّ متيقّظة. عادت وضحكت بصوت عالٍ، أمسكت كتفي وقالت:

«تعال، سأريك شيئًا لمحته في الطريق إلى هنا.»

انحدرنا نحو طريق المحطّة معًا وأنا أشعر ببرد شديد، وساقاي متيبّستان من الوقوف بلا حراك، وجسمي خدر. وما إن بدأنا نمشي حتى تحسّن حالي.

توقّفنا عند أحد محلات الملابس.

«ها هو،» قالت ودفعتني أمامها إلى الداخل. أقبل رجل من غرفة وراء المنصّة وانحنى عارضًا خدماته. ابتسمت أمّي وقالت بصوت واضح:

«نريد بدلة لهذا الشاب.» وبالطبع، لم تكن تُسمّى بدلة، بل لها اسم مخالف تمامًا لن نفلح مهما حاولنا في تخمينه. بيد أنها استطاعت تفادي المعضلة وبدون أن تشعر بأي إحراج؛ إذ مضت بخفّة رشيقة وكعبها يطرق الأرض إلى حيث عُلّق صفّ من البدلات. أخذت واحدة منها، أرجحتها من علاقتها، ثم أسندتها إلى ذراعها اليسرى وهتفت:

«واحدةٌ مثل هذه، لابني هناك،» ثم ابتسمت وعلّقت البدلة ثانية. فابتسم الرجل بدوره وانحنى وأخذ مقاس خصري، والمسافة من أصل فخذي إلى الأسفل. سألني عن مقاس قمصاني، وهو شيء ما فكّرت فيه مطلقًا، لكن أمّي أخبرته. ذهب بعدئذ إلى منصّة وأخذ بدلة داكنة الزرقة رأى أنها ستناسبني، ثم أشار إلى غرفة قياس في مؤخّرة المحل من دون أن تفارقه ابتسامته. مضيت إلى المقصورة التي حوت مرآة طويلة ومقعدًا، علّقت البدلة على مشجب وبدأت أخلع ثيابي. كان الجوّ في المحل حارًّا جدًا إلى درجة أن جلد بطني بدأ يخزني، وسرى الوخز في ذراعيّ. شعرت بالدوار والنعاس فجلست على المقعد ووضعت يديّ على ركبتيّ وأسندت رأسي إليهما. فعلت ذلك وليس عليّ سوى قميصي الأزرق وكلسوني. ولولا نداء أمّي لغفوت حيث أنا بمنتهى السهولة.

«هل أنت على ما يرام يا تروند؟»

«نعم، أنا بخير،» أجبت ثم وقفت وبدأت ألبس البدلة؛ البنطلون أولاً ثم السترة فوق القميص الأزرق. جاء مقاسها مناسبًا جدًا. لبثت هناك أتأمّل نفسي في المرآة. انحنيت وانتعلت حذائي ثم استقمت وعاودت النظر إلى نفسي. بدوت شخصًا آخر. زررت السترة، فركت عينيّ ووجهي بظاهر يدي، فركت وفركت، مرّرت أصابعي في شعري بقوّة، عدّة مرّات، دفعت غرّتي إلى الجانب، وأرجعت شعر صدغيّ إلى ما وراء أذنيّ. دعكت فمي بأطراف أصابعي، فتدفّق الدم في شفتيّ، وتدفّق الدم في وجهي. ثم صفعت وجنتيّ مرّات. عدت ونظرت في المرآة. أنعمت النظر وأطبقت فمي بعزم. استدرت جانبًا ونظرت إلى المرآة من فوق كتفي، وفعلت الشيء نفسه من الجانب الآخر. بدوت شخصًا مختلفًا تمامًا عن الشخص الذي كنته في ذلك اليوم. لم يعد مظهري مظهر غلام. مشطت شعري بأصابعي عدّة مرّات أخرى قبل أن أخرج إلى المحل. وأكاد أقسم أن أمّي احمرّت وجنتاها عندما شاهدتني. عضّت شفتها بسرعة وقصدت الرجل الذي عاد إلى مكانه وراء منصّة البيع وهي ما تزال تمشي بخفّة.

«سنأخذها.» قالت.

«ثمنها ثمانيةٌ وتسعون كرونر.» قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

كنت لا أزال واقفًا خارج المقصورة. رأيت أمّي تنحني فوق المنصّة، سمعت الصندوق يُفتح، وصوت الرجل يقول:

«شكرًا جزيلاً يا سيدتي.»

«هل أستطيع أن أبقى بها؟» سألتُ بصوت عالٍ فالتفتا نحوي، وهزّا رأسيهما معًا، كما لو أنهما شخص واحد.

أخذت ملابسي القديمة في كيس ورقي، لففته وتأبّطته. حينما

أصبحنا في الخارج، وعرّجنا على مقهى، لنأكل شيئًا على الأرجح ونحن في طريقنا إلى المحطّة، شبكت أمّي ذراعي بذراعها. وهكذا مضينا، بذراعين متشابكتين مثل زوجين حقيقيين، خفيفي الخطى، متساويين في الطول، ولكعبها في ذاك اليوم وقع تعالى رجع صداه من الجدران على جانبي الطريق. كان ذاك كما لو أن شيئًا أوقف الجاذبية عن العمل. كأننا كنّا نرقص، فكّرت يومها، على الرغم من أنني ما رقصت قطّ في حياتي.

لم يتح لنا مطلقًا أن نتبادل الحديث على ذلك النحو ثانية. عندما عدنا إلى البيت في أوسلو، رجعت من جديد إلى تثاقلها وبقيت كذلك طوال عمرها. إنما في ذلك اليوم، في كارلستاد، مشينا ذراعًا بذراع على طول الطريق. وبدلتي الجديدة ناسبت جسمي على نحو أنيق جدًا، وما فتئت تنساب معي في كلّ خطوة خطوتها. بقيت الريح تفد من النهر إلى ما بين البيوت بنفحات صقيعية، وآلمتني يدي المتورّمة التي انغرزت أظفاري في لحمها حينما كوّرت قبضتها بعنف. لكن كل شيء بدا رائعًا في تلك اللحظة؛ البدلة رائعة، والمدينة رائعة للمشي فيها على طول طرقاتها المرصوفة بالحجارة. ونحن في النهاية، نحن بأنفسنا من يقرّر متى نتوجّع.

مكتبة
t.me/t_pdf

telegram @t_pdf

في سنة 1948، يقضي *تروند* ابن الخامسة عشرة الصيف مع أبيه في الريف. ومن هناك تتسلسل الأحداث غير المتوقعة التي غيّرت مجرى حياته إلى الأبد.

في سنّ متأخرة، بعد انتقال *تروند* إلى العيش في منطقة نائية من النرويج، تشاء الصدف أن يلتقي أحد أشخاص ذلك الصيف المصيري. فتستثار في نفسه الذكريات المؤلمة وترغمه على استعادة ماضيه.

لنخرج ونسرق الخيول، حكاية محزنة ومؤثّرة، تناقش منظور الإنسان المتغيّر للحياة؛ تغيّره من براءة الصغر إلى التقبّل الممضّ للخيانة، ومن مشاعر الحنين إلى الماضي إلى طريقة حياة أسهل.

رواية ذات إيقاع يتناغم فيه الإحساس العميق بمرور الزمن مع العزاء الذي تقدمه الطبيعة. وأسلوبها النثري الذي يتألّف من عدة طبقات يستحثّ القارئ على الإمعان في كلّ فقرة منها على حدة.

قالت عنها **صحيفة *الإندبندنت***: قصة باهرة.. وعمل فنّي أصيل.

قالت عنها **صحيفة *الحياة***: رواية حافلة بلغة جارفة لا تهدأ.

وقالت عنها *الآيرش تايمز*: إنها كتاب إبداعي متفرّد في نوعه.

وجاء في *الديلي إكسبرس*: حكاية مدهشة تحبس الأنفاس، ففيها يقبض بيترسون بطريقة جدّ فعّالة على الشيء الذي يطاردنا كلّنا؛ إدراكنا لمدى هشاشة الحياة..

***

فازت هذه الرواية بجائزة *إمباك الأدبية الدولية* لسنة **2007**.

دار المنى
السويد